بنت صهيون

رواية

اسم الكتاب: بنت صهيون
تأليف: د.شريف شعبان
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 21117/ 2014
الترقيم الدولي: 978-977-6376-71-7

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

بنت صهيون

د.شريف شعبان

رواية

قومي ودوسي يا بنت صهيون،
لأني أجعل من قرنك حديدًا وأظلافك أجعلها نحاسًا
فتسحقين شعوبًا كثيرين

(سفر ميخا ٤/١٣)

الأربعاء ٥ فبراير ١٨٤٠ -دمشق*

سطعت شمس هذا اليوم على مدينة دمشق الفيحاء وهي تنذر بانتشار وباء الجدري بين الأهالي.. فالمدينة رغم جمالها لكنها تعاني انتشار الجهل والفقر وقلة الوعي بين سكانها.

كان الأب توما ذلك القسيس الإيطالي صاحب اللحية البيضاء والوجه الأحمر السمح رغم تجاعيده، يقوم بدوره في التطوع لتطعيم أهالي دمشق.. فكان يسير على قدميه الهزيلتين مسافات طويلة يغوص بهما في برك الطين وسط الأمطار وجو الشتاء المقبض، ليتجول من منزل لآخر ليطعم الأطفال ويعالج الكبار، في الوقت الذي كان جميع الأهالي يكنّون له الحب والاحترام طوال ٣٣ سنة، مدة خدمته في أديرة دمشق بحب وإخلاص دون تفريق بين أديان أو طوائف.

كان يسير في الطرقات ويتجمع حوله الأطفال، فيضع يده في جيبه ويعطي لهم ما معه من حلوى، ويكسر قطع الخبز البسيطة ليشاركها مع فقراء دمشق.. كان الجميع يلتفون حوله يستمعون لنصائحه ويستزيدون من معرفته.. حتى عرف بينهم بالورع والخلق النبيل.. إلا أن هناك من كان يضغن له الحقد والبغضاء.. تلك الطائفة اليهودية بدمشق التي كانت تنظر إليه دائمًا نظرة غيرة وتحدٍ، ويرون فيه عدوّهم الأول.. يروّجون حوله الإشاعات المغرضة التي تنال من مكانته وشرفه ولا يصدقها أحد بالمدينة، ويضمرون له الكُره في تعاملاتهم معه وعباراتهم الساخرة منه وحتى في نظراتهم

*قصة حقيقية

لـه.. لدرجـة أنهـم كانـوا ينتظـرون مـروره في الطرقـات ليلقـوا بالقـاذورات في طريقـه.. إلا أنـه كان يقابـل تلـك الإهانـات بابتسـامة هادئة ووجـه سمِح، فينحـني بظهـره النحيـل ليزيلهـا مـن الطريـق.. بـل إذا مـا تعـرض أحدهـم لمشـكلة لا يدّخـر جهـدًا ليقـف بجـواره ويمـد لـه يـد العـون.

وقـد صـادف وجـود عيـد البوريـم الخـاص بهـم بعـد ٩ أيـام مـن ذلـك اليـوم.. وهـو العيـد الـذي يصنعـون فيـه فطـيرة ممزوجـة بـدم بـشري كأضحيـة لإلههـم، وتكريمًـا للملكـة إسـتر اليهوديـة بعدمـا أنقـذت يهـود بـلاد فـارس مـن بطـش الوزيـر الفـارسي هامـان، ومحاولتـه ذبحهـم إبّـان القـرن الثالـث قبـل الميـلاد، عندمـا فتنـت ملـك الفـرس الأخمينـي «أرتاكسركسـيس الأول» بسـحر جمالهـا وجعلتـه ينقلـب عـلى وزيـره وينحـاز لبـني جلدتهـا.

وفي ظهـر ذلـك اليـوم قصـد الأب تومـا حـارة اليهـود لتطعيـم ولـد يهـودي مـن الجـدري، فذهـب هنـاك وهـو يسـير بمنتهـى الهـدوء والمحبـة، معـه أدواتـه كي يطعـم الصبي.. وبعـد الانتهـاء مـن عملـه مـرّ ببيـت صديقـه اليهـودي «داوود هـراري»، ذلـك التاجـر اليهـودي المـرابي ذو البـشرة الداكنـة والملامـح المعقـدة والحواجـب السـميكة، والـذي كان دائـم الـتردد عليـه والتـودد إليـه.. فوقـف داوود أمـام بيتـه ونظـر إليـه بعينـين ضيقتـين وطلـب منـه الدخـول بصوتـه الأجـش، فلـبّى طلبـه ودخـل بحسـن نيـة.. فوجـد شـقيقي داوود وعمـه واثنـين مـن الحاخامات، وقامـوا باسـتدراجه لإحـدى الغـرف، وفجـأة انقضّـوا عليـه وقيّـدوه مـن قدميـه ووضعـوا منديـلاً عـلى فمـه، وأخـذوا يمطرونـه بالسـباب والنعـات اللاذعـة.. فلـم يكـن يخطـر ببالـه أنـه سـيكون ضحيـة صديقـه اليهـودي رغـم الـود الـذي أكنّـه لـه.

وعندما هلّ المساء استدعوا حلاقًا يهوديًا يُدعى سليمان، وكان نحيف الجسد له لحية خفيفة تظهر عروقه من تحت جلده، وأمروه بذبح القسيس، فأخرج سليمان من حقيبته موس حلاقة وأخذ يصقله ليكون حادًا ويذبحه بسهولة، لكنه نظر إليه وهو مقيد وقد خارت قواه من كثرة الضرب والتعذيب، فتردد قليلاً واهتزت يده بالموس.. فصرخ داوود في وجهه قائلاً: «إنه أممي ودمه حلال لنا»، وأخذ سكينًا حادًا وانهال عليه بوحشية في كل اتجاه، فقطع أوصاله وشق جذعه ولم تشفع عنده صرخات القسيس وتوسلاته.. حتى أتى أخوه هارون هراري وأتم عملية الذبح، ثم قاموا بتجميع دمه في قارورة كبيرة شفافة وهرع بها إلى الحاخام باشا يعقوب العنتابي في هيكل اليهود، والذي أمرهم بعملية الذبح.. وكان جالسًا داخل حجرة مظلمة على كرسي خشبي كبير ذي وسادة وثيرة، محفور عليه نجمة داوود ضخمة، مرتديًا عمامة سوداء كبيرة مطرزة بزخارف، وعباءة سوداء واسعة مطرزة بخيوط ذهبية نباتية الزخرفة، وحزام حريري أحمر، ولحيته البيضاء الطويلة تتدلى حتى منتصف صدره.. جلس يترقبهما بعينيه الغائرتين بفارغ الصبر لحاجته إلى دم أضحية من أجل إعداد فطيرة عيد البوريم من دم أممي.

ومع مرور الوقت انتاب القلق الخادم إبراهيم عمارة خادم الأب.. فلم يكن يفارقه في أي عمل يقوم به أو أي مشوار يذهب إليه.. إلا أنه في ذلك اليوم الموعود خرج الأب توما على غير العادة بدون إبراهيم.. فشعر الخادم بانقباض في قلبه وتملّكه إحساس بالخوف على سيده، فهمّ للبحث عنه في الطرقات في وسط الليل حتى قادته قدماه الحافيتان إلى حارة اليهود وقاده معه حظه الأسود.. فكان داوود في انتظاره هو وإخوته، فهم على معرفة أنه سيأتي حتمًا للبحث عن الأب توما.. فقيّدوه وحملوه كالذبيحة

وأدخلوه بيت جارهم اليهودي «يحيى ماهر فارحي»، واستلّ هارون سكينه والذي كان أكثر دموية من أخيه رغم جسده الضئيل، وذبح إبراهيم هو الآخر ومزّق جثته إربًا وصفى دمه في قارورة أخرى بلورية الشكل وهم يتلذذون بمنظر تصفية جسده من دمه وهو ما زال فيه الروح.. يصرخ من شدة الألم ويتلوى وهو يرى جسده يتقطع أمام عينيه.

ووسط الظلام الدامس شقت خيوط البرق سماء دمشق بعنف وصوت الرعد زلزل أركانها.. حينها ذهب كل من داوود وهارون بها إلى الحاخام باشا يركبان عربتهما الخشبية يجرها حمار صغير عبر الطرقات الحالكة وأرضيتها الحجرية، في الوقت الذي كان يعد فطيرة العيد مع مجموعة من الحاخامات الصغار، على طاولة طويلة داخل حجرة كبيرة تضيؤها شموع شمعدان «المينوراه» ذي الأذرع السبعة، وهم يرتّلون عبارات من التوراه بصوت عالٍ، ويقرعون على المنضدة بعصي صغيرة، كلما ذكر اسم الملعون «هامان» وكأنهم يضربونه وينكّلون به.. حتى وصل إليه داوود وأخوه بالقارورة فحملها بعينين مملوءتين بالإعجاب والزهو ورفعها بيديه لأعلى وأخذ يصرخ: «الآن نستطيع الاحتفال.. ليكن دم هذا الأممي عهدنا للخلاص.. العهد الذي وعدنا به الرب.».

*****

الخميس ٧ أغسطس ٢٠٠٣ - مطار بن جوريون بتل أبيب.

كانـت الحركـة في المطـار عـلى أشـدّها وازدحـم المطـار بالعديـد مـن الرحـلات القادمـة إلى إسرائيـل مـن أوروبـا والولايـات المتحـدة في موسـم الصيـف للسـياحة والعمـل، حـتى أذاع المذيـع الداخـلي بالمطـار عـن وصـول الرحلـة رقـم ٣٠١ القادمـة مـن أمسـتردام.. ووسـط العديـد مـن ركاب الرحلـة خـرج رجـل طويـل القامـة يظهـر عليـه الوقـار والهيبـة ذو شـعر فـضي ولحيـة خفيفـة تميـل للبيـاض، ووجـه وسـيم يميـل للحمـرة في أواسـط العقـد السـادس مـن عمـره.. كان الرجـل يحمـل حقائبـه ويسـتعد للخـروج مـن المطـار، حـتى وجـد ثلاثـة أشـخاص في انتظـاره يحملـون لافتـة عليهـا اسـمه.. فاقـترب منهـم، فتقـدم أحدهـم قائـلاً:

- «البروفيسير جيمس ماكلين.. أهلاً بك في إسرائيل».

خـرج الدكتـور ماكلـين مـع الرجـال الثلاثـة وركـب معهـم السـيارة الـدودج السـوداء الضخمـة، وجلـس بجـواره أحدهـم يحمـل مجموعـة مـن الأوراق، وأخـذ يحدثـه قائـلاً:

- «أنـا اسـمي تـال.. سـأكون مرافقـك هنـا في تـل أبيـب.. سـوف تكـون بضيافتنـا هنـا يومـين حسـب برنامـج الرحلـة، قبـل أن تذهـب إلى أورشـليم لملاقـاة الدكتـور بـن أهـارون».

فابتسـم الدكتـور ماكلـين وأخـذ ينظـر عـبر نافـدة السـيارة ويراقـب شـوارع تـل أبيـب الواسـعة ومبانيهـا الضخمـة، بينمـا كان ذهنـه شـاردًا وكأنـه ينظـر إلى معالـم المدينـة دون أن يراهـا.. فمـر أمـام عينيـه شريـط حياتـه وهـو يتذكـر «لينـدا» زوجتـه، ذات الوجـه الملائـكي الـبريء والشـعر البـني الفاتـح والعينـين الزرقاويـن واللتـين رافقتـاه في كل لحظـة

مـن لحظـات حياتـه.. أخـذ يتذكـر يـوم احتفالهمـا بعيـد زواجهمـا الخامـس عـشر معًـا وهمـا في قمـة السـعادة، وكأنهمـا في أول حياتهمـا، وسـط أنغـام الموسـيقى خـلال عشـاء رومانـسي بمطعـم مـن مطاعـم ميامـي المطلـة عـلى المحيـط، فقـد اعتـادا في كل سـنة أن يحتفـلا بعيـد زواجهمـا في ذلـك المـكان.. يومهـا أهداهـا قـلادة ذهبيـة بهـا قلـب يضـم أول حرفـين مـن اسميهما.. كان أسـعد يـوم في حياتهمـا.. قبـل أن يغـادرا المـكان ويسـتقلا السـيارة، حـتى اصطدمـا بشـاحنة كبـيرة وسـقطت زوجتـه ومـلأ دمهـا المـكان ورآهـا ماكلـين أمـام عينيـه وهـي تحتـضر، ولـم يسـتطع أن يفعـل لهـا شـيئًا.. أخـذ يتذكـر كل شيء مـضى وكأنـه ليلـة أمـس.. بـدأت يـداه ترتعـش وتتحجـر مقلتـاه وهـي تحمـل بعـض الدمعـات.. ولـم يفـق سـوى عـلى كلمـات تـال وهـو يقـول لـه: «لقـد وصلنـا إلى الفنـدق سـيدي».

صعـد الدكتـور ماكلـين إلى جناحـه بفنـدق «رينسـانس تـل أبيـب» ذي الخمـس النجـوم، والمطـلّ عـلى البحـر المتوسـط بشـارع «هايركـون».. وقـال لـه تـال:

- «سـوف أتـركك الآن، ولكننـا سـوف نتقابـل في المسـاء، وإذا أردت أي شيء سـتجد أرقامـي في هـذا الـكارت».

*****

أخـذ يتجـول الدكتـور ماكلـين في جناحـه الفخـم والمتكـون مـن حجـرة اسـتقبال بهـا منضـدة وتليفزيـون، وأخـرى للنـوم بهـا «الميـني بـار»، والمجهـزة بأحـدث الأثاثـات والتكييفـات، بالإضافـة إلى صـورة قديمـة لتل أبيـب معلقـة عـلى حائـط فـوق السريـر.. فلـم يـرَ مـن كل هـذا سـوى السريـر الـذي كان في حاجـة ضروريـة إليـه بعـد تلـك الرحلـة الطويلـة والشـاقة، الـتي بـدأت مـن شيكاجو إلى نيويـورك ثـم أمسـتردام ومنهـا إلى تـل أبيـب.. فارتمـى بجسـده عليـه دون أن يغـيّر ملابسـه، حـتى دخـل في سبات عميـق لـم يوقظـه منـه سـوى صـوت نقـر عـلى البـاب.. فانتفـض الدكتـور ماكلـين مـن مكانـه وفتـح البـاب.. فوجـد أحـد عامـلي الفنـدق وهـو يقـدّم لـه طبقًـا فاخـرًا مـن الفاكهـة الطازجـة وزجاجـة شـامبانيا، وهـو يقـول:

- «آسـف سـيدي عـلى الإزعـاج.. هـذه هديـة بسـيطة مـن إدارة الفنـدق للشـخصيات الهامـة مثلكـم».

فأخذها منه مبتسمًا وقال:

- «لقـد كنـت فعـلاً أحتـاج إلى وجبـة خفيفـة مـن الفاكهـة.. لقـد جئـت في موعـدك»، وأخـرج مـن جيبـه عـشرة دولارات وأعطاهـا للعامـل كبقشـيش، فنظـر إليهـا العامـل بدهشـة وانتشـاء قائـلاً:

- أشـكرك بشـدة سـيدي. وأخذهـا بسرعـة ودفنهـا في جيبـه ثـم أغلـق الباب.

أخـرج الدكتـور ماكلـين مـن حقيبتـه مجموعـة مـن كتبـه ومؤلفاتـه العديـدة عـن التاريـخ السـياسي وتاريـخ إسرائيـل بشـكل خـاص، والـتي ذاعـت شـهرته في هـذا المجـال عـلى مسـتوى العالـم، وأصبـح لـه العديـد مـن المحـاضرات في جامعـة شـيكاجو ومعظـم جامعـات العالـم.. ثـم

أخـرج صـورة لـه مرتديًـا وسـام «جوقـة الـشرف» للعلـوم، أرفـع وسـام فرنـسي، وهـو يصافـح الرئيـس شـيراك في إحـدى زياراتـه لباريـس.. فلـم يكـن هنـاك أقـدر أو أشـهر مـن الدكتـور ماكلـين في مجالـه.. وإذا مـا كان يحـاضر تجـد مئات الطلبـة يملـؤون المـدرج ويتزاحمـون فيـه ليسـتمعوا لـه.. فيقـف وسـط صمـت قاتـل يـشرح لهـم تاريـخ بـني إسرائيـل وعلاقتهـم بـأرض الميعـاد، بينمـا تحملـق الأعـين فيـه وتتبـع آذانهـم كلماتـه، وإذا مـا قـدّم محـاضرة عامـة كالـتي قدّمهـا في مبـنى مكتبـة «داج همرشـولد» التابعـة للأمـم المتحـدة أو الكليـة الملكيـة للفنـون بإنجلـترا، فيكـون الحجـز مقدمًـا، وتكـون القاعـة ممتلئـة عـن بكـرة أبيهـا، ويزيـد معجبـوه ومريـدوه يومًـا بعـد يـوم.

خـرج إلى الشرفـة وأخـذ ينظـر إلى شـاطئ البحـر المتوسـط المرمـري المزدحـم بالمُصيّفـين ولونـه الأزرق الداكـن بأمواجـه المتلاطمـة.. ثـم لمـح رجـلاً واقفًـا أسـفل شرفتـه ذا ملامـح مريبـة مرتديًـا جاكيـت أسـود طويـلاً رغـم كـون الجـو حـارًا.. يحملـق في شرفـة الفنـدق.. فدقـق فيـه الدكتـور ماكلـين النظـر.. فلاحـظ الرجـل وجـوده حـتى انـصرف خفيـة.

لـم يمـض الوقـت حـتى نـزل الدكتـور ماكلـين مـن جناحـه متجهًـا إلى بهـو الفنـدق، فوجـد تـال جالسًـا يقـرأ في جريـدة «معاريـف» المسـائية، وكان ذا جسـد نحيـل ووجـه مـليء بالبثـور يحـاول تغطيتهـا بلحيـة خفيفـة وشـعر طويـل يلفـه مـن الخلـف بشـكل ذيـل حصـان.. فاقـترب منـه وحيّـاه بالعبريـة قائـلاً:

- مساء الخير.. فانتبه تال وهمّ واقفًا ورد:

- مساء الخير.

فقال الدكتور ماكلين مبتسمًا:

- يبدو أنني قد أرهقتك اليوم.. إنك لم تغادر الفندق.

فرد تال قائلاً:

- نحـن جميعًـا في خدمتـك دكتـور ماكلـين.. ولكـن يبـدو أنـك تجيـد العبريـة بطلاقـة، فقـد رأيتـك تتحـدث مـع موظـف الاسـتقبال بالعبريـة.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

- لقـد درسـت العبريـة منـذ مـدة طويلـة.. كمـا أنهـا ليسـت أول مـرة أزور فيهـا إسرائيـل.

- لكنـني أعتقـد أنهـا قـد تغـيّرت عـن آخـر مـرة كنـت بهـا.. مـا رأيـك في نزهـة بالسـيارة لـترى فيهـا جمـال تـل أبيـب؟

فرد الدكتور ماكلين:

- بكل ترحاب.

فخـرج كل مـن الدكتـور ماكلـين وتـال وقامـا بجولـة في الشـوارع المزدحمـة.. ينظـران إلى النـاس والأسـواق التجاريـة والمبـاني العاليـة وأنوارهـا المبهـرة ليـلاً، والملاهـي والمراقـص ذات الأصـوات الصاخبـة الـتي تعـج بالشـباب والفتيـات والعديـد منهـم يخـرج مترنّحًـا.. ففـي هـذا الوقـت مـن العـام تكتـظ تـل أبيـب بالسـائحين وتكـون مقصـدًا سـياحيًا عالميًـا، كمـا أنهـا فـترة إجـازات، ممـا يجعـل سـكان تـل أبيـب ينطلقـون في الشـوارع.. ذلـك الخليـط العجيـب غـير المتجانـس مـن البـشر.. فـترى مختلـف الألـوان مـا بـين أبيـض وأسـود وحنفـصي وأشـقر.. شـباب وبنـات وعائـلات يرتـدون الشـورتات والـتي شـيرتات إمـا مكتـوب عليهـا عبـارات (I LOVE TEL AVIV) أو مرسـوم عليهـا نجمـة داوود أو مناظـر مـن إسرائيـل.. حـتى رجـال الديـن يتجولـون وسـط النـاس بملابسـهم السـوداء وقبعاتهـم الكبـيرة ينظـرون إليهـم باشـمئزاز.

سـار كل منهمـا خطـوات بعدمـا نـزلا مـن السـيارة، حـتى وصـلا إلى مجمـع مبـانٍ ضخـم ذات ارتفـاع شـاهق، عبـارة عـن ثلاثـة أبـراج طوليـة بتصميمـات مختلفـة، أحدهـا دائـري ويضـم ٤٩ طابقًـا، والثـاني مثلـث ويضـم ٤٦ طابقًـا، والثالـث مربـع ويضـم ٤٢ طابقًـا مخصصـة كمكاتـب

إدارية وفنادق كبرى وأدوار سكنية، وفي منتصفها مركز تجاري ضخم وسينما.. وقد أحيطت بأنوار برّاقة تشكل بوسط الأبراج الثلاثة شكل نجمة داوود مرسومة بالليزر، بينما شكلت إضاءات المباني شكل علم إسرائيل.. فاقترب منه الدكتور ماكلين بدهشة فلمح تال تلك الدهشة في عينيه ورد بفخر:

- هذا المبنى هو «مول عزرائيلي».. لمالكه ديفيد عزرائيلي، من أكبر المعماريين ورجال الأعمال هنا بإسرائيل.. والليلة يحتفل بمرور ٤ سنوات على إنشائه.

فأمعن الدكتور ماكلين النظر في أضوائه الملفتة، ثم أكمل تال قائلاً:

- هذا المكان من قبل كان مقلبًا للقمامة.. ولكن بفضل ديفيد عزرائيلي تحوّل إلى أكبر مول تجاري في الشرق الأوسط بتكلفة ٣٥٠ مليون دولار أمريكي.

- رغم أنني آتي إلى تل أبيب كثيرًا لكنني أراها تتجدد يومًا بعد يوم.

فابتسم تال قائلاً:

- ألم أقل لك؟! وماذا لو ذهبت إلى أورشليم! إنك سوف ترى جمال إسرائيل الحقيقي.

وما أن دخلا إلى المول.. حتى وجدا طوفان من البشر وهم يتسوقون داخل هذا المركز الرهيب، والذي يتكون من طابقين يربطهما مصاعد زجاجية ملونة وسلالم كهربائية، ويضم العشرات من المطاعم والمقاهي والمحلات ذات التوكيلات العالمية.. وفي المنتصف وجدا «بانر» بطول المول على شكل علم إسرائيل يتدلى من السقف إلى الأرض، وفي وسط المول وقفت فرقة استعراضية

تقـدم عروضًـا عـلى موسـيقى يهوديـة شـعبية مثـل موسـيقى «مزراحـي» الـتي تمـزج الـشرقي بموسـيقى البحـر المتوسـط، وموسـيقى «كليزمـير» ذات الطابـع الأوروبي الـشرقي، بالإضافـة إلى بعـض الموسـيقات الغربيـة المعـاصرة.. بينمـا التـف حولهـم العديـد مـن الشـباب ليشـاهدوهم ويرقصـوا معهـم.

وبينمـا هـرب ذهـن الدكتـور ماكلـين منـه وهـو يشـاهد هـذا الكرنفـال الكبـير اقـترب منـه تـال كي يسـمعه وسـط الأصـوات الصاخبـة، وقـال:

- اسـمح لي أن أدعـوك عـلى عشـاء شـعبي بسـيط.. بعـض مـن الفلافـل اليهوديـة.. إنهـا الأكلـة الشـعبية الأولى هنـا في إسرائيل.

فأومـأ الدكتـور ماكلـين برأسـه موافقًـا ودخـلا إلى مطعـم «فريشـمان للفلافـل والصبيـح» للوجبـات السريعـة، مـليء بالشـباب والعائـلات ويقـدم وجبـات شـعبية جاهـزة.. فأحـضر تـال مجموعـة سندوتشـات فلافـل وصبيـح وطبقًـا مـن المخلـلات، وابتسـم ابتسـامة صفـراء وقـال بنـبرة يهـودي بخيـل:

- هـذه أكلـة بسـيطة لأنـني أعـرف أنـك لا تحـب الأكل الدسـم في المسـاء.

فرد الدكتور ماكلين:

- أنـا أعـرف الفلافـل اليهوديـة جيـدًا.. ولكنـني لـم آكل الصبيـح مـن قبـل.

- معقـول لـم تـأكل الصبيـح مـن قبـل؟! إنهـا الأكلـة الأشـهر في إسرائيـل.. إنـه سـاندوتش بالخـبز الشـامي محـشي باذنجـان مقـلي وبيـض وحمـص وبطاطـس وسـلطة خـضراء إسرائيليـة تقليديـة وعليـه صـوص «العمبـا» الحـار الشـهير.. إنهـا أكلـة تقليديـة دخلـت إسرائيـل مـع خمسـينيات القـرن العشريـن، وعـادة مـا كان يأكلهـا يهـود العـراق في

الصباح، لذلك أطلق عليها هذه الكلمة ذات الأصل العربي.. ولكننا الآن نأكلها في أي وقت.

وأثناء تناولهما الطعام ارتسمت على وجه الدكتور ماكلين ملامح الإعجاب وهو يأكل، فعلق قائلاً:

- أرى الشوارع اليوم مزدحمة بشدة، ليس في المول وحده.. يبدو أن هناك شيئًا ما.

فرد تال:

- فعلاً.. غدًا ستبدأ رأس السنة العبرية.. والناس معتادون على النزول في الشوارع قبلها وشراء كل ما هو جديد ابتهاجًا بهذه المناسبة.. سيظل هؤلاء الناس في الشوارع يرقصون ويحتفلون حتى طلوع الشمس.

فتساءل الدكتور ماكلين متعجبًا:

- ولكن.. ألا يشعرون بالخوف من هجمات إرهابية أو أعمال عنف.. خاصة في مثل ذلك اليوم؟

فرد تال بقوة:

- سيدي.. أنت هنا في إسرائيل.. بلد الأمن والحرية.. الجميع يمكن أن يصنع ما يريد دون أي رقابة أو خوف.. كما أننا قادرون على حماية وطننا من هؤلاء العرب الإرهابيين.. إنهم يريدون إفساد حياتنا علينا دون أي سبب.. كما ترى كم نحن شعب مسالم نحب الحياة ولا نطيق العنف! لكن العرب لا يريدون أن يروننا سعداء في وطننا.. المهم أتمنى أن تكون تلك الدعوة قد لبت ذوقك.. وإن كانت ليست على مستوى ذوقك الكلاسيكي.

فرد الدكتور ماكلين مبتسمًا:

- عزيزي.. إنني لا أهتم بالمكان بقدر ما أهتم بشعوري به.. لقد زرت العديد من الأماكن الراقية ودخلت عشرات القصور.. إلا أن

مصـدر السـعادة عنـدي لا يـأتي مـن فخامـة المـكان، ولكـن مـن شـعوري بالراحـة والاطمئنـان.. وأنـا أشـعر أن راحـتي سـتكون في مـكان مـا هنـا.

وبعـد أن أنهـى الدكتـور ماكلـين طعامـه قـام مـن مكانـه في عجلـة قائـلاً:

- أشـكرك عزيـزي تـال عـلى ذلـك العشـاء الجميـل.. ولكـن اسـمح لي أن أعـود للفنـدق.. فأنـا معتـاد عـلى النـوم مبكـرًا ولا أسـتطيع السـهر.

فضحـك تـال وقـام هـو الآخـر، ومـا أن خرجـا مـن المطعـم حـتى لاحـظ الدكتـور ماكلـين وجـود أشـخاص بهيئـات غـير عاديـة، يرتـدون ملابـس شـبيهة ويضعـون سـماعات في آذانهـم ويحملقـون فيـه مـن بعيـد رغـم الزحـام الشـديد، أشـبه بمـن كان ينظـر إليـه في الصبـاح.. فلـم يعرهـم انتباهًـا وتظاهـر بعـدم وجودهـم.. وعـادا إلى الفنـدق.. فلـم يصعـد الدكتـور ماكلـين مبـاشرة إلى جناحـه، ولكنـه أخـذ يتمـشى عـلى سـاحل البحـر بعـد أن صبغـه الليـل بلونـه الأسـود، وأخـذت أمواجـه المتلاطمـة تتسـابق باتجـاه الشـاطئ ونسـيمه العليـل الـذي أخـذ يستنشـقه بقـوة فاتحًـا ذراعيـه وهـو يمـلأ بـه صـدره.

ومـع صبـاح اليـوم التـالي.. اسـتيقظ الدكتـور ماكلـين مبكـرًا وصعـد إلى الشرفـة، وأخـذ يتطلـع لمنظـر الشـاطئ الهـادئ والمـارة بـه ذوي العـدد غـير القليـل رغـم الوقـت المبكـر.. فاسـتعد للـنزول لممارسـة رياضـة المـشي عـلى شـاطئ البحـر.. فوجـد تـال جالسًـا بالبهـو يـشرب القهـوة.. فذهـب إليـه الدكتـور ماكلـين مندهشًـا وقـال:

- ما الذي أتى بك في ذلك الوقت المبكر.

فابتسم تال ابتسامة صفراء قائلاً:

- نحـن نعـرف أن يومـك يبـدأ مبكـرًا.. ففكـرت أن نسـتغله في برنامـج مكثـف اليـوم.

فرد قائلاً:

- يبدو أنك شديد الذكاء.. تال.. إنك تلميذ نجيب لصديقي بن أهارون.

فرد تال فخورًا وقد لمعت عيناه:

- كلنا تلاميذ الدكتور بن أهارون.. إنه علاّمة، وقد أخرج من تحت يديه أجيالاً متفوقة ليس في التاريخ فحسب.. بل في كل شيء.

وركب كل من الدكتور ماكلين وتال السيارة.. وانطلقت عبر شارع «هاتآروخا» الذي يعبر نهر العوجا أو نهر «ناحال هياركون»، ومن ثم إلى شارع «شاي عجنون» الرئيسي بوسط تل أبيب، حتى وصلوا إلى مقر متحف «بلماخ».. فنزل كل من تال والدكتور ماكلين ودخلا المتحف ذا البناية الضخمة، المُصمَّم من الخارج بأحجار صخرية صلبة تلقي على الزائر قدرًا من الرهبة. وعلى جانب المبنى شعار الحركة منقوش على أرضية دائرية فضية، ويرفرف أعلى المتحف علم وزارة الدفاع التابع لها المتحف وعلم إسرائيل.. فدخل الدكتور ماكلين من مدخل صغير إلى قاعة تضم مجسمات وصور لحركة البلماخ اليهودية وفرقتها العسكرية وبعض من أسلحتهم وأدواتهم، فوقف تال يشرح:

- هذا المتحف خصص لتمجيد تاريخ حركة بلماخ.. تلك الحركة التي ناضلت خلال أعوام من ١٩٤١ إلى ١٩٤٨ من أجل الاستقلال ومحاربة الإرهاب العربي وطرد هؤلاء الأوغاد.

فنظر الدكتور ماكلين إلى الصور نظرة عميقة ثم قال:

- من الواضح أنهم قد عانوا ليبنوا هذا المجد.. لقد درست الكثير عن البلماخ ولكنني لم أكن أتصور أنهم مكافحون لهذه الدرجة.

- البلماخ ليست مجرد جناح عسكري لحركة الهاجاناه*.. ولكنها شكلت العامود الفقري لجيش الدفاع الإسرائيلي الحالي، كما ظهر العديد من قادتها في مراكز قيادية في دولة إسرائيل حتى الآن، أمثال يجال ألون وموشي دايان وإسحق رابين.

فسار الدكتور ماكلين وهو يحملق في صور الألوية العسكرية المختلفة للحركة، من قوات بحرية وجوية، وبجوار كل صورة قصة للمعارك التي خاضوها، بالإضافة إلى المؤثرات الصوتية والضوئية التي تسحر الزائرين وتجعلهم يغوصوا داخل تلك المعارك لتكسب تعاطفهم.. وملامح الانبهار تكسو وجهه دون أن ينطق بكلمة.. ثم أكمل تال قائلاً:

- شكلت البلماخ هوية المقاتل الإسرائيلي في جميع نواحي حياته.. وكان لها دور هام في حماية المستوطنات وتأمينها وترحيل الآلاف من يهود الشتات إلى الوطن الأم.. ولم تؤثر الحركة في الجيش فقط، بل في الحياة السياسية والثقافية.. فكانت ملهمة للعديد من قصص الأدب العبري ولها أغانيها الحماسية التي تُغنى حتى اليوم.

فرد الدكتور ماكلين:

- لن أنسى كتاب الكاتب الإسرائيلي الشهير «موشى شمير» (ذهب مع الحقول) والذي يروي فيه يوميات رجل البلماخ وتدريباته، ووصفه لروح الصداقة بين المقاتلين والطلائع.. كما أنني تعرفت على الشاعر الكبير «يهودا عميحاي» خلال فوزه بجائزة الإكليل الذهبي في مهرجان ستروجا الشعري عام ١٩٩٥.. وهو من أكبر شعراء البلماخ.

- روح البلماخ هي الروح التي أنشأت إسرائيل.. حياة التدريب والكيبوتس، الحرب والنار، والتضحية بالنفس: عبارات لن تسمعها

---

* الهاجاناه: القوات المسلحة غير الرسمية للمستوطنات اليهودية إبان الانتداب البريطاني على فلسطين.

إلا من رجال البلماخ

ثـم اقـترب الدكتـور ماكلـين مـن صـور لمجموعـة نسـاء وهـن تحملـن السـلاح وتمارسـن التدريبـات العسـكرية وأعمـال الإسـعافات الأوليـة.. فأنـزل نظارتـه نحـو أنفـه محدقًـا فيهـن وقـال:

- شيء مـشرّف أن تلعـب المـرأة دورًا هامًـا في البلمـاخ.. أن تسـاند الرجل حتى في ميادين القتال.

- تاريـخ النسـاء في البلمـاخ لـن ينسـاه أحـد في إسرائيـل.. لـن ننـسى «برخـا بولـد» الـتي وقفـت وحدهـا أمـام مدرعـة إنجليزيـة، حاولـت منـع سـفينة المهاجريـن اليهـود مـن الوصـول إلى تـل أبيـب إبـان فـترة الانتـداب.. لقـت برخـا مصرعهـا حيـث لـم تتعـد التاسـعة عـشر مـن عمرهـا وكانـت قائـدة المجموعـة إثـر إطـلاق النـيران عليهـا، بعـد أن أعلـن أصدقاؤهـا رغبتهـم في الاستسـلام.. وغيرهـا وغيرهـا مـن قصـص النسـاء المناضـلات.

فاحمـرّ وجـه الدكتـور ماكلـين وتجمعـت قطـرات الدمـوع داخـل عينـه، الـتي تراقـب الصـور بتأثـر شـديد وكأنـه أصبـح جـزءًا منهـا.. فاقـترب منـه تـال وقـال بصـوت ضعيـف:

- لقـد قاسـينًا كثـيرًا لنبـني هـذا الوطـن.. كـم دفعنـا مـن دمائنـا وشـبابنا كي نعيـش لـنرى حلمنـا يتحقـق! كـم ضحّينـا مـن أجـل أن يبقـى ذلـك الحلـم! كل بيـت في إسرائيـل لا يخلـو مـن قصـة تشـهد عـلى كفـاح ضـد هـؤلاء العـرب الإرهابيـين، الذيـن يريـدون تجريدنـا مـن حلمنـا وحقنـا في إقامـة وطـن لنـا عـلى أرضنـا.

ثم سكت تال قليلاً وأكمل بصوت مخنوق:

- ربمـا نحـن قـد أتينـا لـنرى إسرائيـل قويـة الآن.. ولكـن أجدادنـا دفعـوا ثمنًـا غاليًـا كي يؤسسـوا هـذا الوطـن لنعيـش فيمـا نحـن فيـه الآن.

ثـم سـارا عـبر ممـر ضيـق إلى حجـرة مظلمـة ذات إضـاءة خافتـة،

معلق على جدرانها صور لشهداء الحركة مصحوبة بموسيقى حزينة.. وقال تال:

- لقد فقدت الحركة أكثر من ١١٦٩ شخصًا ما بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٨ في سبيل إسرائيل.. أرأيت كيف ضحى هؤلاء من أجل أن نعيش؟! كيف ضحوا من أجل أن تعيش إسرائيل؟ كيف خضّبت دماؤهم العظيمة أرضنا التي عدنا لنستردها من أيدي هؤلاء الوحوش.. إنهم عظماء.. بلا شك عظماء.

فاغرورقت عينا الدكتور ماكلين بالدموع وسقطت على خده وهو يحملق في صورة لجندي يهودي صريع وهو يحمل علم إسرائيل.. فرد قائلاً:

- هذا الوطن قد عانى كثيرًا.. وها قد جاء الوقت كي يشعر الآخرون بتلك المعاناة.

- هؤلاء الأبطال قدموا أرواحهم فداءً لإسرائيل.. وإسرائيل ستتذكرهم إلى الأبد.

ثم صعدا إلى الطابق العلوي حيث توجد حجرة مخصصة لوثائق ومخطوطات البلماخ.. تلك الحجرة لا تفتح إلا لكبار الشخصيات.. فدخلا إلى الحجرة وجلس الدكتور ماكلين على طاولة بينما أخرج له الموظف المسؤول مجموعة من الوثائق التي تكشف حروب وبطولات البلماخ ضد العرب والمكاتبات السرية لقادتها.. فوجد خطاب استغاثة من مجموعة قتالية تطلب العون من مركز القيادة بعدما أمطرتهم القوات البريطانية بالنيران حتى لم يتبق منهم سوى رجل وامرأة.. بل إن المرأة ماتت من شدة الجوع والعطش ولم يجد الرجل شيئًا يساعدها به.. حتى استوقفته جملة في الخطاب وهو يقول بالعبرية:

- «لم يعد أمامي حيلة أدافع بها عن زملائي.. حتى إنني تركت

كل مـا أملـك مـن المـاء والمـؤن لحنّـا (المـرأة) ولكـن القـدر كان أسرع مـني.. فإمـا أن تسـاعدوني أو سـتكون يـد الغـدر أسرع منكـم».

فلمـح الموظـف ملامـح الانفعـال قـد ارتسـمت عـلى وجـه الدكتـور ماكلـين فـرد قائـلاً:

- للأسـف.. لـم يـرد أحـد عـلى هـذا الخطـاب، ولقيـت المجموعـة كلهـا حتفهـا عـلى يـد القـوات الإنجليزيـة.. فقـد وجدنـا هـذا الخطـاب وسـط أطـلال الجموعـة، بعـد أن داهمتهـا القـوات الإنجليزيـة.. هـذا مثـال بسـيط لكفـاح أفـراد حركـة البلمـاخ.

ثـم أخـرج لـه الموظـف مجموعـة مـن الصـور النـادرة لقتـلى وجرحـى البلمـاخ مـن رجـال ونسـاء أثنـاء دفاعهـم عـن المسـتوطنات.. فوجـد صـورة لصاحـب الخطـاب مـع مجموعتـه وهـم ملقـون عـلى الأرض بعـد مقاومتهـم القـوات الإنجليزيـة.. فارتعشـت يـدا الدكتـور ماكلـين ورد بصـوت حانـق:

- أنـا لـم أعـد أحتمـل أكـثر مـن هـذا.. لقـد كافحتـم كثـيرًا مـن أجـل بنـاء هـذا الوطـن.

فرد تال:

- هذا أقل شيء يمكن أن نقدمه لأبطال البلماخ.

بعـد أن أنهيـا جولتهمـا بالمتحـف.. خـرج كل مـن تـال والدكتـور ماكلـين بعـد أن ظهـرت عليـه ملامـح التأثـر واحمـرّ وجهـه مـن شـدة الانفعـال وأخـذ يمسـح دموعـه.. في الوقـت الـذي كان تـال ينظـر إليـه بعينـين ضيقتـين يتفحـص بهمـا جميـع تعبـيرات وجهـه وأثـر الانفعـال عليـه، وبعـد أن ركبـا السـيارة اسـتدار لـه تـال وقـال:

- أقـترح أن نتنـاول وجبـة الغـداء عـلى البحـر.. يوجـد العديـد مـن مطاعـم السـمك الرائعـة هنـاك.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

- أصبحت تعرف ذوقي في الطعام أيضًا تال.

فانطلقا بالسيارة إلى مطعم «مانتراي» بساحل «ألما»، وهو من أغلى وأفخم مطاعم «السي فود» في تل أبيب، كما أن أغلب رواده من الأجانب والسائحين.. فجلسا على منضدة على البحر مباشرة بينما كانت طيور النورس تحلّق حول المناضد كي تلتقط أيًا مما يمكن أن يتركه رواد المطعم.. فأحضر النادل مجموعة مختلفة من الأسماك والجمبري والاستاكوزا.. بينما لم يأكل منها تال غير الأسماك.. فنظر إليه الدكتور ماكلين بتعجب وقال:

- إنني لن آكل كل هذه الكمية من الجمبري والاستاكوزا وحدي.

فرد تال ضاحكًا:

- أنت تعرف أنه محرم علينا أن نأكل أي فقاريات مثل الجمبري وغيرها.. ولكن هذا المطعم في تل أبيب وهو مخصص للسائحين.. لذلك يمكن أن تجد فيه كل ما تشاء.. أما أورشليم فالوضع أكثر تشددًا من هنا.

فغمغم الدكتور ماكلين قليلاً بينما أكمل تال:

- لا تقلق؛ أنت شخص فوق العادة، والدكتور بن أهارون يوفر لك كل احتياجاتك في أورشليم.

فرد الدكتور ماكلين وهو يحتسي رشفة من النبيذ الأبيض:

- أتعرف تال! لم أر الدكتور بن أهارون منذ عشرة أعوام رغم أنه صديقي العزيز.. التقينا كثيرًا في المؤتمرات الدولية ودعوته على العشاء عندما زارني في شيكاجو.. لم أر شخصًا في علمه وشخصيته الفذّة.. ولا تتخيل سعادتي عندما دعاني بن أهارون كي أعمل معه في الجامعة العبرية.

- ونحن يملؤنا الشرف بأن تعمل معنا دكتور ماكلين.. منذ أن عرفنا

أنك ستأتي للعمل في الجامعة ونحن على أتم الاستعداد لاستقبالك بيننا.. أنت قيمة كبيرة في عالم التاريخ السياسي.

فأومأ برأسه في تواضع وأنهى غذائه.. بينما رد تال:

- أعتقد أنه وقت الشاي الإسرائيلي المنعش بالنعناع.

- فعلاً نحن نحتاجه بعد تلك الوجبة كي يهضم السمك.

أخذ الدكتور ماكلين رشفة من الشاي، ورائحة النعناع تداعب خياله مصحوبة بنسيم البحر جعلته ينطلق بوجدانه، وعيناه معلقة بالسماء الزرقاء المفتوحة، تغطيها أجنحة النورس البيضاء.. حينها تذكر طيور النورس على ساحل ميامي.. المكان المفضل للبندا.. حين كان يأخذها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في «هيلتون» ميامي ويجلسان في شرفة الغرفة ليشاهدا منظر الغروب تودعه طيور النورس.

كان هذا أفضل وداع للدكتور ماكلين لتل أبيب قبل أن ينقل أغراضه من الفندق للاتجاه إلى القدس.. بينما رفع تال جهاز المحمول الخاص به وأخذ يهمس بالعبرية قائلاً «استعدوا.. إنه قادم إليكم».

*****

أورشليم

كان الطقس صحوًا على غير عادة شهر أغسطس وسطعت الشمس دافئة مشجعة للقيام بالرحلة.. كانت المسافة بين تل أبيب والقدس لا تزيد عن الساعتين والنصف.. أخذ الدكتور ماكلين يراجع أوراقه ويقلب بين ملفاته خلال اللاب توب الخاص به داخل السيارة وسط طريق مرصوف محفوف بالأشجار الكثيفة المتدرجة على التلال الصلبة.. في حين أخذ تال يصف له ما سيراه من جمال القدس وعراقتها وقدسيتها.. حتى اقتربت السيارة من مدخل القدس.. فارتعش قلب الدكتور ماكلين وعيناه تتبع أسوار المدينة القديمة العالية ذات الجدران العتيقة القوية، ودخلوا عبر طرق قرية «عين كارم» المتعرجة ذات أشجار الزيتون الكثيفة على جانبيها ليخترقوا منازل القدس القديمة المتناثرة على التلال.. ونزلوا منها إلى الطريق الرئيسي.. فمرّوا على مبنى الكنيست الإسرائيلي بوسط القدس الغربية ومنه إلى متحف القدس الوطني.. ثم اقتربوا من المجمع الرئيسي للجامعة العبرية شمالي شرق القدس بجبل المشارف، أو جبل «سكوبس» كما يطلق عليه الإسرائيليون.. فكل اسم مكان فلسطيني له المرادف العبري والمنتشر رسميًا حتى يتلاشى الاسم الفلسطيني.. كان الدكتور ماكلين طوال الرحلة يحملق بعينيه في كل ما حوله مسلوب الفكر، دون أن ينطق كلمة واحدة، وكأنه واقع تحت سحر مدينة بيت المقدس، حتى تباطأت السيارة بالقرب من عمارة سكنية مجاورة للمجمع الجامعي.. فنزل كل من تال ومساعديه وأنزلوا حقائب الدكتور ماكلين وحملوها إلى الداخل،

ووقـف تـال قائـلاً:

- هـذا هـو المقـر الـذي اختـاره لـك الدكتـور بـن أهـارون.. إنـه هنـا في حـي هـادئ وقريـب جـدًا للجامعـة.. أتمـنى أن يـروق لـك.

فـنزل الدكتـور ماكلـين وألقـى بنظـرة طويلـة داخـل الشـقة الواقعـة بالـدور الأرضي ببنايـة لا يزيـد ارتفاعهـا عـن ثـلاث طوابـق.. فوجدهـا شـقة غايـة في الفخامـة والروعـة ذات طابـع كلاسـيكي، وأخـذ يتفقـد الأثاث الفاخـر واللوحـات الفنيـة المعلقـة عـلى الجـدران والأنتيـكات الـتي تمـلأ جنباتهـا، بالإضافـة إلى البـار الصغـير بجـوار المطبـخ المفتـوح.. حـتى وصـل إلى الشرفـة الـتي تطـل عـلى الطريـق العمومـي المزدحـم.. وأخـذ ينظـر إلى المـارة في الطريـق ثـم اسـتدار قائـلاً:

- أنـا لا أعـرف كيـف أردّ جميـل بـن أهـارون.. حـتى ذوقـه في اختيـار الشـقة وديكوراتهـا مذهـل.

- كل شيء مجهز له منذ مدة طويلة.. من أجل استقبالك.

فصمت الدكتور ماكلين قليلاً ثم قال:

- لقـد زرت أورشـليم مـرارًا.. لكـن كل مـرة أزورهـا وكأني أراهـا لأول مـرة.. هنـاك شيء مـا في هـذه المدينـة يجعلـني منجذبًـا إليهـا وكأن بهـا سـحرًا ينادينـي إليهـا.. جدرانهـا العتيقـة الـتي يطـل منهـا التاريـخ ورائحـة أروقتهـا وحواريهـا المليئـة بالغمـوض والجمـال.. كثـيرًا مـا وقفـت أمـام حائـط المبـكى أنظـر للتاريـخ وهـو يطـل عـلى أحجـاره القديمـة وأنـا لا أصـدق نفسي...أورشـليم مـن قلائـل المـدن في العالـم الـتي تضـم عـلى أرضهـا الهيـكل والكنيسـة والمسـجد، وكأنهـا تحتضـن الإيمـان بـين أذرعها.

فرد تال بعينين لامعتين:

- لذلك نحن لن نفرط فيها أبدًا.. وستظل عاصمتنا الأبدية.

فرد الدكتور ماكلين:

- عنـدك حـق.. المهـم أن تحافظـوا عـلى تلـك المدينـة؛ إنهـا بحـق

مدينـة السـلام.

فابتسم تال ورد:

- ونحـن قـادرون عـلى ذلـك دكتـور ماكلـين.. الآن سـنتركك كي ترتـاح.. ولا تنـس غـدًا موعدنـا مـع الدكتـور بـن أهـارون.. سـنمر عليـك بالسـيارة في التاسـعة صباحًـا.

ومـا أن رحـل تـال ورجالـه وبـدأ الدكتـور ماكلـين يخـرج أغراضـه مـن حقائبـه.. حـتى أخـرج صـورة زوجتـه.. ووضعهـا بالقـرب مـن سريـره وأشـعل بجوارهـا شـمعة ونظـر إليهـا نظـرة طويلـة وعينـاه تلمعـان وتنهّد تنهيـدة طويلـة.. ثـم أخـذ يحدثهـا قائـلاً:

- كـم تمنّيـت أن تكونـين معـي في تلـك اللحظـة وفي هـذا المـكان.. أتتذكريـن عندمـا قررنـا السـفر حـول العالـم بعـد أن أتقاعـد، ثـم نسـتقر هنـا بأورشـليم بلـد التاريـخ والسـلام.. نقـضي بقيـة عمرنـا بهـا معًـا.. وها قـد حققـت لـك أمنيتـك.. ولكـن هنـا وحـدي أبـدأ حيـاة جديـدة أعيـد فيهـا نفـسي مـن أجلـك.. أتمنـى أن تحـوم روحـك الطاهـرة حـولي.

عندمـا انتصـف الليـل، جلـس الدكتـور ماكلـين عـلى كـرسي طويـل أمـام بـار المطبـخ وفتـح زجاجـة كونيـاك مـن نـوع Hennessy Cognac Paradis الفرنسـية الفاخـرة.. فقـد كان تعلـق الدكتـور ماكلـين بزوجتـه وصدمـة فقدانهـا جعـلاه ينجـرف لـشرب الكحوليـات بشراهـة لدرجـة اقتربـت مـن الإدمـان قبـل أن ينصحـه طبيبـه النفـسي بتقليلهـا تدريجيًـا حـتى يسـتعيد توازنـه النفـسي والعصـبي، حـتى لا يعـاني مـن wine withdrawal symptoms أو أعـراض انسـحاب تأثـير الكحـول.. إلا أنهـا أصبحـت عـادة لـه أن يحتـسي كأسًـا أو كأسـين عنـد المسـاء يوميًـا.. ارتمـى عـلى كنبـة وثـيرة أمـام التليفزيـون LCD في منتصـف الصالـة ليجـد مـا يسـليه مـع النبيـذ وبعـض المقرمشـات الـتي وجدهـا في المطبـخ.. فوجـد برنامجًـا حواريًـا عـلى القنـاة الثانيـة الإسرائيليـة يتحـدث عـن مشـاكل المسـتوطنات الاجتماعيـة.. فانتقـل للقنـاة العـاشرة فوجـد أحـد الأفـلام "البورنـو" الـتي يذيعهـا التليفزيـون الإسرائيـلي في هـذا الوقـت مـن

الليـل.. وفجـأة انقطـع الإرسـال وأذيـع خـبر عاجـل عـن وقـوع حـادث إرهـابي في مدينـة نتانيـا شـمالي إسرائيـل.. فاعتقـد أنـه مجـرد خـبر عابـر.. فتنقـل بالريمـوت إلى قنـاة أخـرى فوجـد نفـس الـشيء.. كل القنـوات تنقـل بثًـا مبـاشرًا مـن نتانيـا، حيـث انفجـار أتوبيـس نقـل عـام بجـوار محطـة للأتوبيسـات بشـارع "سميلانسـكي" ممـا أدى إلى مـوت 8 مواطنـين إسرائيليـين وإصابـة أكـثر مـن أربعـين شخصًا، وأصيـب النـاس بحالـة مـن الذعـر الشـديد أصبحـوا يهرعـون في الشـوارع كالمجانـين وانقلبـت إسرائيل كلهـا رأسًـا عـلى عقـب وكأنـه يـوم القيامـة، وأحيطـت المنطقـة بسـيارات الإسـعاف والشرطـة وأغلقـت مـن أجـل معاينـة رجـال الأمـن، بينمـا سـاد المنطقـة الهـرج والمـرج وسـط صراخ وعويـل المصابـين.. وسرعـان مـا خـرج المذيعـون والمحللـون السياسـيون يصبـون لعناتهـم عـلى الفلسـطينيين الإرهابيـين بعـد عـشر دقائـق مـن الحادثـة، وعلـق أحـد ضبـاط جهـاز الأمـن العـام أن الحـادث نتيجـة صعـود شـاب فلسـطيني يحمـل حزامًـا ناسـفًا فجّـر نفسـه بداخلـه.. فشـعر الدكتـور ماكلـين بانقبـاض في قلبـه حيـث البدايـة غـير المبـشرة.. وفجـأة سـمع صوتًـا عنيفًـا لـشيء يرتطـم في بـاب شـقته بقـوة.. فانتفـض مـن مكانـه وسـقط منـه كأس الكونيـاك عـلى الأرض وهـرع إلى البـاب، وعندمـا فتحـه وجـد رجـلاً ملقـى عـلى الأرض يحـاول أن يسـتند عـلى البـاب في حالـة سـكر مذريـة. ذو شـعر أبيـض مجعـد وملامـح بحرمتوسـطية حيـث البـشرة المائلـة للسـمرة وعينـين جاحظتـين حمراويـن زائغتـين مـن شـدة السـكر، تظهـر بهمـا خطـوط الأعصـاب الحمـراء بوضـوح ولحيـة منبتـة في وجهـه الشـاحب، بينمـا يرتـدي قميصًـا مهلهـلاً يخـرج مـن بنطلونـه وبدلتـه.. فحـاول الدكتـور ماكلـين مسـاعدته في النهـوض.. فقـال الرجـل بصـوت مهـزوز وكلمـات متقطعـة:

- اعذرني سيدي.. لقد أزعجتك.

- المهم أنك بخير.

فحـاول الرجـل اسـتجماع قـواه ونظـر إلى الدكتـور ماكلـين وإلى بـاب الشـقة وقـال:

- يبدو أني أخطأت في الشقة كالعادة.

- لا عليك.

فوقف الرجل بصعوبة مستندًا على الحائط وأكمل:

- أنا جارك في الشقة المقابلة.. اسمي يربعام بن عجنون.. يمكن أن تناديني «يوري».. مدير بنك سابق.

ولم يكمل جملته حتى سقط مرة أخرى على الأرض.. فحمله الدكتور ماكلين إلى داخل شقته وأنزله على الكنبة ثم دخل إلى المطبخ ليصنع له قهوة تخرجه من حالة اللا وعي والغثيان، وهو يغمغم بعد ضياع أول ليلة له في القدس، بينما أخذ يوري ينظر إلى ما حوله دون تركيز.. وما أن ارتشف أول رشفة من القهوة واشتم رائحتها القوية بدأ في الدخول لمرحلة الإدراك واستعادة الوعي، وأمسك رأسه الذي أصابه بوادر الصداع وقال:

- أنا أعتذر مرة أخرى عن الإزعاج.. أعرف أنني شخص مزعج وسببت لك مشاكل.

فابتسم الدكتور ماكلين ورد بهدوء:

- لا يهمك يا عزيزي.. أعرفك بنفسي أنا...

فقاطعه يوري:

- أنت الدكتور الأمريكي الذي سيعمل في الجامعة العبرية.. كل المنطقة تعرفك يا سيدي.. كنت أتمنى أن أتعرف عليك في ظروف أفضل من تلك الحالة.

- تشرفت بمعرفتك يا عزيزي يوري.

- أنا لا أسكر في العادة.. ولكنها حالات استثنائية.

فضحك الدكتور ماكلين ورد في سره:

- واضح.. واضح.

فنظر يوري إلى البار وزجاجات البراندي والكونياك نظرة عاشق يلهث وراء حبيبته:

- أتمنى أن نكون أصدقاء يا عزيزي.. فيبدو أن بيننا أشياء مشتركة عديدة.

- بالتأكيد.. القليلون هم من يقدرون هذا الذوق العالي.. ولا بد أن تشاركني هذا الذوق.

وقـام يـوري مـن مكانـه وهـو يخـرج مفتـاح شـقته وأخـذ يترنـح في محاولـة للرحيـل قائـلاً:

- لن أطيل عليك ولكني في انتظار زيارة لشقتي المتواضعة.

وخـرج يـوري بصعوبـة وهـو يسـتند عـلى الجـدران، حـتى وصـل إلى بـاب شـقته وهـو يتحسـس مـكان المفتـاح كي يفتحـه، بينمـا أخـذ الدكتـور ماكلـين يراقبـه حـتى دخـل وسـمع صوتـه وهـو يسـقط داخـل شـقته.

*****

في تمـام التاسـعة صباحًـا.. وصلـت السـيارة أمـام مـنزل الدكتـور ماكلـين الـذي كان في انتظارهـا.. فـنزل تـال وحيّـاه قائـلاً:

- أرى أنك اليوم في قمة نشاطك.. سيدي دكتور ماكلين.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- لـن أكـذب عليـك.. أنـا لـم أنـم ليلـة أمـس.. كمـا أنـني أشـتاق إلى لقـاء الدكتـور بـن أهـارون ورؤيـة الجامعـة.

فابتسـم تـال وركبـا السيارة الـتي انطلقـت عـبر شـوارع جانبيـة، حـتى وصلـت إلى حـرم الجامعـة العبريـة، ذلـك المجمـع الضخـم مترامـي الأطـراف عـلى سـفح جبـل المشـارف، أشـبه بمدينـة كاملـة، والـذي يضـم مجموعـة مـن كليـات الإنسـانيات والعلـوم الاجتماعيـة والقانـون وإدارة الأعمـال والعلـوم اليهوديـة، ويحيـط بـه سـور حديـدي ضخـم.. وسـارت السـيارة لمسـافة كبـيرة داخـل الحـرم، بينمـا أخـذ الدكتـور ماكلـين يحملـق بعينيـه في بعـض مبانيهـا القديمـة والـتي ترجـع لعـام ١٩٢٥، وأخـرى الجديـدة الـتي جـددت عـبر سـنوات القـرن العشريـن، وطرقهـا الممتـدة وأفنيتهـا الواسـعة الـتي لـم تكـن مزدحمـة بعـد سـوى بعـدد قليـل مـن الطـلاب، ونظـر إلى نصـب تـذكاري للجامعـة عـلى شـكل نصـف

دائـرة لهـا أعمـدة إغريقيـة تحمـل عتبًـا مكتوبًـا عليـه اسـم الجامعـة وأمامـه مـسرح مكشـوف عـادة مـا تقـام بـه حفـلات التخـرج بالجامعـة.. ورفـع رأسـه وأخـذ يراقـب علـم إسرائيـل المرفـوع فـوق المبـاني وهـو يرفـرف عليهـا وبجـواره علـم الجامعـة.. حـتى وصلـت السيارة إلى مبـنى كليـة الإنسـانيات في منتصـف المجمـع.. ذلـك المبـنى الحديـث المرتفـع ذو واجهـة حجريـة عليهـا اسـم الكليـة بالعبريـة والإنجليزيـة بالنحـاس.. فـنزل كل مـن تـال والدكتـور ماكلـين وسـارا عـبر ممـر طويـل حـتى وصـلا إلى مكتـب الدكتـور حاييـم بـن أهـارون رئيـس قسـم التاريـخ.. فنقـر تـال البـاب ودخـلا.. كان الدكتـور حاييـم بـن أهـارون رجـلاً في أواخـر الخمسـين مـن عمـره، ذو وجـه ممتـلئ وعينـين واسـعتين خلـف النظـارة السـميكة الـتي تـنزل عنـد مقدمـة أنفـه المعقـوف، يرتـدي قميصًـا دائمًـا يظهـر خـارج البنطـلون ليخـبئ جسـده المترهـل وبطنـه المنفـوخ مرتديًـا طاقيـة الـ«يرملكـة» اليهوديـة عـلى رأسـه الـتي تحـوي القليـل مـن الشـعر الأبيـض.. كان بـن أهـارون جالسًـا عـلى مكتبـه في غرفـة فخمـة كبـيرة تضـم حجـرة اجتماعـات ومكتبـة صغـيرة.. مـا أن دخـل عليـه الدكتـور ماكلـين حـتى وقـف ومـال إليـه وهـو يعانقـه بقـوة.. قائـلاً:

- عزيـزي دكتـور ماكلـين.. كـم أنـا سـعيد اليـوم أنـني رأيتـك! واكتملت سـعادتي بانضمامـك للعمل معنـا بالجامعة.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

- إنهـا شـهادة أعـتز بهـا.. بـل إنـه شرف لي أن أعـود لأعمـل معـك مـن جديد.

ثـم أخـذه الدكتـور بـن أهـارون مـن يـده وأشـار إلى شـابين واقفـين بالحجـرة قائـلاً:

- أعرفـك عـلى تلميـذيّ ومسـاعديّ.. هـذا تـال، هـا قـد تعرفـت عليـه منـذ أن كان في صحبتـك في تـل أبيـب.. أمـا هـذا فهـو رامـون، واحـد مـن

أفضـل تلاميـذي، وسـيكون مسـاعدًا لـك في أي شيء تحتاجـه.

فابتسـم الدكتـور ماكلـين وبادرهـم التحيـة.. ثـم لمـح بينهـم رجـلاً جالسًـا لـم يتحـرك ولـم ينطـق بكلمـة.. لكنـه حملـق بـه جيـدًا يتفحصـه منـذ أن دخـل.. فنظـر إليـه الدكتـور ماكلـين قائـلاً:

- لكنك لم تعرفني على ذلك الشاب الوسيم.

فابتسم الدكتور بن أهارون قائلاً:

- هـذا هـو صديقـي الكولونيـل إبـرام زيفـي.. إنـه ضابـط بجهـاز الشـين بيـت والمسـؤول الأمـني هنـا بالجامعـة.

كان إبـرام رجـلاً في أواخـر العقـد الرابـع مـن عمـره، ذو عينـين برّاقتـين كعيـني الصقـور، ذو شـعر قصـير محلـوق عنـد الجانبـين مثـل قصـة «الماريـنز»، لمعـت بـه شـعرات بيضـاء وتظهـر وجنتيـه بارزتـين في وجهـه المائـل للحمـرة، تشـد مـن تجاعيـده العصبيـة رغـم صغـر سـنه وتجعلهـا محفـورة بقـوة وملامـح حازمـة تميـل إلى الوجـوم، فقليـلاً مـا يبتسـم إلا للـضرورة.. فقـام إبـرام مـن مكانـه وحيّـا الدكتـور ماكلـين قائـلاً:

- لقد سمعت الكثير عن نبوغك جعلني أشتاق كثيرًا لرؤيتك.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- إنك تبالغ بعض الشيء كولونيل إبرام.

فابتسم إبرام قائلاً:

- لا داعي للألقاب.. يمكن أن تناديني إبرام فقط.

ثـم أخـرج بـن أهـارون the guest book الخـاص بالقسـم وطلـب مـن الدكتـور ماكلـين بـأن يكتـب كلمـة بمناسـبة وجـوده معهـم.. فأخـرج الدكتـور ماكلـين قلمـه الحـبر "الكارتييـه" الذهـبي مـن جيبـه والمنقـوش عليـه اسـمه وكتـب بيـده اليـسرى بالإنجليزيـة:

- IT's my pleasure To be among my great frıends ın Thıs great scıenTıfıc academy.. I wısh to have nıce Tımes ın Israel

- "إنـه مـن دواعـي سروري أن أكـون وسـط أصدقـائي الأحبـاء في هـذا الـصرح العلمـي العظيـم.. وأتمـنى أن أقـضي وقتًـا رائعًـا في إسرائيـل".

فتمعن بن أهارون في كتابة الدكتور ماكلين ثم رد قائلاً:

- والآن ودون أن نضيـع وقـت الدكتـور ماكلـين.. سـوف يصطحبـك مسـاعداي في جولـة حـول الكليـة والقسـم كي تتعـرف عليهـا، بالإضافـة إلى مكتبـك الـذي سيكون في نفـس هـذا الطابـق.

فابتسم الدكتور ماكلين.. ثم أكمل بن أهارون قائلاً:

- ولكـن هــذا ليـس كل شيء.. فإنــك مدعــو عــلى العشــاء بمناســبة وصولـك إلى أورشـليم.. لا تنــس ســأمرّ عليــك في العــاشرة مســاء.

فردّ الدكتور ماكلين وقد ظهرت على ملامحه السعادة قائلاً:

- أنا لا أعرف ماذا أقول لك!

فابتسم بن أهارون قائلاً:

- إنــه أقــل شيء يمكــن أن أقدمــه لــك.. وللمــرة الثانيــة أهــلاً بــك في وطنـك الثـاني.. إسرائيـل.

ومـا أن خـرج كل مـن الدكتـور ماكلـين والمسـاعدين حـتى التفـت بـن أهـارون إلى إبـرام بلهفـة قائـلاً:

- مارأيك فيه؟

فصمت إبرام قليلاً ثم رد بعينين لامعتين ضيقتين قائلاً:

- سنرى.

أخــذ كل مــن تــال ورامــون يطوفــان بالدكتــور ماكلــين بــين أقســام الكليــة، بينمــا كان رامــون يــشرح لــه تاريخهــا.. حــتى وصلــوا إلى قســم التاريــخ وصعــدوا إلى المكتــب المخصــص للدكتــور ماكلــين.. فأكمــل رامــون قائــلاً:

- وهــذا العــام ســوف تــدرّس مادتــك لفصــل الدراســات العليــا.. إنهــم لا يتجــاوزون العشريــن طالبًــا.. معظمهــم مــن ســكان أورشــليم

والمستوطنات التي تحيط بها.. بعضهم من الأشكيناز «اليهود الغربيين» وأغلبهم من السفارديم «اليهود الشرقيين».. عدا طالب واحد يدعى مصطفى القوادري.. عربي من سكان أورشليم.. وهو العربي الوحيد الذي التحق بهذا القسم وأكمل به حتى وصل إلى فصل الدراسات العليا.. ستجده مشاغبًا نوعًا ما، رغم ذلك فإنه نابغة ومتفوق في دراسته.

فارتسمت على وجه الدكتور ماكلين ملامح القلق قائلاً:

- يبدو أنني سوف أجد بعض القلاقل في ذلك الصف.

فرد تال قائلاً:

- ربما.. لكنك سوف تستمتع بالعمل مع هؤلاء الشباب.. إنهم أفضل طلبة بالقسم.

فرد الدكتور ماكلين قائلاً:

- وأنا لا أعمل إلا في جو من التحدي.. دائمًا ما أفضّل الحوار مع تلاميذي وأتقبل الآراء المختلفة.. لقد بنيت داخل عقليات جميع تلاميذي أسلوب الجدل والمناقشة كي نصل إلى الحقيقة المطلوبة.

فابتسم رامون قائلاً:

- ليتني كنت ضمن هؤلاء الطلبة.. لكن الفرصة لم تفت بعد، فإنك بيننا الآن.

ثم أخرج تال مجموعة أوراق وأعطاها للدكتور ماكلين قائلاً:

- هذه قائمة بأسماء الطلبة وبياناتهم ودرجاتهم في السنوات الماضية.

فأخذها الدكتور ماكلين وأخذ يقلب فيها ويلمح صور الطلبة.. حتى وقف كل من تال ورامون قائلين:

- الآن سوف نتركك كي تنظم وقتك وأوراقك.. وإذا أردت أي شيء نحن في خدمتك.

فابتسم الدكتور ماكلين وحياهما حتى خرجا.. ثم أخذ يقلب بين أوراق الطلبة ويقرأ بياناتهم، وبعدها أغلق الملف وأخذ يتمشى داخل مكتبه حتى وصل إلى النافذة التي تطل على فناء كبير لم يكن يضم سوى قليل من الطلبة.. أخذ ينظر إليهم بشرود، بينما أخذت الذكريات تتلاعب برأسه وصوت طبيبه النفسي يطنطن في أذنيه.. كانت كلماته تتردد وهو ينصحه بأن يترك البلاد ويذهب بعيدًا لأي مكان ويبدأ من جديد، بعد أن أصابته حالة اكتئاب قوية كادت أن تهدد مستقبله العلمي بعد أن انقطع عن العالم ومكث في المنزل وحيدًا.. فأخذ ينظر إلى السماء عبر النافذة وحدّث نفسه قائلاً:

- «إنها فرصتك من جديد ماكلين.. لقد جاء الوقت لتثبت أنك ما زلت على القمة مثلما كنت من قبل.. وها قد جاءتك فرصتك بالجامعة العبرية لتعيد مجدك الذي كاد أن يتسرب من بين يديك.. واسمك العالمي الذي كاد أن يطويه النسيان».

*****

كان مبنى جهاز الشين بيت أو الشاباك (الأمن الداخلي) الواقع في وسط القدس في حالة استنفار لوصول واحد من أقوى رجاله.. الكولونيل إبرام.. اصطف الضباط والجنود صفين لتحيته منذ وصول سيارته حتى صعوده إلى مكتبه، وحوله مجموعة من مساعديه جميعهم يرتدون تيشيرتًا أبيض عليه قميص يضم شعار الشين بيت على الصدر، ومكتوب أسفله بالعبرية «الدرع الذي لا يُرى» ومدججون بسلاح العوزي (رشاش إسرائيلي الصنع).. ففتح باب مكتبه بقوة وألقى بمجموعة من الأوراق كانت في يده على المكتب ووجهه ينفجر من الغضب والشرر يخرج من عينيه الواسعتين وأخذ

يصيح قائلاً:

- كيف يقوم مجموعة من هؤلاء المجرمين العرب بالقيام بتلك العملية ونحن غائبون؟! كيف سنحت لهم الفرصة للقيام بتلك العمليات الإرهابية المتتالية؟! يسير شاب فلسطيني بحزام ناسف في شوارع نتانيا دون أن يفتّشه أحد حتى يصعد إلى حافلة ويفجر نفسه فيها.. أنتم أغبياء ولا تستحقون أن تكونوا ضباطًا في الشين بيت.

فتلجلج أحد الضباط ورد:

- سيدي.. لقد قمنا بكل وسعنا في مراقبة تلك الخلايا الإرهابية، كما زرعنا بداخلها رجالنا لنقل الأخبار.. لكن يبدو أن تشكيلاتهم تعتمد على التنوع في التخطيط، مع وجود قيادات سرية لا يكشف عنها حتى داخل الخلية الواحدة.

فازداد إبرام غيظًا وصرخ بصوت عالٍ:

- وما العمل إذن؟ إن كان أكبر جهاز أمني في إسرائيل كلها فشل في قمع مثل تلك العمليات.. فمن سيحمي هذا البلد.. عملية ناتانيا فقدنا فيها أكثر من عشرة مدنيين.. وهذا المعدل في مثل تلك المدينة السياحية شديد الخطورة.. يمكن أن يدمر مستقبل المدينة.. كما سيتسبب في ضياع هيبة الأمن الإسرائيلي وصحوة هؤلاء الفلسطينيين.

فرد الضابط مرة أخرى:

- لا تقلق سيدي؛ لدينا العديد من الأساليب في الضغط على الفلسطينيين وجعلهم ينهاروا أمامنا.. إنها مجرد عملية وقت.. ليس أكثر.

فرد إبرام بقوة ووجهه يغلي:

- لم يعد هناك وقت.. يجب أن تضيّقوا الخناق عليهم أكثر من ذلك، والقوا بأكبر عدد منهم في السجون، وزيدوا من أساليب

التعذيب إبان التحقيق كي نضعفهم ونسحقهم.. وسوف نجتمع بعد يومين لأرى النتائج.. لديّ أمور أخرى تحتاج إلى تركيز.. الآن انصراف.

فوقف الضباط انتباهًا وحيوه التحية العسكرية الصارمة وانصرفوا.. فدخل خلفهم تال وعيناه توقد اللمعان وعلى وجهه ملامح الحماس، ويحمل حقيبة سوداء في يده.. فقام إبرام وحياه قائلاً:

- أهلاً تال.. ماذا أحضرت لنا اليوم؟

فأخرج تال من حقيبته ملفًا كبيرًا وأعطاه له.. قائلاً:

- كل ما طلبته عنه في هذا الملف.. بالصور والمستندات.. لقد أصبح الآن بين أيديكم.

فابتسم إبرام ابتسامة صفراء وأخذ الملف متلهفًا وقال:

- دائمًا متفوق.. أنت وأستاذك لا تخذلوني أبدًا.

فرد تال بتعجب واضح على وجهه:

- ولكن لماذا طلبت صورة من الـguest book؟

فابتسم إبرام ابتسامة صفراء ورد بعينين لامعتين:

- عزيزي تال.. نحن نهتم بكل التفاصيل.. حتى الكتابات والخطوط نهتم بها ونحللها نفسيًا، وهذا ما يسميه علماء النفس «الجرافولوچي».. انظر.. إنه يكتب حرف d بشكل مائل وأصغر من الحجم الطبيعي، فهو يدل على شخصية حساسة وقلقة بخصوص ذاته، ومع ذلك يعتز بنفسه جدًا.. كما أن كتابته لحرف ı بدون نقطة يدل على شرود ذهنه.. وكتابته حرف T كبير في وسط الكلمة يدل على وقوعه تحت ضغط أو أنه يخفي أمرًا ما.

فاتسعت مقلتا تال وازدادت دهشته.. بينما أكمل إبرام:

- لدينا متخصصون في هذا الأمر.. سيحللون كل كبيرة وصغيرة فيه بشكل علمي.

فكتم تال أنفاسه ثم قال:

- كل يـوم أتعلـم منكـم الكثـير.. كولونيـل.. يجـب أن أعـود إلى الجامعـة حـتى لا يلاحـظ أحـد غيـابي.

وبعـد أن انـصرف تـال.. مـال إبـرام بظهـره عـلى الكـرسي ووضـع قدميـه عـلى المكتـب وأشـعل سـيجارة وأخـذ يقلّـب في الملـف باهتمـام هـو يـردد بعـض العبـارات المكتوبـة بهـا:

«الاسـم: جيمـس فيكتـور ماكلـين.. السـن: ٥٤ سـنة.. أسـتاذ بجامعـة شـيكاجو بالولايـات المتحـدة.. حاصـل عـلى الدكتـوراه في مجـال تاريـخ الصهيونيـة.. محـاضر عالمـي وحاصـل عـلى العديـد مـن الجوائـز العلمية العالميـة.. يعـد واحـدًا مـن أعظـم علمـاء التاريـخ السـياسي في العالـم.. الحالـة الاجتماعيـة: أرمـل ولـه ولـد وحيـد يعمـل في مجـال الطـيران.. شـديد الـذكاء وذو حضـور قـوي.. ناجـح في حياتـه العلميـة.. يميـل إلى التفكـير العميـق في أغلـب تصرفاتـه».

ثم رجع بظهره للخلف وقال في سره:

- «ملفـك مهـول.. ماكلـين.. يبـدو أنـك أخطـر ممـا كنـت أتوقـع.. لكنـك لـن تسـتطع أن تفلـت مـني أبـدًا».

ثـم أغلـق الملـف ووضعـه بقـوة عـلى المكتـب.. ثـم نـادى عـلى أحـد الضبـاط فهـرع إلى مكتبـه.. فوقـف إبـرام مـن مكانـه وأمسـك بصفحـة مـن الملـف قائـلاً:

- أريـدك أن تراقـب هـذا الشـخص جيـدًا.. أريـدك أن تكـون عيـنيّ عليـه في كل وقـت وفي كل مـكان.. أريـد أن أعـرف مـتى ينام ومـتى يصحو.. مـن يقابـل ومـع مـن يتكلـم.. أيـن يذهـب وفيـمَ يفكـر.. أريدك أن تسكن تحـت أنفـه وتعـد لي أنفاسـه.. أن تكـون ظلـه الـذي لا يفارقـه أبـدًا.. كوّن الفريـق الـذي سيسـاعدك ولـك مـني كل الصلاحيـات.. أريـد تقريـرًا دوريًـا

مفصّلاً عنـه.. لا أريـد أي خطـأ وإلا سـتكون العواقـب وخيمـة.

فوقف الضابط منتبهًا ورد:

- تمـام سـيدي.. كل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام.. بالمناسـبة الجـنرال شـاؤول يريـد مقابلتـك.

- حسنًا أخبره أنني قادم لمقابلته الآن.

أخـذ إبـرام مجموعـة مـن الأوراق ومعهـا الملـف واتجـه نحـو مكتـب الجـنرال شـاؤول مديـر جهـاز الشـين بيـت، ودخـل مكتبـه الكبـير المـليء بالنياشـين والكـؤوس والجوائـز العسـكرية والأعـلام.. وحيّـاه التحيـة العسـكرية ثـم جلـس أمامـه.. فارتكـز شـاؤول عـلى مكتبـه وقـال بقـوة:

- الأخبـار القادمـة مـن ناتانيـا سيئة جـدًا إبـرام.. أريـد انضباطًـا وقوة أكـثر مـن ذلـك.. أنـت واحـد مـن أقـوى ضبـاط الشـين بيـت.. وأنـا أعتمـد عليـك في ردع هـؤلاء المجرمـين والانتقـام بقـوة منهـم.

- حسنًا سيدي.. نحن نعمل بكل طاقاتنا.

ثم انتبه إليه وأكمل قائلاً:

- وما أخبار الزائر الجديد؟

فرد إبرام متحفزًا:

- كل شيء جاهـز سـيدي.. وضعنـاه تحـت أعيننـا ونرصـد كل تحركاته.. وأدق تفاصيـل حياتـه سـتكون أمـام سـيادتك في تقريـر مفصّل.

- إبـرام.. هـذا الأمـر شـديد الأهميـة.. وجـود مثـل هـذا الرجـل في إسرائيـل يمثـل أهميـة كـبرى يجـب اسـتغلاله جيـدًا وإلا أصبـح قنبلـة موقوتـة.

فنظر له إبرام بعينين لامعتين ورد قائلاً:

- سـيدي.. لا أريـدك أن تقلـق أبـدًا.. لقـد وضعـت الموضـوع في يـد مـن لا يخطـئ.

فقام شاؤول من مكانه قائلاً:

- وأنا أعتمد عليك في تلك العملية اعتمادًا كليًا.

فابتسـم إبـرام وقـام مـن مكانـه طالبًـا الانـصراف.. وسـار خـلال الممـر المـؤدي إلى مكتبـه وهـو يحملـق بعينيـه الـتي تشـتعل نـارًا في الملـف، وارتسـمت عـلى وجهـه ملامـح التحـدي وأخـذ يحـدث نفسـه قائـلاً:

«الآن بدأت اللعبة.. كن مستعدًا.. ماكلين».

*****

كان ليـل القـدس قـد هبـط بنسـائمه عـلى تلـك المدينـة البراقـة وأضوائهـا اللامعـة وشـوارعها المزدحمـة.. حينهـا خـرج الدكتـور ماكلـين مـع بـن أهـارون وسـط زحـام نهايـة الأسـبوع حـتى وصـلا إلى «بـار زوني» وسـط القـدس.. ودخـلا إلى قاعـة واسـعة فخمـة.. فأخـذ بـن أهـارون يقـوده إلى الطريـق قائـلاً:

- الليلـة سـوف أعرّفـك عـلى شـلة البـار.. إنهـم أصدقـائي المقربـون ودائمًـا مـا أسـهر معهـم.. إنهـم مـن صفـوة المجتمـع.. هـا هـم هنـاك.

اقـترب كل منهمـا مـن مجموعـة مـن الرجـال حـول طاولـة القمـار.. فأشـار إليهـم بـن أهـارون قائـلاً:

- دعـوني أقـدم لكـم الليلـة مفاجـأة كبـيرة.. صديقـي القديـم الدكتور جيمـس ماكلـين أسـتاذ التاريـخ السـياسي مـن الولايـات المتحـدة.. لقـد جـاء لينضـم معنـا إلى شـلة البـار.

فابتسم الدكتور ماكلين قائلاً:

- يبدو أنني قد عطلت عليكم لعبكم الليلة.

فقـام أحدهـم وكان نحيـل الجسـد ذا شـعر خفيـف يميـل إلى البيـاض، ورقبـة يملؤهـا العـروق والتجاعيـد:

- بالعكس.. لقد حدثنا بن أهارون عنك كثيرًا.. بل أنني أريدك أن تشاركني اللعب.

فضحك بن أهارون قائلاً:

- هذا ناحوم كاتساف.. رئيس قسم السياسة بجريدة جيروزاليم بوست.. محاور متمرس وصحفي مراوغ.. بالإضافة إلى كونه لاعب بوكر محترف.. لا أحبذ أن تلعب معه.

ثم أشار إلى رجل آخر ضخم الجثة يظهر عليه الصرامة والقوة مع بعض من تقدم الزمن قائلاً:

- أما هذا.. فهو الجنرال إسحق ليفي.. قائد بسلاح الطيران برتبة « آلوف» من كبار ضباط جيش الدفاع.. رغم أن له العديد من الأفكار التي أتعارض معها لكنني أعتبره صديقي المقرب.. وهذا الأنيق هو راؤول رود صاحب شركة سياحة هنا في أورشليم ولها فروع عديدة بأنحاء إسرائيل والعالم.

فنظر الدكتور ماكلين إلى الشخص في نهاية الطاولة وابتسم.. فعلق بن أهارون قائلاً:

- أما هذا فأنت تعرفه جيدًا.. صديقنا الكولونيل إبرام.. صديقنا في البار وأحيانًا ما يسهر معنا هنا في وقت فراغه.. فهو دائمًا مشغول.

كان إبرام جالسًا بجوار أصدقائه ممسكًا بكأس من الفودكا، وأخذ ينظر للدكتور ماكلين بعينين حمراوين محاولاً إخفاء تحفّزه تجاهه، ورد بهدوء قائلاً:

- والآن ومع وجود الدكتور ماكلين اكتمل شملنا.

جلس الدكتور ماكلين بجوار الجنرال ليفي الذي كان يوزع الورق على الجالسين.. فعلق كاتساف قائلاً:

- أتمنى أن يكون حظك اليوم أفضل.. جنرال.. ما حدث ليلة

أمــس في ناتانيــا شيء بشــع.
فرد ليفي بحسرة:
- إنهــا كارثــة.. ناحــوم.. إسرائيــل كلهــا حزينــة اليــوم.. لكننــا لــن نتركهــم يفرحــون بضرباتهــم.. وســيكون الــرد أعنــف ممــا تتوقــع.
فأكمل رود:
- أنتـم يـا سـادة لا تدركـون مـدى الخسـائر الـتي فقدناهـا سـياحيًا مـن جـرّاء تلـك الضربـة والضربـات السـابقة.. ومـا سـوف يـأتي مـن ضربـات ولا نعلمــه.. هــؤلاء العــرب يعملــون بنظــام مــدروس وتحــت قيــادات منظمــة.
فرد ليفي بقوة وألقى الكروت من يديه قائلاً:
- راؤول.. نحــن نعــرف كيــف نســيطر عليهــم ونــرد الضربــة جيــدًا، وأعتقــد أن الموضــوع كلــه يحتــاج إلى وقــت للخــلاص مــن كل هــؤلاء المجرمــين.. إنهــم مجموعــة مــن المخربــين يخرجــون إلينــا مــن تحــت الأرض ولكننــا لا ولــن نتركهــم.
فقاطعه كاتساف ورد قائلاً:
- ولكــن لا يجــب الاســتهانة بميليشــيات كل مــن حمــاس والجهــاد.. إنهــم عــلى مســتوى عــالٍ مــن التنظيــم.. بالإضافــة إلى أنهــم يختــارون أماكــن وتوقيتــات حساســة لضربنــا فيهــا.
فنظر بن أهارون إلى الدكتور ماكلين متسائلاً:
- ولكننا لم نسمع رأيك اليوم عزيزي ماكلين عن تلك الأزمة.
فرد الدكتور ماكلين بهدوء:
- إنــني أتعجــب بشــدة ممــا يقــوم بــه هــؤلاء الفلســطينيون.. مــاذا يدفــع الشــاب منهــم للتخــلي عــن حياتــه ومســتقبله وأحلامــه ويضــع كل همــه في تفجــير نفســه داخــل ســوق تجاريــة أو منتجــع ســياحي؟! ومــاذا ســيجني مــن قتــل عــشرات أو حــتى مئــات مــن النــاس يتخيــل أنهــم أعداؤه

أمـام الانتحـار وفقـدان حياتـه؟! وأي مقابـل سـيحصل عليـه مـن جـراء تلـك العمليـة الانتحاريـة؟! لا بـد أن لهـؤلاء النـاس فكـرًا قويًـا خاصًـا بهـم يدفعهـم للقيـام بتلـك الأعمـال.. إنـه ليـس بهيّن عـلى الإنسـان أن يفقـد حياتـه إلا إذا كان مقابـل شيء أغـلى مـن حياتـه كلهـا.

فنظر إليه كاتساف ورد:

- فعـلاً دكتـور ماكلـين.. رغـم كل عمليـات الـردع والاعتقـال الـتي تحـدث بهـا ضدهـم.. لكـن مقاومتهـم لنـا لا تنتهـي.. بـل تـزداد قـوة وإصرارًا.. حـتى تحـول جميـع الفلسـطينيين إلى قنابـل موقوتـة يمكـن أن تنفجـر في وجوهنـا في أي لحظـة وفي أي مـكان.

كان إبـرام يسـتمع لمـا يـدار مـن نقـاش دون أن ينطـق بكلمـة.. فنظـر إليـه الدكتـور ماكلـين وعلـق مبتسـمًا:

- ولكــن يبــدو أن صديقنــا إبــرام ليــس معنــا الليلــة.. أهنــاك مــا يأخــذك منــا؟

فنظـر إليـه إبـرام بعينـين قويتـين وثبـت نظـره الثاقـب داخـل عينـيّ الدكتـور ماكلـين.. وقـال بهـدوء:

- لقـد علمـني عمـلي أن أسـمع أكـثر ممـا أتكلـم.. وخاصـة إن كانـت أطـراف الحديـث بـين أيديكـم.. سـيكون لـه مـذاق آخـر.

فضحك بن أهارون وقال:

- الكولونيـل إبـرام دائمًـا مـا يلعـب معنـا في صمـت.. ولكنـه يفـوز في النهايـة.. ينتظـر في هـدوء حـتى يظفـر بالغنيمـة كلهـا.

فرد الدكتور ماكلين:

- إذن ستكون في فريقي في اللعب.

فرد إبرام بقوة:

- لا أعتقد.. إنني أحب اللعب وحدي كي أفوز وحدي.

فكشـف عـن أوراقـه عـلى الطاولـة، فنظـر إليهـا الجميـع متحسريـن

بينمـا أخـذ يلملـم الفيشـات والمـال الموجـود عـلى المنضـدة، وهـو ينظـر إلى الدكتـور ماكلـين مبتسـمًا ابتسـامة صفـراء، وقـال بصـوت يملـؤه التحـدي:

- أرأيت؟! المهم من يفوز في النهاية دكتور ماكلين.

ثم نظر إلى ساعته وقام من مكانه على عجل قائلاً:

- يبـدو أنـني سـأضطر إلى مقاطعـة هـذا التجمـع الجميـل.. لكـن عنـدي اجتمـاع عمـل مهـم.

فرد بن أهارون:

- حتى في مثل تلك الأوقات تعمل إبرام؟!

فرد عليه بنبرة قوة وهو يركز نظره على الدكتور ماكلين:

- أمن إسرائيل يجعلنا نعمل في أي وقت كي نحافظ عليه.

ثم أمسك يد الدكتور ماكلين بقوة وهو يصافحه قائلاً:

- سنتقابل مرة أخرى.

*****

الاختبار الأول

بـدأ العـام الـدراسي، ومعـه كانـت شـوارع القـدس شـديدة الازدحام، وبالأخـص مجمـع «سـكوبس» بالجامعـة العبريـة.. كانـت الجامعـة تعـج بالطلبـة والطالبـات.. يهـود منهـم وعـرب.. قـد اسـتعدت لاسـتقبالهم بتعليـق الأعـلام ولافتـات الترحيـب بالعبريـة والعربيـة وبلالـين هيليـوم متطايـرة عليهـا شـعار الجامعـة، ووقـف عـدد مـن الطـلاب القدامـى مـن اتحـاد الطلبـة يسـتقبلون الوافديـن الجـدد ويرحبـون بهـم في الجامعـة، يخبروهـم بأنشـطة الجامعـة والاتحـاد.. وطلبـة كل كليـة يوزعـون منشـورات خاصـة بهـم سـواء كانـوا يمينيـين متطرفـين أو يسـاريين أو علمانيـين.. بينمـا أحـاط بالجامعـة كـم غـير طبيعـي مـن رجـال الشرطـة.. حـتى صعـد رئيـس الجامعـة عـلى منصـة بالمـسرح المكشـوف يرحـب بالطلبـة الجـدد فتجمـع حولـه الطـلاب والأسـاتذة.. فقـال كلمـة قصـيرة بصـوت عـالٍ:

- «أبنـائي الطلبـة.. أعـزائي وزمـلائي الأسـاتذة.. اليـوم نبـدأ عامًا دراسـيًا جديـدًا نتطلـع فيـه لإحـراز تقـدم علمـي في جميـع المجـالات مـن أجـل إسرائيـل.. مـن أجـل أن نعيـش جميعنـا بـكل طوائفنـا في سـلام وأمـان.. يجـب أن نظـل يـدًا واحـدة كي تتقـدم الجامعـة العبريـة للأمـام ونصنـع مـا يجعـل هـذا الوطـن يفتخـر بنـا».

ووسـط كل هـذا الزحـام صعـد الدكتـور ماكلـين إلى مبـنى كليـة الإنسـانيات ودخـل إلى فصـل الدراسـات العليـا حامـلاً أوراقـه وجهـاز الـلاب تـوب الخـاص بـه.. أخـذ يحـدق في الطلبـة الذيـن لـم يـزد عددهـم عـن عشريـن طالبًـا ثـم قـال مرحبًـا:

- أعرفكـم بنفسي.. اسـمي الدكتـور جيمـس ماكلـين.. أسـتاذ التاريـخ..

وسوف ندرس معًا هذا العام تاريخ أورشليم.

ولم يكمل كلامه حتى رفع أحد الطلاب يده وقد ظهر على ملامحه الطابع العربي؛ ذو شعر أسود كثيف مجعد وبشرة تميل للسمار قائلاً:

- ولكن اسمها القدس!

فحدث هرج في الفصل وتعالت الأصوات والتفت إليه الدكتور ماكلين بقوة قائلاً:

- أنت أكيد مصطفى القوادري.. لقد سمعت عنك الكثير ويبدو أن شغبك سيبدأ مبكرًا.

فرد أحد الطلاب ضخم الجسد ذو بشرة باهتة وعضلات مفتولة مرسوم على ذراعه وشم على شكل نجمة داوود وله شعر أصفر يصل إلى حد البياض مرتديًا عليه الطاقية اليهودية:

- إنك لم تر شيئًا بعد.. هذا العربي هو أبشع شيء في هذا المكان.. يجب عليك أن تطرده قبل أن يملأ وقتك بهذيانه.

فرد عليه مصطفى بقوة:

- أنا لا أسمح لك بأن تخاطبني هكذا ديفيد.

فقامت فتاة جالسة خلف مصطفى ذات شعر أسود حالك طويل وجسد ممشوق وبشرة خمرية وعينين خضراوين مسحوبتين بكحل طبيعي أشبه بعيني القطط، واقتربت من ديفيد وقالت له بقوة:

- ديفيد.. يكفي هذا.. ليس كل عام تبدأه بالتشاجر مع مصطفى.. أرجوك اصمت.

فرد بعصبية:

- أما زلتِ متعاطفة مع ذلك العربي يا مريم؟! يجب أن أعطيه درسًا كي لا يشعر بأن له قيمة..

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين وصرخ فيهم جميعًا:

- يكفـي ذلـك.. يجـب أن تقـدّروا أنكـم داخـل محـاضرة ويجـب أن يكـون سـلوككم أكـثر تحـضّرًا.. يبـدو أن المشـاكل قـد بـدأت مبكـرًا كما قلـت.. لكنـني لـن أسـمح بذلـك قـط.. اجلـس مكانـك يـا مصطفـى ولا أريـدك أن تتكلـم إلا إذا طلبـت منـك ذلـك، وإلا واجهـك عقـاب شـديد.

فصمـت الجميـع وبـدأ الدكتـور ماكلـين في مواصلـة المحـاضرة حـتى قـارب موعدهـا مـن الانتهـاء فغـادر المـكان تـاركًا الطلبـة، فقفـز ديفيـد مـن مكانـه وأمسـك بمصطفـى ودفعـه في الحائـط بغلظـة ونظـر إليـه بملامـح يكتسـيها الغضـب قائـلاً:

- اسـمع أيهـا العـربي.. إذا حاولـت أن تتحـداني مـرة أخـرى فسـوف أسـحقك.

فهرعت مريم وأمسكت بذراع ديفيد قائلة:

- اتركه ديفيد.. اتركه.. أنا أحذرك.

فنظر إليها باستخفاف وألقاه على الطاولة قائلاً:

- هكذا إذن.. يبدو أن تعاطفك معه قد أنساك أشياء كثيرة.

ثـم غـادر الفصـل ومعـه العديـد مـن أصدقائـه خلفـه.. فأخـذت مريـم تسـاعد مصطفـى عـلى الوقـوف وهـي تمسـك بيـده، وقـد اكتـسى وجههـا بعلامـات الانزعـاج قائلـة:

- أنـا لا أعـرف مـاذا أقـول.. أنـت تعـرف سـخافات ديفيـد.. لا أريـدك أن تحـزن.

فقام من مكانه قائلاً:

- لا عليكِ؛ أنا أعرفه جيدًا وأعرف كيف أوقفه عند حده.

خـرج مصطفـى مـن الفصـل وأخـذ يتمشى بـين طرقـات المبـنى وخلفه مريـم وهـي تلاحقـه بعينيهـا، حـتى نـزلا إلى حديقة المبـنى وجلسـا كلاهما عـلى الأرض وسـط الحشـائش.. فأمسـكت بكراسـة وأعطتهـا إيـاه قائلة:

- لقـد نقلـت لـك مجموعـة محـاضرات مـن الأعـوام الماضيـة والـتي

يمكـن أن تفيدنـا هـذا العـام.

فمد يديه وأخذها مبتسمًا وقال:

- أنا لا أعرف كيف أرد لك جميلك.

فنظرت في عينيه بعمق وأمسكت بيديه بدفء شديد قائلة:

- لا تقـل هـذا.. أنـت أغـلى شيء في حيـاتي.. لـو طلبـت مـني روحـي لـن أمنعهـا عنـك.

فارتسـمت عـلى وجهـه ملامـح الاضطـراب وسـحب يـده مـن بـين يديهـا ثـم قـال:

- مريـم.. مـا تفكريـن فيـه لـن يحـدث أبـدًا.. هنـاك فـوارق عديـدة بيننـا لا يمكـن أن نتجاهلهـا.

فردت بقوة:

- لكوني يهودية وأنت عربي! هذا لا يهمني في شيء.. فأنا أحبك.

- لكن هذا لا يكفي.

- الحـب يمكـن أن يصنـع كل المسـتحيل ويزيـل جميـع السـدود الـتي بيننـا.

فتنهّد مصطفى تنهيدة طويلة ثم أكمل قائلاً:

- هنـاك أشـياء أقـوى مـن الحـب.. الواقـع الـذي نعيـش فيـه والـدم هنـا وهنـاك.. والأسـلاك الشـائكة حـول الحـدود.. كل هـذا لا يمكـن أن يعطينـا السـعادة.

- ولكـن الوضـع الآن أصبـح أفضـل كثـيرًا ممـا سـبق.. إننـا الآن نعيـش في سلام.

- هذا ما يظهر على السطح.. لكن الحقيقة غير ذلك.

فنظرت إليه بعينين حالمتين وردت قائلة:

- رغـم كل هـذا مـا زلـت أحبـك.. وسـيأتي اليـوم الـذي تـزال فيـه كل الحـدود وسـتكون أنـت لي.. أنـا لـن أيـأس أبـدًا.

فنظر إليها بعمق وقال:

- يبدو أنك ستنتظرين طويلاً.

فقـام كل منهمـا مـن عـلى الأرض، فقطفـت مريـم زهـرة حمـراء وأعطتهـا لـه قائلـة:

- هذه كي تتذكرني.. ضعها بجانبك وأنت تذاكر.

فأمسك بالوردة قائلاً:

- أخاف ألا أستطيع أن أعطيك المقابل.

فردت بهدوء:

- وأنا لا أنتظر منك المقابل.. لأنك أعطيته لي بالفعل.

*****

دخـل الدكتـور ماكلـين مكتبـه ووضـع الأوراق جانبًـا وارتمـى عـلى الكـرسي بعـد أن ظهـرت عـلى وجهـه ملامـح التعـب والإرهـاق.. فدخـل عليـه بـن أهـارون وأغلـق البـاب خلفـه وجلـس أمامـه دون أن يلحظـه.. فاسـتدار الدكتـور ماكلـين منتبهًـا وقـام مـن مكانـه.. فعلـق بـن أهـارون قائـلاً:

- يبدو أن تعب اليوم الأول قد حلّ عليك.

فرد الدكتور ماكلين قائلاً:

- بالفعـل عزيـزي حاييـم.. لقـد كان يومًـا شـاقًا.. لـم أتوقـع أن مـدى الصـدام بـين الأولاد قـد يصـل إلى تلـك الدرجـة.. وخاصـة مـن ذلـك العـربي مصطفـى.

فضحك بن أهارون ورد:

- ألم أقل لك؟! إنك لم تر شيئًا بعد.

فابتسم الدكتور ماكلين ثم استطرد متسائلاً:

- لكنـني لاحظـت شيـئًا غريبًـا اليـوم عـلى غـير العـادة.. هنـاك عـدد مهـول مـن الضبـاط والجنـود وعربـات الشرطـة حـول الجامعـة رغـم أنـني لـم ألحـظ أي مظاهـرة أو محاولـة للشـغب.

فاعتدل بن أهارون في جلسته ورد بملامح يملؤها الجد:

- دعـني أقـول لـك شـيئًا.. جامعتنـا تضـم عـددًا غـير قليـل مـن الطلبـة العـرب في العديـد مـن الأقسـام.. وهـم يمثلـون عصبـة في الجامعـة وعـادة مـا يحاولـون الاحتـكاك بالطلبـة اليهـود وإحـداث شـغب وفـوضى في اليـوم الأول.. في بعـض الأحيـان يقـوم عـدد مـن طلبـة اليمـين الإسرائيـلي المتطـرف بالتعـدي عليهـم وضربهـم، حيـث إنهـم لا يقبلـون وجودهـم بينهـم.. وقـد حـدث في العـام المـاضي مصادمـات بـين مجموعـة مـن الطلبـة العـرب وطلبـة اليمـين أدت إلى مقتـل العديـد منهـم وإصابـة عـدد آخـر.

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين وصمت قليلاً ثم قال:

- يبدو أن الأمر جدّي، على عكس ما كنت أتصور.

فابتسم بن أهارون ورد:

- لا عليـك، فنحـن معتـادون عـلى تلـك المناوشـات.. ونعـرف كيـف أن نصدهـا ونـردع الطلبـة المتطرفـين مـن كلا الطرفـين.. المهـم أن تسـتطيع السـيطرة عليهـم وتمسـك بلجامهم.

- ولكــن دورنــا كأســاتذة بالجامعــة أن نحــاور هــؤلاء الطلبــة مهمــا كانـت ميولهـم أو عقائدهـم حـتى نصـل بهـم إلى مـا نريـد.. العنـف لـن يولـد سـوى العنـف.

- هـذا مـا في تخيلـك.. ولكـن في بلـد مثـل إسرائيـل يضـم العديـد مـن الأجنـاس والألـوان.. مهاجريـن مـن كل مـكان.. يهـود شرقيـين وغربيـين وعـرب ومسـيحيين.. يجـب أن تسـيطر عـلى كل ذلـك.. وإلا انفلـت الزمـام مـن بـين يديـك.. أمـن إسرائيـل هـو شـاغلنا الأول.

فقام الدكتور ماكلين من مكانه وأحضر زجاجة عصير من ثلاجة صغيرة وملأ كأسين، له ولبن أهارون.. ثم اعتدل في جلسته أمامه وقال:

- أرى أنكم تهتمون بالأمن الداخلي والخارجي بشدة.

فرد بن أهارون قائلاً:

- الوضع الأمنى أصبح معقدًا.. فالعمليات الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون تزداد يومًا بعد الآخر وهو ما ينهك قوات الدفاع.. وإن كانت تلك فرصتنا والعالم منشغل بالغزو الأمريكي للعراق، وهو ما يفيدنا بشدة للبطش بهؤلاء العرب.

- كيف ذلك عزيزي حاييم؟

- سقوط دولة مثل العراق يمكن أن يفتح لنا أسواقًا لترويج سلعنا من سلاح ومواد استهلاكية، والسيطرة على البترول.. كما أنها أصبحت حائط دفاع لنا في مواجهة إيران وتهديداتها من خلال موقعها الإستراتيجي.. لقد كانت البداية بضرب المواقع النووية في الثمانينيات.. ولكن ما قامت به الولايات المتحدة هدية لنا.. ولا تنس أنها كانت فرصتنا الذهبية لاسترداد بعض القطع الأثرية الهامة من متحف بغداد.. تلك القطع ستعيد صياغة تاريخ المنطقة وتعيد سيطرتنا الثقافية عليها.

- وماذا عن جنوب لبنان؟ أعتقد أن الحدود هناك ليست مستقرة.

فصمت بن أهارون قليلاً ورد:

- لقد كانت ضربة موجعة لنا بعدما أجبرنا على الانسحاب في عام 2000 نتيجة ضربات حزب الله المتتالية، وكان من الصعب الاستمرار في هذا المستنقع وفقداننا العديد من أبنائنا الجنود.. لقد فقدنا منذ عام ١٩٨٢ وحتى الآن أكثر من ١٥٠٠ جندي، في الوقت الذي لم تعد ميليشات لبنان الجنوبية الموالية لنا في السيطرة على الوضع..

ولـم يعـد «لأنطـون لحـد» وأعوانـه أي قـوة تذكـر في مواجهـة حـزب الله.. ورغـم وجـود هـدوء حـذر هنـاك فإننـا قـادرون عـلى الـرد في أي لحظـة عـلى صواريـخ الكاتيوشـا الخاصـة بحـزب الله وحمايـة مسـتوطناتنا هنـاك.

- وهـل سيسـكت السـوريون عـلى ذلـك.. وخاصـة أن الجـولان مـا زالـت تحـت سـيطرتكم؟

- السـوريون لا يملكـون سـوى المفاوضـات، وهـي لـن تجـدي معنـا شيئًا.. فقـد فشـلوا في السـيطرة عليهـا خـلال حـرب يـوم كيبـور ودخلـوا معنـا في العديـد مـن المفاوضـات.. وبشـار الأسـد مثـل والـده، لا يجيـد سـوى الـكلام بصـوت عـالٍ والحديـث عـن الحـرب، بينمـا قواتـه لـن تتحـرك شـبرًا للأمـام.. ويجـب أن تعـرف أن تلـك الهضبـة هـي موقـع إسـتراتيجي خطـير لنـا.. فبمجـرد الوقـوف عـلى سـفح الهضبـة تسـتطيع تغطيـة الشـمال الـشرقي مـن إسرائيـل بالعـين المجـردة، وكذلـك الأراضي السـورية أيضًـا حـتى أطـراف العاصمـة دمشـق، ممـا جعلنـا نقيـم محطـات إنـذار عسـكرية في المواقـع الأكـثر ارتفاعًـا في شـمالي الهضبـة لمراقبـة تحـركات الجيـش السـوري.

فرد الدكتور ماكلين بانتباه:

- ولكن أكثر الأماكن خطورة هي الجنوب والحدود مع مصر.

- منـذ كامـب ديفيـد والوضـع مسـتقر نوعًـا مـا. حسـني مبـارك صديـق حميـم لنـا ونحـن نعـرف كيـف نسـتغله ونسـتميله إلينـا، كمـا أنـه كثـيرًا مـا يقـدم لنـا العديـد مـن الخدمـات الجليلـة مـن خـلال اسـتثمارات مشـاريع سـياحية في سـيناء وصفقـات تجاريـة، وهـو يعمـل عـلى تحويـل دفـة السياسـة المصريـة مـن أجلنـا.. فهـذا الرجـل كـنز لنـا بحـق.. كمـا أن الجيـش المـصري أصبـح متراخيًـا الآن.. فلـم يخـض أي حـروب منـذ أكـثر مـن 30 عامًـا.

فقاطعه الدكتور ماكلين قائلاً:

- ولكـن لا تنـس دور هـذا الجيـش في حـرب كيبـور.. رغـم سـباته العميـق طـوال سـت سنوات بعـد حـرب الأيـام السـتة.. اسـتطاع قـواده مـن اسـتعادة التنظيـم والانضبـاط والصحـوة مـرة أخـرى في حـرب أذهلـت العالـم كلـه.. لا يجـب أن تغفـل قـوة المصريـين العسـكرية إذا مـا انطلقـوا للحـرب.

فصمت بن أهارون وقال:

- عنـدك حـق.. يجـب أن نتوخـى الحـذر وكل الحـذر مـن المصريـين.. سـيناء ضاعـت في أقـل مـن 6 سـاعات بعدمـا كانـت بـين أيدينـا 6 سـنوات.

ثم نظر في ساعته وأكمل:

- الحديـث معـك متعـة لا تقـاوم دكتـور ماكلـين.. والآن أتـركك كي تسـتريح.

فنظـر إليـه الدكتـور ماكلين نظـرة عميقـة وهـو يغـادر المكتـب.. ومـا أن أغلـق بـن أهـارون البـاب خلفـه حـتى نقـر البـاب مـرة أخـرى.. فـأذن الدكتـور ماكلـين للطـارق بالدخـول.. كان الطـارق مصطفـى.. فدخـل بهـدوء ووقـف أمـام الدكتـور ماكلـين وقـال بصـوت هـادئ وملامـح متأثـرة:

- لقـد أتيـت الآن كي أعتـذر لـك عمـا بـدر مـني اليـوم.. أعـرف كيـف تنظـر لنـا.. ولكنـي جئـت كي أحـاول أن أغـيّر تلـك الصـورة.. مـا حـدث مـني اليـوم كان رغمًـا عـني فلـم أسـتطع الخـلاص مـن اسـتفزازات ديفيـد.. ولكنـي سـأحاول أن أضبـط نفسـي أمامـك كي أحسـن مـن صـورتي في عينيـك.

فصمت الدكتور ماكلين ثم رد قائلاً:

- رغـم أنـي لـم أتوقـع منـك هـذا الـرد، لكـني لـن أنكـر إعجـابي بـه.. يبـدو أنـي سـأحاول تغيـير فكـرتي عنـك.. لقـد سـمعت أنـك مـن الأوائـل

في هـذا القسـم رغـم العديـد مـن الصعـاب الـتي واجهتهـا هنـا.. ورغـم عـدم اقتناعـك بالمقـررات الدراسـية الـتي تدرسـها كمـا سـمعت وكمـا رأيـت.. ولكـن هـذا لا يمنـع مـن محاولـتي في إقناعـك تغيـير أفـكارك والـتي بدورهـا يمكـن أن تجعلـك تتقبـل وضعـك الحـالي.

فصمت مصطفى ثم قال:

- سـيدي.. مـا تتحـدث عنـه ليـس مجـرد أفـكار أو أيدولوجيـات يمكـن أن ندرسـها بـين جـدران تلـك الجامعـة أو نقرؤهـا في كتـب أو مراجـع.. يمكـن أن نتأثـر بهـا ونغيرهـا كلمـا ظهـر منهـا الأقـوى.. إنـه وازع الوطنيـة الـذي لـن يتغـير مهمـا طـال الزمـن ومهمـا تغـيرت الأفـكار.. إنـه مـا ولدنـا عليـه كديننـا وعقيدتنـا.. مهمـا تعلمـت وقـرأت ووصلـت لأعـلى الدرجـات فهـذا لـن يحـرك في إيمـاني بوطـني شـعرة.

فنظر له الدكتور ماكلين بعنين مبهورتين وعلق قائلاً:

- يبـدو أنـك عنيـد ومعتـد بأصلـك ووطنـك.. لكـن رغـم كل هـذا لمـاذا أتيـت لتـدرس هنـا بالجامعـة العبريـة وباللغـة العبريـة، والـتي أرى أنـك تجيدهـا بطلاقـة؟ ولمـاذا قـررت أن تـدرس التاريـخ الإسرائيـلي رغـم عـدم اعترافـك بـه؟

فرد بهدوء:

- لقـد فُـرض علينـا واقعًـا مريـرًا، يجـب علينـا أن نتقبلـه أو نرحـل مـن أمامـه.. لقـد فـرض علينـا الإسرائيليـون العُزلـة والجهـل، أو الانصهـار داخـل كيانهـم ومحـو هويتنـا العربيـة.. وكان يجـب علينـا مقاومتهـم بنفـس السـلاح.. لقـد جـاء الوقـت كي نعـرف ونفكـر مثلمـا يفكـرون.. ومـن أجـل أن أنفـع وطـني يجـب أن أتعلـم منهـم حـتى لـو كلفـني الأمـر الكثـير.

فـازدادت علامـات الإبهـار عـلى وجـه الدكتـور ماكلـين محـاولاً إخفائهـا.. ورد عليـه قائـلاً:

- يبـدو أنـي فعـلاً سـأغير وجهـة نظـري عنـك.. وأتمـنى أن تحافـظ عـلى مسـتواك الـدراسي.. فهـذا أهـم الآن مـن معتقداتـك وأفـكارك.

فابتسم مصطفى ونظر داخل عينيه ثم طلب الانصراف.

*****

جلس طلبـة قسـم التاريـخ داخـل كافتيريـا الكليـة الواسـعة في وقـت الاسـتراحة.. وكان ديفيـد متكئًـا عـلى الكـرسي يتزعـم الجلسـة بجانبـه دان وعومـير يتحـدث بصـوت عـالٍ، في حـين جلسـت مريـم أمامـه صامتـة تنظـر إليهـم شـذرًا دون أن تحـاول أن تـرد عليـه.. فأمسـك بكـوب زجاجي فـارغ وأخـذ يـضرب بـه عـلى الطاولـة بقـوة وقـال بصـوت غليـظ:

- يبدو أن الجامعة أصبحت مرتعًا للمهاجرين.

فردّ عومير بلكنة ساخرة:

- عندك حق.. السافارد من ناحية والعرب من ناحية أخرى.

- أنـا لا أعـرف كيـف تسـمح إدارة الجامعـة لمثـل تلـك النوعيـات في الانضمـام إلينـا.. ثـم مـاذا سـيفعلون بالشـهادة الـتي سـيحصلون عليهـا! إمـا أن يعملـوا في مـزارع «الكيبوتـس» أو موظفـين مـن الدرجـة الثالثـة.

فردت مريم باستخفاف:

- يجـب أن تعـرف ديفيـد أن مجتمـع إسرائيـل ليس آشـكيناز فحسـب.. إننـا نتكـون مـن أعـراق مختلفـة جئنـا مـن أماكـن مختلفـة لنتعايـش في مـكان واحـد، ويجـب أن نتعايـش بسـلام كي نسـتطيع الاسـتمرار عـلى تلـك الأرض.. كمـا لا تنـس أن الحكومـة الإسرائيليـة قـد اقتطعـت أراضي الفلسـطينيين وضمتهـا إليهـا بمـا فيهـا العـرب القائمـين عليهـا.

فقـام ديفيـد مـن مكانـه ونقـل كرسـيه بالقـرب منهـا نظـر إلى عينيهـا، وهـو يجتاحهمـا بقـوة، وأمسـك بيدهـا وقـال بصـوت هـادئ:

- خسـارة أنـك تؤمنـين بمثـل تلـك الخرافـات.. لـو جعلتـني اقـترب منـك أكـثر لعلّمتـك الكثـير مـن الأشـياء.

فنظـرت إليـه واكتـسى وجههـا بملامـح القـوة وسـحبت يدهـا مـن تحـت يـده قائلـة:

- لن أسمح لك بذلك أبدًا ديفيد.. وأنت تعرف أنني مرتبطة.

فرد بسخرية:

- بذلك العربي؟! إنك مخبولة.

فاحمـرّ وجههـا غضبًـا واشـتعلت بشرتهـا الخمريـة نـارًا وقامـت مـن مكانهـا كي تغـادر.. حـتى اقـترب شـاب مـن الطاولـة فنظـر إليـه الجميـع بانتبـاه.. وانقلـب وجـه ديفيـد ورفاقـه وعلـق دان بصـوت مهـزوز:

- يبدو أن من يؤيدك قد أتى يا مريم.

وقـف «دانيـال مزراحـي» أمـام الطاولـة حامـلاً حقيبـة عـلى ظهـره ويمسـك ببعـض اللافتـات والأوراق في إحـدى يديـه.. كان شـابًا ذا بـشرة خمريـة وشـعر بـني مجعـد.. ملامحـه شرقيـة تقـترب مـن ملامـح العـرب، حـتى أن البعـض يعتقـده مـن عـرب ٤٨، وهـو عضـو بـارز ومسـاهم في جماعـات السـلام المناهضـة للحـرب واليمـين المتطـرف.. مـا أن رأتـه مريـم حـتى انتبهـت وارتسـمت عـلى وجههـا ملامـح الهـدوء ووقفـت أمامـه.. فنظـر إليهـم قائـلاً:

- شالوم يا شباب.

فردت مريم:

- كيف حالك؟ وكيف حال قسم الصحافة؟

- أنـتِ تعلمـين مـدى صعوبـة الدراسـة، فوقـتي مشـتت بـين قسـم الصحافـة والتدريـب بالجريـدة وعمـلي التطوعـي.

فرد ديفيد بسخرية:

- ويا هل ترى ماذا ستكتب لنا هذا الأسبوع أيها المناضل؟

فنظر إليه دانيال ورد بهدوء:

- أيًـا كان.. سـيكون في صالــح النــاس ومــن أجــل حيــاة آمنــة دون اضطرابــات.

ثم تحول إلى مريم وقال لها:

- قبـل أن أنـسى.. بعــد غــد سـوف تنظـم جماعــة «السـلام الآن» مسيرة سلمية أمام مبنى الكليـة مـن أجـل مـا حـدث مـن قـوات الجيـش ضـد سـكان المخيمـات.. أتمـنى أن تنضمـين إلينـا أنـت ومصطفـى.

فوقف ديفيد مقاطعًا وقال بصوت حاد:

- ألا تخجـل مـن نفسـك؟! كيـف تكـون إسرائيليًـا وتضـع يـدك في يـد هـؤلاء العـرب؟ بـل وتدافـع عنهـم!

فصمت دانيال قليلاً ونظر إليه بعمق قائلاً:

- عزيــزي ديفيــد.. هــؤلاء يحتاجــون إلى السـلام كمـا نحــن نحتــاج إليـه.. وهـذا لـن يـأتي إلا إذا وضعنـا أيدينـا في أيـد بعضنا بعـض.. حينهـا سـنعش جميعنـا في أمـن حقيقـي سـيتحقق أكـثر مما أنـت تؤمـن بـه مـن القمـع والتعذيـب.. كمـا أنـك أنـت نفسـك تحتـاج إلى تحقيـق السـلام الداخـلي مـع نفسـك قبـل أن تحققـه مـع مـن حولـك.. شـالوم.

فنظـر إليـه ديفيـد وهـو يرحـل والـدم يغـلي في عروقـه، حـتى كادت رأسـه تنفجـر وألقـى الكـوب مـن يـده عـلى الأرض بغِـلّ حـتى انشـطر إلى مئـات الشـظايا.. وأخـذ يـصرخ بصوتـه الأجـش:

- هـذا الملعـون.. كيـف يتجـرأ ويخاطبـني بهـذه الطريقـة.. يجـب أن أنتقـم منـه وأقـضي عليـه نهائيًـا.

فأمسكه دان من ذراعه وهو يحاول تهدئته قائلاً:

- اهـدأ يـا ديفيـد.. يجـب أن نفكـر في القضـاء عليـه بحكمـة أكـثر مـن ذلـك.. سـيأتي دوره لا محالـة.

فـرد ديفيـد وهـو يراقـب دانيـال وهـو يرحـل مـن بوابـة الكليـة بعينـين

مشتعلتين كعيني الصقر:

- لن تفلت مني أبدًا.. ما أن أصل إليك حتى أشعل نار غضبي فيك وأجعلك تندم على اليوم الذي دخلت فيه الجامعة العبرية.. بل دخلت فيه إسرائيل.

داخل مقر جريدة «جيروزاليم بوست» بوسط القدس.. ذلك المبنى الضخم ذو الطوابق العشرة والذي يضم المئات من الصحفيين والمحررين الذين حالفهم الحظ في العمل في واحدة من أكبر وأقدم الجرائد اليومية والأوسع انتشارًا في إسرائيل.. هرع دانيال وهو يحمل حقيبته إلى صالة التحرير بقسم السياسة، وهي قاعة مفتوحة تضم مكاتب العديد من الصحفيين الشباب والكبار.. ورغم أنه في مرحلة الدراسات العليا من دراسة الإعلام.. إلا أن ولع دانيال بالصحافة والإعلام جعله يسلك طريق الصحافة منذ أن كان في المدرسة.. وبدأ حياته مراسلاً في جرائد صغيرة مثل جريدة «كل العرب» الناطقة بالعربية، والتي توجّه نقدًا لاذعًا لسياسات إسرائيل والولايات المتحدة.. وجريدة «كول هاعير» الأسبوعية التي تصدر فقط في القدس.. فكان يدخل حواري العرب وأسواقهم وبيوتهم ويعرف مشاكلهم، حتى أنه أتقن العربية بطلاقة ودخل في صداقة مع عائلات فلسطينية عديدة.. اقترب من مكتبه بين زملائه وهم منكبّون على مكاتبهم بين من يكتب مقالاً ومن يرسم كاريكاتير.. فقامت فتاة من مكتبها وقالت له بملامح مضطربة:

- لقد تأخرت كثيرًا.. «آدون كاتساف» كان يسأل عليك بإلحاح وهو في قمة الغضب.

فرد دانيال بهدوء:

- أنا أعرف لماذا!

- ألن تكف عن كتابة تلك المقالات التي تزعجه؟!

فنظر إليها وقال بصوت رصين وملامح واثقة:

- هـذا مـا أؤمـن بـه.. أتمـنى أن يؤمـن هـو الآخـر بوجهـة نظـري.. وسـأظل أكتـب وأكتـب حـتى آخـر يـوم في حيـاتي.

- أخشى عليك مما تكتبه.. إنك تطلق نيرانًا من سن قلمك.

- ما أن وضعت قلمي على الورق.. فلا يجب أن أخشى شيئًا.

وفجـأة انفتـح بـاب مكتـب رئيـس القسـم وخـرج كاتسـاف وهـو في قمـة الغضـب يحمـل أوراقًـا في يديـه.. ومـا أن رأى دانيـال حـتى صرخ في وجـه قائـلاً:

- أريدك في مكتبي الآن.

فدخـل دانيـال في هـدوء شـديد وعـلى وجهـه ابتسـامته إلى مكتبـه الزجاجـي في نهايـة الصالـة والـذي يراقـب منـه كاتسـاف كل مـا يـدور بالجريـدة، بينمـا جلس كاتسـاف عـلى مكتبـه وأخـذ يلـوح بـالأوراق الـتي يحملهـا في يـده وقـال بصـوت عـالٍ:

- مـا هـذا الـكلام الـذي تكتبـه.. لقـد نسـيت أنـك تتـدرب في واحـدة مـن أكـبر صحـف إسرائيـل.. صحيفـة تصـف سياسـة الدولـة وخطوطهـا العريضـة.. كيـف تؤيـد العـرب علانيـة في مقالـة وتريدنـا أن نتوقـف عـن محاربتهـم.

- سـيدي.. صدقـني إن تعاملنـا مـع العـرب بسـلام لـن يهاجموننـا كمـا يعتقـد البعـض.. ولكـن كل مـا يحـدث مـن حمـلات اعتقـال وتصفيـة تزيـد الأمـر اشـتعالاً.. وهـذا مـا سـينعكس علينـا جميعًـا.

فاحمرّ وجه كاتساف ورد بقوة:

- إنـك تهاجـم سياسـة الدولـة.. تريـد أن تحـرك الوطـن كمـا تريـد.. يبـدو أنـك تريـد أن تـضر نفسـك وتضرنـا معـك.. وأنـا لـن أسـمح بذلـك.. إذا أردت أن تذهـب للنـار فاذهـب وحـدك ولكـن لا تأخذنـا معـك.

- أنــا لا أريــد إثــارة المشــاكل.. ولكــن كل مــا أريــده أن أرى الوطــن يعيــش في ســلام.

فقاطعه كاتساف بعد أن هدأت ثورته وقال بصوت هادئ:

- اسـمع دانيـال.. أنـت تعـرف كـم أنـا معجـب بنبوغـك وموهبتـك الصحفيــة.. شــاب في عمــرك لا يمكــن أن يتــدرب في جريــدة كبــيرة وفي قسـم السياسـة إلا إذا كان فـذًّا مثلـك.. لكـن نصيحـتي لـك أن تتوخـى الحـذر.. أنـت تعيـش في مجتمـع مركـب يحكمـه فكـر عسـكري، لا يسـمح بـأي أفـكار مناهضـة لـه، وإلا هـدد كيانـه وكيـان الدولـة كلهـا.. صدقـني مـا تكتبـه لـن يـضر بـك هنـا في الجريـدة فحسـب ولكـن في حياتـك أيضًـا.. إن كنـت أحدّثـك هكـذا.. فلأنـني أعـتز بـك.. ولكـن هنـاك مـن لـن يرحمـوك في هـذا البلـد.

فنظر إليه دانيال نظرة عميقة وقال بهدوء:

- لا تقلـق سـيدي.. لقـد سـلكت طريقًـا أعـرف مـدى صعوبته وأشـواكه الـتي تتناثـر عليـه.. لكنـني مُـصرّ في المُـضيّ فيـه.. أعـرف أن هنـاك مـن يتربـص بي ويحـاول إيقـافي، ولكنـني لـن أيـأس، وسـأظل أقـاوم مـن أجـل حمايـة الوطـن كي أراه كمـا أريـد.

خــرج دانيــال مــن مكتــب رئيــس التحريــر، وارتســمت عــلى وجهــه ملامـح القلـق؛ حـاول إخفاءهـا.. وجلـس عـلى مكتبـه والتفكـير يحـوم بعقلـه.. حـتى أنـه لـم يشـعر بزميلـه «جلعـاد» رسـام الكاريكاتـير وهـو يقـترب منـه.. ذلـك البديـن المـرح الـذي يثـير جـو البهجـة في القسـم وسـوماته تغطـي جـدران الصالـة.. جلعـاد ودانيـال ثنـائي يسـاري، دائمًـا مـا تتـلاقى أفكارهمـا حـول السـلام.. فالكلمـة والصـورة هـي سـلاحهما، ففــي مواجهــة التطــرف والظلاميــة تــشرق كلمــات دانيــال اللاذعــة ورســومات جلعــاد الحــادة.

اقترب منه جلعاد وربت بيده على كتفه قائلاً:

- لـم أعتـد عليـك هكـذا.. لا تجعـل كلام هـذا الرجـل المزجـع يؤثـر فيـك.

فضحـك دانيـال ثـم أخـرج جلعـاد مجموعـة رسـومات مـن حافظتـه قائـلاً:

- مـا رأيـك في تلـك الرسـومات؟! بالأمـس رفضهـا ناحـوم بـدون أي أسـباب.

فمسـكها دانيـال يتفحصهـا بعينـين فاحصتـين، ليتأمـل الخطـوط والألـوان وشـخصيات جلعـاد الكرتونيـة الـتي تعلـق بهـا النـاس، حـتى وقـع نظـره عـلى رسـمة قويـة تمثـل طفـلاً فلسـطينيًا يلعـب بكـرة ويركلهـا لطفـل إسرائيـلي لـيرد عليـه بقنبلـة.. فوضعهـا دانيـال عـلى مكتبـه وقـال:

- سـوف أخـذ تلـك الرسـمة وأنشرهـا بطريقـتي.. العالـم كلـه يجـب أن يـرى إبداعـك جلعـاد.. حـتى وإن طبعتهـا ووزعتهـا عـلى الطلبـة في الجامعـة.. المهـم ألا تتوقـف عـن الرسـم يـا صديقـي.

فرد جلعاد ممسكًا ببطنه:

- ولكـن قبـل أن أرسـم يجـب أن نـأكل.. فالإبـداع يحتـاج إلى غـذاء يـا صديقـي.

فضحك دانيال وقال:

- لا تقلق.. انا الذي سأدفع الحساب.

*****

كان البـار مزدحمًـا بالسـاهرين الذيـن علـت أصـوات ضحكاتهـم، والبعـض منهـم يلعـب القمـار، بينمـا يحتـسي البعـض الآخـر الخمـر وهـم يتبادلـون الحديـث.. دخـل بـن أهـارون بـين الزحـام وكأنـه يبحـث عـن شـخص مـا، حـتى اقـترب مـن البـار ونقـر على ظهـر أحـد الجالسـين..

فاستدار له وهو يمسك بكأس الفودكا.. فقال له بن أهارون:

- ها قد عثرت عليك إبرام.. أنا لم أر البار مزدحمًا هكذا من قبل.

- أنت تعرف زحام ليلة «الشبات» البار هو المكان الوحيد الذي يلتقي فيه الناس بعد أشغالهم.

فجلس بن أهارون بجوار إبرام وطلب كأسًا من الفودكا.. فمال عليه إبرام قائلاً بصوت خافت:

- وما أخبار صاحبنا؟ أراه وقد اندمج في حياة الجامعة.

فابتسم بن أهارون ابتسامة صفراء ورد:

- ليس فقط الجامعة.. بل في الحياة العامة أيضًا.. لم يبق له سوى أسبوع وبدأ يجمع حوله المعجبين والمعجبات.. شخصية ماكلين ذات جاذبية بلا حدود.. إنه يمتلك قدرة خرافية على الإقناع مهما كان مَن أمامه.

- لذلك كان يجب على شخص مثل هذا أن يعمل معنا.. مهما كلفنا الأمر.. يجب أن يكون بوقًا للصهيونية على مستوى العالم.

- يجب أن تعلم أن ماكلين ليس مجرد أستاذ عادي بالجامعة.. إنه يكتب في العديد من الصحف والمجلات العلمية العالمية وشهرته ذائعة في كل جامعات العالم.. كما أن آراءه السياسية لها صدى كبير بالأوساط العلمية والسياسية.

فرد إبرام بقوة:

- ولكن يجب علينا نحن ألا نتركه يحركنا بذكائه الحاد.. القيادة الأمنية مهتمة جدًا بأمره.. هذا الرجل إما أن يكون كنز إسرائيل أو باب الجحيم عليها.. لذلك يجب أن نسيطر عليه.

فرد بن أهارون قائلاً:

- لا تقلق.. أسلوب الدراسة بالقسم والتيار اليميني السائد به

لـن يعطيانـه الفرصـة كي يفـرض مـا لا نرغبـه.. هـذا بالإضافـة إلى أننـا شـكّلنا لـه مناخًـا جيـدًا للاسـتفادة منـه والتأثـير عليـه.. إنـه عبقـري في مادتـه، وسـيُبهر الطلبـة بأسـلوبه العلمـي وسـيثبت في أذهانهـم مبـادئ الصهيونيـة والـولاء لأرض الميعـاد والدفـاع عنهـا.

فاعتدل إبرام في جلسته وقال بثقة:

- على العموم لقد جهزت له مفاجأة.. لا أعتقد أنه سيقاومها.

فانتبه له بن أهارون ورد قائلاً:

- أعرفها.. ولكن أتعتقد أنها ستجدي مع رجل مثل ماكلين.

فلمعت عينا إبرام وضحك بخبث قائلاً:

- لا أعتقـد أن هنـاك رجـلاً يمكـن أن يقـاوم تلـك المفاجـأة أيًّا كان.. حـتى لـو كان ماكلـين نفسـه.

فضحك كلاهما ورفع إبرام كأسه قائلاً باستهزاء:

- والآن نشرب نخب ماكلين والمفاجأة.

*****

غصن الزيتون

بعد ساعة من الطريق الطويل الشاق، وصلت مريم إلى منزلها في مستوطنة «هارحوما» جنوب شرق القدس، لتقضي مع أهلها عطلة نهاية الأسبوع والتي تبدأ مع غروب شمس يوم الجمعة.. تلك المستوطنة الكبيرة القائمة على جبل أبو غنيم التي بنيت كامتداد للقدس، والمحاطة بالأشجار وأغصان الزيتون، تعانقها الأسوار العالية والأسلاك الشائكة.

وتعني كلمة «هارحوما» جبل الجدار، نسبة إلى بقايا جدار كنيسة بيزنطية أقيمت في نفس المكان.

وسارت مريم عبر طريق جبلي مرتفع داخل المستوطنة، بين المباني البيضاء ذات الشكل الموحد، والتي لا تتعدي ثلاثة طوابق، حتى وصلت إلى منزلها في نهاية المستوطنة.

وما أن وصلت إلى منزلها البسيط حتى ارتمت على الكرسي المجاور للباب وقذفت حقيبتها بعيدًا، بعد أن ظهرت عليها ملامح التعب والضيق.. وكانت أمها في المطبخ المعلق به ثمار الثوم وأوانٍ فخارية تحضّر الغداء، مرتدية مريلة المطبخ على ملابسها اليهودية التقليدية، وتغطي شعرها بغطاء الرأس يظهر من أسفله شعرات حمراء.. بدينة الجسم والوجه، ذات عينين جاحظتين وأنف كبير ذي نهاية مستديرة. تملأ يديها وملابسها رائحة الطبخ، بينما كان إخوتها الصغار يلعبون بالمطبخ وهي تنهرهم.. فصاحت من الداخل:

- ها قد أتيتِ.. كنت أعتقد أنك ستقضين عطلة هذا الأسبوع في أورشليم.

فصاحت بصوت مرتعش:
- ألا تريدوا أن تروني؟
- بالعكس.. ولكن اليوم قد ظهرت عليك ملامح التعب والإرهاق.
فردت مريم بقوة:
- لقد مللت من الحياة هنا.. كل شيء هنا كئيب ومقبض.. المساكن عبارة عن كتل خرسانية كأننا في سجن.. الكل هنا يراقب بعضه ويخاف من بعضه.. ليتني بقيت في أورشليم.
فردت الأم قائلة:
- ولكن تلك هي حياتنا التي لن نستطيع أن نغيّرها.. لقد جئنا إسرائيل ولم تحتوِ جيوبنا سوى على الفتات.. لولا أبوك وعلاقاته هي التي جعلتنا في هذا المستوى.. ثم لا تنسي أنك تعيشين في أفخم مستوطنة وأجمل مجمع سكني بها.
- وأين هو الآن؟ أكيد يقوم بعض أعمال السمسرة.
لم تنه مريم كلماتها حتى خرج الأب «يعقوب عازار»، ومعه مجموعة من الأوراق ورزمة من الدولارات الأمريكية والشيكلات الإسرائيلية.. وكان قصير القامة ذا وجه تملؤه التجاعيد، وعينين ضيقين تظهران بالكاد خلف نظارة صغيرة، وبشرة شاحبة ورأس أصلع، تغطيه الطاقية اليهودية. له جبهة بارزة للأمام تظهر بها عروقه أسفلها.. فاقترب منهما ورد بصوته الأخنف:
- لقد سمعت كل ما قلتِه أنت وأمك الثرثارة.. ولكن حسنًا ما فعلتِ أنك جئتِ إلى هنا.. لقد أصبحت الأسعار في أورشليم باهظة ولا يمكن لأحد أن يقطن فيها أو حتى يتسوق.. وأنا أرجّح لك أن توفري مالك وتقضي عطلة الأسبوع دائمًا معنا هنا في «هارحوما».
فردت الأم قائلة:
- يعقوب.. اترك البنت كي تعش عمرها.. لا تكبتها هكذا لمجرد

رغبتك في التوفير.

فنظر إليها الأب شذرًا ورد قائلاً:

- جولدا.. يجب أن تتعلم الفتاة التوفير.. الأيام القادمة صعبة.. وكما ترين كم نشقى كي نحصل على المال! لقد تعبت طويلاً كي أتمم تلك الصفقة من ذلك الرجل العربي الجشع.. لقد أرهقني كي يبيع الأرض بهذا السعر.

فردت الأم قائلة:

- أنا أعرف أن زوجي أشطر سمسار في أورشليم وضواحيها.. وهذا لا يحتاج إلى تأكيد.. ولكن نريد أن نرى نتيجة سريعة لتلك الصفقات.

ثم استدارت إلى مريم قائلة:

- بالمناسبة.. أرأيت ماذا حدث أثناء غيابك في أروشاليم؟! لقد عادت تلك المرأة المزعجة التي تسكن فوقنا التي تدعى «أوديت» من السفر، وعادت إلى عادتها السخيفة في نشر ملابسها المبتلة هي وزوجها فوق ملابسنا.. يكفي منظر ملابسهما الداخلية الواسعة لتعرفي أنها عائلة من العجول وليس البشر.. سيأتي اليوم الذي سأضرب تلك المرأة حتى أجعلها ترحل من هنا.. كما أني رأيت ابنها الأبله «بنيامين» وهو يعبث في حديقة المنزل فجريت خلفه بالعصا ولكنه هرب مني. ثم أنه...

فنظرت إليهما مريم بعينين أصابهما الضيق، ولم تحتمل ثرثرة أمها، فأمسكت برأسها من الصداع وتركتهما لتدخل حجرتها.

فسألتها الأم:

- إلى أين أنت ذاهبة.. إنني لم أكمل لك بقية الأخبار!

فردت مريم وقد زاد عليها التعب:

- أنا ذاهبة لأنام؛ لم أعد أحتمل.

- ولكنني أعددت لك طبق الباستا التي تحبينها.

فنظرت إليها وأكملت طريقها إلى الغرفة قائلة:

- سآكله عندما أستيقظ.

دخلت مريم حجرتها وأغلقت الباب بقوة واستندت بظهرها عليه، ودموعها تسيل من عينيها، وارتسم على ملامحها الضيق والألم.. أخذت تحملق في صورة معلّقة على جدار الحجرة لشاب بالزي العسكري لسلاح الطيران.. فاقتربت منها وأخذت تخاطبها بصوت ضعيف مخنوق:

- «أخي موشي.. لقد اشتقت إليك كثيرًا.. لماذا رحلت وتركتني؟! أنت الوحيد في هذا البيت الذي يفهمني ويشعر بي وبآلامي.. لقد ضقت ذرعًا من هذا المكان ولم أعد أحتمل الحياة هنا.. الكل يكذب ويغش ويتلصص على غيره.. لم أعد أشعر بالراحة والأمان ولا يوجد أحد بجواري سوى أب عاشق للمال والتجارة، وأم لا تعرف شيئًا سوى المطبخ وأخبار الجيران.. الحياة من دونك كئيبة وسوداء.. متى ستنتهي خدمتك بالجيش وتعود! إنني أحتاج إليك الآن أكثر من أي وقت».

ثم خرجت لغسل يديها للوضوء من أجل الصلاة، وأخذت شالاً حريريًا ذا أهداب طويلة وارتدته على رأسها ولفته على كتفها، وأمسكت بكتاب المزامير واتجهت ناحية القدس لتصلي.. فأخذت ترتل بصوت مرتعش وجسدها كله يهتز وعيناها مليئتان بالدموع، قائلة:

- «امنحني إلوهيم آذانك كي تسمع كلماتي وتبارك صلواتي.. انصت إلى بكائي وأنا أتعبد إليك.. فإنك تكره الكاذبين والظلَمة وتمقت الملطخة أيديهم بالدماء.. أما أنا فسأدخل بيتك وأسجد عند أعتاب معبدك المقدس.. ارشدني إلوهيم للطريق الصحيح.. لأن أعدائي قلوبهم حاقدة وألسنتهم جرداء.. وحناجرهم قبور مفتوحة.. دنهم

ليسقطوا من مؤامراتهم بكثرة ذنوبهم.. ويفرح جميع المتكلين عليك ويبتهج بك محبو اسمك.. آمين».

*****

نزل يعقوب من منزله قاصدًا القدس، فذهب إلى مقهى عربي مزدحم يجلس فيه العديد من التجار والعمال، تتعالى فيه أصواتهم رغم «صوت العرب» الخارج من الراديو القديم.. بعضهم يلعبون الطاولة والبعض يدخن النارجيلة مصحوبة بالشاي بالنعناع أو القهوة العربي.. جلس يعقوب في ركن بعيد بالمقهى بعد أن طلب هو الآخر شايًا بالنعناع، وهو ممسك بحقيبة بكلتي يديه وكأن المال بداخلها كائن حي يمكن أن يفر منه.. وعلى وجهه ملامح الترقب حتى وجده ضالته.. دخل إلى القهوة رجلان أحدهما يرتدي الزي الفلسطيني التقليدي، حيث الجلباب الرمادي ويلف على خصره حزامًا وعلى رأسه عقالاً أبيض والشال الفلسطيني على كتفه، والآخر يرتدي قميصًا وبنطلونًا، وكلاهما في منتصف الخمسينيات من العمر.. دخلا كلاهما القهوة وهما في شدة الاضطراب والقلق يبحثان بعينيهما عن شخص تأخرا عليه، حتى وجدا يعقوب فهرعا إليه، بينما ظهرت عليه بوادر التذمر وقال بصوته الأخنف للرجل ذي القميص والبنطلون:

- لقد تأخرت يا ناصر.. كل هذا من وقتك.

فرد ناصر:

- أنت تعرف الطرق في القدس وقت الذروة يا يعقوب.. كما أن الحاج أبو عمار عطلني هو الآخر.

فنظر إليه يعقوب.. فرد أبو عمار بتلجلج:

- لا أبدًا يا ناصر.. لقد كنت أبحث عن عقود الأرض.. وها قد

وجدتهـا.

فرد عليه يعقوب:

- خير ما فعلت يا أبو عمار.

ثم أكمل بصوت خافت:

- المهم أن تكون جاهزًا كي نتمم صفقة بيع أرضك.

- أنـا فعـلاً أحتـاج للمـال؛ كل مـن حـولي باعـوا أراضيهـم ورأيتهـم قـد أصبحـوا أغنيـاء في وقـت قصـير.

فنظر إليه يعقوب من تحت النظارة وضحك بخبث ورد:

- لا تقلـق يـا أبـو عمـار.. فأغلـب الأراضي المحيطـة بالقـدس تـم بيعهـا بواسـطتي.

فتنفس أبو عمار الصعداء وهدأت أساريره ورد عليه ناصر:

- ألـم أقـل لـك يعقـوب عـازار هـو أفضـل سمسـار في ضواحـي القـدس.

فأخذ يعقوب رشفة من الشاي وأكمل:

- ولكـن مـا أعرفـه أن أرضـك ليسـت متاخمـة للمسـتوطنات مثـل بـاقي الأراضي.. لكـن هنـاك شركـة فرنسـية تريـد عمـل مـشروع مصنـع أغذيـة عليهـا.

فانتفض أبو عمار من مكانه وقال بلهفة:

- وكم ستدفع؟

أخذ يعقوب رشفة أخرى وقال:

- امممـم.. هـذا مـا سـوف تحـدده الشركـة.. ولا تنـس عمولـتي في البيعـة ليـس أقـل مـن ١٥٪..

فارتسمت ملامح الفزع على وجه أبو عمار ورد:

- ولكن ١٥٪ كثير يا يعقوب.

- انـت لا تعـرف كـم سـتدفع الشركـة لي.. وهـذه شروطـي، وكل

عمـلائي يعرفونهـا يـا أبـو عمـار.

فنغزه ناصر في كتفه وقال له بصوت خافت:

- إنها فرصتنا يا أبو عمار.. يجب أن توافق.

قام يعقوب من مكانه وقال:

- عنـدي موعـد آخـر.. الأسـبوع القـادم في مكتـبي تـأتي ومعـك العقـد، فالشركـة لـن تنتظـر كثـيرًا يـا أبـو عمـار.

*****

بعـد أن غربـت الشـمس.. بـدأ الظـلام يلامـس أرض المسـتوطنة والهـدوء يمـلأ أركانهـا.. نزلـت مريـم مرتديـة شـالاً أخـضر بعـد أن شـعرت بالضيـق في منزلهـا، وأخـذت تتمـشى بـين الأشـجار وهـي تستنشـق نسـيم الغـروب بـين التـلال.. ودون أن تـدري أخذتهـا قدماهـا بعيـدًا وهـي تنظر إلى السـماء والأفـكار تحـوط بعقلهـا.. حـتى صعـدت إلى قمة التـل.. وفجأة سـمعت صـوت حفيـف خلفهـا بـين أوراق الشـجر.. فاسـتدارت منزعجـة وأخـذت تحملـق فيمـا حولهـا.. لكنهـا لـم تـر شـيئًا وأكملـت سـيرها.. ثـم سـمعت نفـس الصـوت يقـترب منهـا.. فتوقفـت واكتـسى وجههـا بالقلـق والتفتـت حولهـا بقـوة ثـم اسـتدارت كي تعـود.. ولكـن فجـأة خرجـت يـد بـين الأشـجار وجذبـت الشـال بقـوة.. فصرخـت مريـم وكادت أن تسـقط عـلى الأرض حـتى خـرج شـخص مـن بـين الشـجر وأمسـك بفمهـا بقـوة ونظـر إليهـا بعينـين حمراويـن.. فنظـرت إليـه بدهشـة وأبعـدت يـده وقالـت لـه بعنـف:

- عساف! ماذا دهاك؟! ماذا تفعل هنا؟!

فرد عليها بصوت مهزوز:

- لقد مكثت هنا طوال الوقت كي أراك.. وها قد أتيتي كما أردت.

فنظرت له بقوة وقالت:

- يبدو أنك ثمل ولا تعي ما أنت عليه.. أو ربما تتعاطى تلك السموم التي أنت معتاد عليها.

- أيًا كان.. لكن تلك المرة لن أدعك تفلتين من بين يدي.

فصرخت في وجهه قائلة:

- أنت مجنون.. أنت فعلاً لست بوعيك.

فضحك عساف قائلاً:

- إذا كنت تعتقدين أنني لن أستطع أن أصل إليك، فإنك تحلمين.. أنت ملكي ولن تكوني لأحد غيري.

فأمسكت بيده وأبعدتها عنها وابتعدت مذعورة وقالت:

- اغرب عن وجهي الآن وإلا صرخت بصوت عالٍ وطلبت لك الشرطة.

فنظر إليها بعنين حمراوين يملؤهما التحدي وقال:

- أنا سوف أتركك الآن.. ولكن أعدك بأنني لن أستسلم أبدًا.. أبدًا.

فلملمت مريم شالها وركضت مذعورة بعيدًا حتى اختفت.. بينما خرج بين الأشجار شخص آخر بملابس رثة ووجه شاحب يعتليه ملامح بلهاء وعينين ثملتين، وأخذ يترنح بين أفرع الشجر حتى وصل إلى عساف.. فقال له بصوت مهزوز ولسان ثقيل:

- ماذا حدث.. هل خاطبتها؟!

- بلى.. ورحلت الآن.

- إذن اتركها وتعال لنكمل سهرتنا.

- لن يهدأ لي بال إلا بعد أن أسيطر عليها وأملكها بين يدي.. أنت تعرف يا نعوم أنني إذا صممت على شيء لا أتركه.

فرد عليه نعوم ببلاهة:

- لكنك تعرف كم هي مغرورة وترى جميع شباب المستوطنة دون مستواها.

- وأبوها الجشع يعقوب يسير بين الناس يتغنى بها وكأن ليس لها مثيل.. فمنذ أن دخلت الجامعة العبرية وأكملت دراساتها العليا بها وهي ترى نفسها فوق الجميع.

فأمسك نعوم بيده وجذبه باتجاه التل قائلاً:

- أيًا كان.. دعك من هذا الهراء.. وتعال نعود إلى البار كي تغير مزاجك ونكمل الليلة السعيدة.

فرد بهدوء وعينه على طريق منزل مريم قائلاً:

- معك حق.. هيا بنا.

سار كل من عساف ونعوم بأعلى التل حتى وصلا إلى مكان مهجور بعيد عن العمران، بآخره ملهى مليء بالشباب الثمل وفتيات الليل الرخيصات، البعض منهم يرقص والبعض الآخر يحتسي الخمر أو يتعاطى حقن المخدرات وهم في حالة إعياء شديد.. فدخلا وسط الشباب حتى وصلا إلى البار.. فأحضر نعوم كأسين من النبيذ الرخيص وأعطى إحداهما لعساف قائلاً:

- أنا لا أعرف سبب تمسكك بتلك الفتاة المتعالية المغرورة.. منذ البداية وهي تنبذك ولا تهتم بك.. رغم ذلك أراك مُصرًّا عليها بشدة.. رغم أنك محاط بالعديد من الفتيات الجميلات المثيرات مثل سارة وراهيل.

- قلت لك سابقًا.. تلك الفتاة تمثل لي تحديًا كبيرًا.. إنها تتحداني وتستفز مشاعري.. إنها نوع آخر من الفتيات يحسب نفسه فوق بقية البشر ولا يستحق أحد أن يفوز بها.. لكنني مُصر على خوض التحدي ولن تكون مريم لأحد غيري.

فابتسم نعوم ابتسامة بلهاء وظهر على ملامحه تأثير الخمر

المغشـوش ورد قائـلاً:

- أتحبها عساف؟!

فرد عساف بغيظ شديد:

- قلـت لـك أيهـا الأبلـه إنـه ليـس حبًـا.. ولكنهـا رغبـة في السـيطرة والانتقـام.. رغبـة كي أثبـت لنفسي ولهـا أنـني لسـت أقـل منهـا شـأنًا لكوني فقـيرًا أو عاطـلاً.. بـل أنـني سأسـيطر عليهـا وأذلّهـا رغـم ثرائهـا وتعلمهـا.

لـم يمـض الوقـت عـلى المناقشـة السـاخنة بينهمـا.. حـتى دخـل الملهـى فتاتـان مفعمتـان بالأنوثـة ترتديـان ملابـس قصـيرة سـاخنة واقتربتـا مـن البـار.. فوقـف نعـوم يحقـق فيهمـا بعينيـه الضيقتـين، فارتسـمت عـلى وجهـه ملامـح السـعادة ثـم عـلا بصوتـه قائـلاً:

- ها قد قدمتا.. سارة وراهيل.. ليتكما أتيتما مبكرًا.

ثـم لـف نعـوم ذراعـه حـول خـصر راهيـل ذات البـشرة السـمراء المثـيرة والعينـين العسـليتين والصـدر الممتـلئ الرجـراج قائـلاً:

- مـا رأيـك في أن نرقـص معًـا.. أو نقـضي الليلـة معًـا بالأعـلى؟ سـوف تريـن مـني مـا لـن يـأتي ببالـك أبـدًا.

فضحكت ضحكة عالية تملؤها الأنوثة.. وردت قائلة:

- أنت شقي نعوم.. أحب هذا النوع من الرجال.

ثـم اقتربـت سـارة مـن عسـاف.. تلـك الفتـاة الشـقراء الـتي تضـع ماكياجًـا كثيفًـا عـلى وجههـا وحلقًـا ذهبيًـا في أنفهـا ووشـمًا عـلى شـكل قلـب عـلى ذراعهـا اليمـنى.. والتقطـت السـيجارة الـتي قـد أشـعلها قائلـة:

- ماذا بك؟ تبدو متجهمًا الليلة.. أهناك شيء ما يضايقك؟

فرد بوجه مليء بالضيق وهو متأفف:

- لا شيء.

- غـير صحيـح.. إنـك عـلى هـذه الحـال منـذ مـدة.. وأنـا ألاحـظ ذلـك ولا أتكلـم.. أهنـاك فتـاة أخـرى في حياتـك؟

فالتف إليها بقوة أخذ سيجارته قائلاً بغضب:

- قلـت لـك لا شيء.. فقـط أعـاني مـن بعـض الضغـوط.. سـارة لا أريـدك أن تضغطـي عـليّ أكـثر مـن ذلـك.

فأخـذت حقيبتهـا وقامـت مـن مكانهـا بعـد أن اكتسـت وجههـا ملامـح الغضب:

- حسـنًا.. أنـا سـوف أرحـل الآن.. وعندمـا تعـود إلى حالتـك الطبيعيـة يمكـن أن تكلمـني عـلى الهاتـف.. أعتقـد أن رقمـي مـا زال معـك.

فنظـر إليهـا عسـاف وهـي تخـرج مـن الملهـى حـتى اختفـت.. فأخـذ كأس النبيـذ وشربـه مـرة واحـدة وقـال في سره:

- سـيأتي اليـوم الـذي سـأحصل فيـه عـلى كل مـا أريـد.. حينهـا سـأتخلص مـن كل هـذه الأشـياء المزعجـة وأسـتطيع أن أنتقـم مـن الجميـع.

*****

سـار مصطفى بـين النـاس بشـارع سـوق القطانـين بالمدينـة القديمـة بالقـدس الشرقيـة، تلـك السـوق المليئـة بالدكاكـين والمحـلات القديمـة، حيـث تتعـالي أصـوات الباعـة وتزدحـم بالمـارة وهـو يحمـل بعـض الأغـراض المنزليـة حـتى وصـل إلى مسـكنه العتيـق عنـد طـرف الشـارع، حيـث يسـكن في مـنزل متهالـك تظهـر بواجهتـه شـبابيك خشـبية عثمانيـة الطـراز مـن بيـوت القـدس العتيقـة الـتي أصبحـت مهـددة بالانقـراض.. وصعـد إلى الطابـق الثـاني فوجـد جارتـه السـيدة أم محمـود تخـرج مـن المـنزل.. فحياهـا بحـرارة قائـلاً:

- كيف حالك يا أم محمود الآن؟ أتمنى أن تكونين أفضل.

فردت بصوت هادئ وملامح راضية:

- نحمد الله.. ما زلت أتلقى علاج الأزمة القلبية رغم أنه قليل جدًا في السوق.. وهؤلاء الملاعين لا يريدون أن يمدونه بالصيدليات إلا بالكاد.. أنا لا أعرف إن نقص ماذا يمكن أن أفعل!

فرد مصطفى مواسيًا:

- لا تقلقي يا أم محمود.. أنا سأحضره لك من أي مكان.. وإن أردت أي شيء آخر لا تترددي في إخباري.. ألست مثل محمود؟!

فاغرورقت عيناها بالدموع ووقفت تدعو له بصوت عالٍ:

- ربنا يبارك فيك يا بني.. ربنا يبارك فيك.

ثم دخل مصطفى منزله فوجد طبقًا من الجبن والخبز على المنضدة، ثم سمع يوسف زميله في السكن يغني في المطبخ.. فوضع مصطفى أغراضه ونادى بصوت عالٍ:

- ما هذا؟ ألم تعد طعام الغداء بعد؟!

فرد يوسف قائلاً:

- دقائق وسوف أعد لك أفضل طبق «مقلوبة» أكلته في حياتك.

فامتعض وجه مصطفى وغمغم في سره:

- ربنا يستر.

ثم جلس على المنضدة وأمسك بطبق الخضروات قائلاً:

- وأكيد السلطة ستكون عليّ.

خرج يوسف من المطبخ حاملاً طبق المقلوبة، والتي سبقتها رائحتها القوية، بينما انتهى مصطفى من عمل السلطة.. وجلسا كلاهما يأكلان الغداء.. فقال يوسف وهو منهمك في الطعام:

- ما أخبار الجامعة اليوم؟ هل من جديد؟

- لا جديد.. فقط زادت حملة الاعتقالات والقمع، وقامت قوات الشرطة باستفزاز الطلبة، ودخلت داخل الجامعة وفرّقت مظاهرة واعتقلت عددًا كبيرًا من الطلبة بطريقة وحشية حقيرة.

ثم نظر له يوسف نظرة خبيثة وسأله بابتسامة صفراء قائلاً:

- وما أخبار مريم؟ أرأيتها اليوم؟

فبادلـه مصطفـى نفـس النظـرات.. ثـم أراح ظهـره للخلـف وتوقـف عـن الأكل قائـلاً:

- أتعـرف؟ تلـك الفتـاة شـديدة الغرابـة.. محـيّرة لدرجـة كبـيرة.. أوقـات كثيرة أشـعر كأنهـا لا تنتمـي إلى عالمهـا وكأنهـا ليسـت يهوديـة.. تمقـت المـكان ولا تسـتطيع التعامـل مـع مـن حولهـا.. تريـد أن تعيـش في عالـم خـاص رقيـق وحنـون.. وفي أحيـان أخـرى أرى بداخلهـا بـركان غضـب مشـتعل ونـارًا متأججـة يمكـن أن يحـرق كل شيء.. ثـورة طاغيـة ترفـض كل مـا يحيـط بهـا وتريـد تدمـيره.. كثـيرًا مـا أشـفق عليهـا وأريـد احتواءهـا.. ولكـن هنـاك بداخلهـا مـا يجعلـني أخـاف منهـا.

فارتسـمت عـلى وجـه يوسـف ملامـح الدهشـة ووقـف الطعـام في حلقـه وهـو يقـول:

- يـا الله! إنـه شيء غريـب حقًـا.. رغـم أن لهـا ملامـح رقيقـة أخّـاذة تخطـف البـصر.

- الجمـال ليـس كل شيء يـا عزيـزي.. ثـم لا تنـسى أنهـا يهوديـة متدينـة، وهـي أيضًـا...

لـم ينـه مصطفـى كلماتـه حـتى سـمعا ضجيجًـا عنيفًـا في الشـارع.. فانتفضـا مسرعـين نحـو الشرفـة.. فقـال مصطفـى وهـو يتبـع يوسـف قائـلاً:

- إنه أكيد منصور.

- فعلاً إنه هو.

صعـد كلاهمـا إلى الشرفـة فوجـدا شـابًا لـم يتعـد الثلاثـين مـن عمـره، قعيـدًا يمـشي عـلى كـرسي متحـرك، يتشـاجر مـع مجموعـة مـن العسـاكر الإسرائيليـين المرابطـين عنـد أحـد المعابـر الـتي تربـط الشـوارع الرئيسـية

بعضهـا.. وأخـذ يـصرخ فيهـم بصـوت عـالٍ وكلمـات غـير واضحـة ويحـرك يديـه في الهـواء حـتى اسـتطاع المـرور مـن المعـبر والعبـور إلى الطريـق، وهـو يحـرك عجلـتي الكـرسي بيديـن ضعيفتـين حـتى غـاب عـن الأنظـار.

فاسـتدار كل مـن مصطفـى ويوسـف وجلسـا عـلى المنضـدة مـن جديـد.. فأخـذ مصطفـى يـأكل وعـلى وجهـه ملامـح الـشرود ثـم نظـر إلى يوسـف قائـلاً:

- أتعـرف يـا يوسـف! في كل مـرة أرى فيهـا منصـور يـزداد إعجـابي بـه.. إنـه رمـز للصمـود والقـوة.. فهـو الوحيـد الـذي يعـبر مـن المعـبر نحـو الطريـق بعـد أن يتشـاجر مـع القـوات الإسرائيليـة، ويحتمـل صفاقتهـم وإهاناتهـم ويـرد عليهـم بقـوة حـتى يمـر منـه رغـم إعاقتـه.. في حـين أن الأسـوياء لا يجـرؤون عـلى ذلـك ويضطـرون إلى المـرور مـن فـوق التـل الوعـر حـتى يصلـون إلى النصـف الآخـر مـن الطريـق، بعـد أن خصـص هـذا المعـبر المبـاشر لليهـود فقـط.. إنـه يتحـدى إعاقتـه ويحمـل كرامتـه عـلى يديـه ويعتـبر المعـبر مسـألة كرامـة وشرف.. وينجـح فيمـا لـم ينجـح الآخـرون فيـه.

فرد يوسف بهدوء:

- خاصـة بعـد أن فقـد سـاقيه في المقاومـة.. بعـد أن أمسـكه اثنـان من الجنـود الإسرائيليـين وأشـبعوه ضربًـا عـلى سـيقانه بمؤخـرة بنادقهـم حـتى فتتـوا عظامـه.. وأصبـح مـن المسـتحيل إعادتهـا مـرة أخـرى.

ثم صمت يوسف قليلاً ثم قال بصوت يملؤه الحزن:

- بمناسـبة المقاومـة.. لقـد حـدث اليـوم شـيئًا قبـل أن تـأتي يجـب أن أخـبرك بـه ولا أريـدك أن تحـزن.. لقـد أتـت قـوات الاحتـلال وداهمـت المـنزل المجـاور لنـا، واعتقلـت مـروان بعـد أن خربـوا المـنزل وشرّدوا مـن فيـه.

فاكتسى وجه مصطفى بالوجوم وتوقف عن الأكل.. فرد يوسف قائلاً:

- لم أقل لك ذلك كي تحزن وتتوقف عن الأكل.. أنا أعرف كم تحب مروان وعائلته وماذا يمثل لك.. لكنك تعرف أن هذا الوضع أصبح عاديًا، نراه ونسمع به كل يوم.. وأنت نفسك مررت بذلك كثيرًا.

فرد مصطفى:

- مروان ليس مجرد جار وصديق.. إنه بمثابة أخ وأكثر من أخ لي.. كما أنه هو العائل الوحيد لأسرته ولم يكن له أي دخل في المقاومة.. وهم يعرفون ذلك جيدًا.. لا أعرف كيف سيمر الوقت على والده المسن «عم حمزة» الذي لا يفعل شيئًا في حياته إلا بمساعدته.. منهم لله الملاعين.. إنهم يشعلون النار أكثر وأكثر دون أن يشعرون.

فرد يوسف:

- لا تقلق على عم حمزة.. أنا سأقوم باللازم.. فقط اهتم أنت بدروسك.

فرد مصطفى بصوت قوي:

- إنه واجب عليّ يا يوسف.. إنها مسؤوليتي تجاه أهلي وأصدقائي.. لا يجب أن أتخلى عنهم مهما حدث.

فصمت يوسف ثم رد قائلاً:

- أنت عظيم يا مصطفى.

*****

داخـل شركـة «شـالوم تـورز» للخدمـات السـياحية والواقعـة في شـارع «الملـك جـورج» بالقـدس الغربيـة.. حيـث جلـس الموظفـون يرتـدون زيًّ موحـدًا مـا بـين اللونـين الأبيـض والأزرق أغلبهـم مـن الآنسـات الرشـيقات.. وتجـد البوسـترات معلقـة عـلى جـدران الشركـة عليهـا مناظـر خلابـة للأماكـن السـياحية في إسرائيـل، مثـل سـواحل حيفـا وتـل أبيـب ومـزارات القـدس العتيقـة.. دخـل أحـد السـائحين ذو شـعر بـني قصـير وجسـد ريـاضي ويحمـل عـلى كتفـه حقيبـة رياضيـة يرتـدي تي شـيرت فريـق «لـوس أنجلـوس ليكـرز» للسـلة.. وجلـس أمـام إحـدى الموظفـات تـشرح لـه البرامـج السـياحية الـتي تقدمهـا الشركـة في القـدس وبقيـة إسرائيـل.. بينمـا كانـت عينـاه زائغتـين لا ينتبـه لكلامهـا.. حـتى دخـل راؤول رود صاحـب الشركـة.. وهـو رجـل أنيـق لا يرتـدي سـوى بـدل مـن مـاركات عالميـة ويضـع عطـرًا يسـبقه قبـل أن يدخـل مـن بـاب الشركـة، يخفـي بعـض شـعراته البيضـاء خلـف الصبغـة السـوداء الحالكـة.. صيفًـا وشـتاء يفتـح القميـص ويظهـر مـن أسـفله سلسـلة ذهبيـة تنتهـي بنجمـة داوود والـتي لا تظهـر.. حيّـا رود السـائح بحـرارة ودعـاه إلى مكتبـه، فدخـلا وأغلـق رود البـاب بإحـكام واسـتدار نحـوه قائـلاً بصـوت خافـت:

- لم تتأخر كولونيل باركر!

- أحترم مواعيدي معك دائمًا مستر رود.

- ولكـن كيـف دخلـت إسرائيـل بتلـك السرعـة والسـهولة؟ هـل انتهـت خدمتـك بالجيـش الأمريـكي في بغـداد؟

فاعتدل الكولونيل باركر وأكمل:

- حصلـت عـلى إجـازة بصعوبـة.. فسـافرت إلى إسـطنبول منهـا إلى تـل أبيـب.. ثـم إليـك رأسًـا يـا عزيـزي.

فاقترب منه رود وقال بعينين لامعتين وصوت متحفّز:

- وماذا عن الوضع في بغداد.. هل وجدت ما نبحث عنه؟

- لحظك السعيد كنت ضمن القوة المكلفة بحماية متحف بغداد الوطني.. وهناك وجدنا كنوزًا لا تقدّر بمال. قطع أثرية وعملات ومخطوطات وغيرها.. ساعدت الجاليات اليهودية في أمريكا في نقل مجموعة كبيرة منها إلى هناك.. كما أنني أحضرت لك مجموعة منها.

فانتفض رود من مكانه وارتسمت عليه ملامح دهشة ومال إليه أكثر قائلاً:

- وأين تلك القطع؟

- لم يكن من السهل الخروج بها من بغداد والعبور بها عبر تلك المسافات كلها.. ولكنني نجحت في ذلك بفضل علاقاتي.

ثم أخرج من حقيبته ألبوم صور، فتسابقت عينا رود إليه وهي تحملق في صور التماثيل والمنحوتات الأثرية وكأنه يتحسس بنظره عارضات عاريات في مجلة playboy، يمتع نظره بتقاسيمها وخطوطها اللينة والنقوش والزخارف التي تزينها.. حتى سقطت عينه على مجموعة من المخطوطات والوثائق المكتوبة بالعبرية والعربية.. فاتسعت مقلتاه ولم يصدق ما يرى.. تلك المخطوطات هي الأرشيف اليهودي بالعراق والتي توثق السبي البابلي الأول والثاني، بالإضافة إلى أقدم نسخ من التلمود والتوراة منقوشة بالعبرية ومزينة ببعض الزخارف التي تمثّل نجمة داوود.. ظل رود يقلب في صور تلك المخطوطات حتى وصل إلى أخطرها.. وهي عقود ملكية لأراضٍ مملوكة لعائلات يهودية في العراق ترجع لمئات السنين.. فنظر إلى الكولونيل باركر وقال:

- إنها فعلاً كنوز لا تقدر بثمن.

فابتسم باركر ورد:

- صديقي رود أنت لست مجرد صاحب شركة سياحة.. بل من أكبر تجار الآثار في الشرق الأوسط.. وأعرف كيف ستسوّق كنزًا مثل

هـذا.. قـوات الماريـنز نقلـت مـا يقـرب مـن ٤٠ صندوقًـا مليئًـا بمـا رأيتـه مـن كنـوز في هـذا الألبـوم.. ولكنـني أريـد أن آخـذ نصيـبي مـن تلـك التركـة الضخمـة.

فزاد الانبهار في عيني رود وأكمل:

- لقـد جئـت للمـكان الصحيـح يـا عزيـزي.. أمـا بخصـوص المخطوطـات فأنـا أعـرف مـن يقـدر قيمتهـا ويدفـع فيهـا مـا تسـتحقه.

- كل تلـك القطـع والمخطوطـات موجـودة عنـدي هنـا في القـدس الآن في مـكان أمـين.

فاقتنص رود الألبوم من باركر وقال له:

- اتـرك لي الألبـوم لأتفحّصـه بدقـة.. وسـأتصل بـك خـلال أسـبوع لـنرى هـذا الكـنز عـلى الطبيعـة.

*****

أخـذت طائـرات الـF-16 الإسرائيليـة تشـق سـماء إحـدى القواعـد العسـكرية بشـمال حيفـا في جولـة تدريـب قويـة.. وكان زئـير تلـك الطائـرات يهـز المبـاني رغـم ارتفاعهـا الشـديد عـن الأرض، بعـد أن اسـتعرض الطيـارون مهاراتهـم في المنـاورة.. حـتى اقتربـت إحـدى الطائـرات مـن ممـر الهبـوط، فتجمـع عـدد مـن العسـاكر لإرشـادها، فنزلـت الطائـرة بقـوة شـديدة عـلى الممـر حـتى اسـتقرت.. ونـزل منهـا طيـار شـاب ظهـرت ملامحـه شرقيـة سـمراء، بعـد أن خلـع خوذتـه وظهـر عليـه الإرهـاق.. فاقـترب منـه أحـد العسـاكر قائـلاً:

- هبوط جيد يا كابتن.. أهناك أي عيب في الطائرة؟

فرد الطيار قائلاً:

- يبـدو أن عجـلات الطائـرة تحتـاج إلى بعـض الضبـط، فهـي تنحـرف

قليـلاً عنـد الهبـوط.

ونزلـت طائـرة أخـرى بعـد دقائـق بنفـس السرعـة.. ونـزل منهـا الطيـار واقـترب مـن زميلـه مسرعًـا وهـو يقـول:

- موشي.. لقد أرهقتني اليوم في المناورات.

فابتسم موشي قائلاً:

- التدريـب عـلى المنـاورة وضرب المنشـآت بالــF-16 ليـس سـهلاً يـا موردخـاي.. كمـا أن أسـلوب التدريـب بهـذا النـوع مـن الطائـرات يحتـاج إلى وقـت طويـل ولياقـة عاليـة.

- فعــلاً.. خصوصًــا أننــا توقفنــا عــن التدريبــات لمــدة كبــيرة بعــد عمليـة غـزة.

فاقترب منهما أحد الضباط قائلاً:

- كابتن موشي.. كابتن موردخاي.. القائد العام يريدكما الآن.

فارتسـمت عـلى وجهيهمـا ملامـح القلـق.. ثـم دخـلا في مبـنى ذي ممـر طويـل وسـط تحيـة الضبـاط والعسـاكر، حـتى وصـلا إلى مكتـب كبـير، فطلبـا الإذن بالدخـول مـن سـكرتير القائـد ودخـلا المكتـب وحيّـا القائـد تحيـة عسـكرية صارمـة.. فوقـف الجـنرال إسـحق ليفـي القائـد العـام مـن مكتبـه وحياهمـا مبتسـمًا ثـم قـال:

- كـم أنـا سـعيد بوجـود اثنـين مـن أمهـر الطياريـن مثلكمـا في جيـش الدفـاع.. لقـد جاءتـني مجموعـة مـن التقاريـر عـن مسـتوى تدريبكمـا تظهـر مـدى تفوقكمـا في نظـام التدريـب الجديـد.. هـذا مـا كنـت أتوقعـه منكمـا وأكـثر.

فابتسم كل من موشي وموردخاي ثم ردّا:

- نحـن دائمًـا سـنكون عنـد حسـن ظـن سـيادتك، ومخلصـين للوطـن وجيـش الدفـاع.

- أتمـنى أن تحافظـا عـلى هـذا المسـتوى.. فنحـن مقبلـون عـلى مرحلـة

قوية من دفاعنا عن أرض الوطن.

ثم أذن لموردخاري بالانصراف، بينما أمر موشي بالبقاء، فزدادت ملامح القلق عليه.. فاقترب منه الجنرال ليفي ووضع يده على كتفه قائلاً:

- اسمع موشي.. رغم معرفتي بطبيعتك الهادئة ومواقفك الإنسانية التي لا مكان لها هنا.. لكن هذا لا يحرك ثقتي في قدراتك الكبيرة في مجال الطيران العسكري وإخلاصك للوطن.. فأنا أعتبرك واحدًا من أفضل طياري جيش الدفاع على الإطلاق.. ولكن جاءني تقرير من الميجور «آفيدان» قائدك المباشر غاية في السوء.. أعرف أنه متحامل عليك ويضطهدك بشدة.. لكنني لا أريدك أن تعطي له الفرصة لذلك.. أنا سوف أحفظ هذا التقرير وكأنه لم يأتني أصلاً.

فاحمرّ وجه موشي وأخذ يغمغم في سره:

- ماذا يريد مني هذا الملعون؟!

ثم طلب الإذن في الانصراف وخرج من المكتب.. فكان موردخاي في انتظاره.. فقال له بصوت بكسوه القلق:

- ماذا حدث؟

فرد موشي وقد ملأ وجهه الغضب:

- إنه آفيدان مرة أخرى.. يبدو أنه لم يكتف بما حدث قبل ذلك!

- ذلك الأشكينازي البغيض.. ألن يكف عن اضطهادنا.. إنه لن يرتاح إلا بعد أن يترك أحدنا هذا المكان.

فتنهد موشي بقوة ثم قال:

- يبدو أن معركتي معه لم تنته بعد.

ما لم ينه موشي كلماته حتى سمعا خطوات أحد الضباط تقترب خلفهما وسط انتباه العساكر.. وما أن التفتا حتى احمرّ وجه موشي

وتحجـرت مقلتـاه.. فوقـف أمامهمـا ضابـط نحيـل الجسـد ذو وجـه يملـؤه التجاعيـد رغـم صغـر سـنه، ونظـر إليهمـا بعـين ثاقبـة غائـرة ووجـه ممتلـئ بالحقـد والغضـب.. فاسـتدار إليـه مـوشي بقـوة وصرخ فيـه قائـلاً:

- يبدو أنه قد جاء الوقت كي أوقفك عند حدك آفيدان.

فنظر إليه آفيدان بقوة قائلاً:

- كيـف تجـرؤ وتتحـدث معـي بتلـك اللهجـة أيهـا السـفاردي.. يبـدو أنـك قـد تعديـت حـدودك أيهـا الضابـط.. أنتـم هنـا لتنفـذوا الأوامـر فقـط.. وأنـا هنـا الـذي يعطـي الأوامـر.

فـازداد غضـب مـوشي وبـدأ يخـرج عـن شـعوره، بينمـا أمسـك بـه موردخـاي كي لا يتهـور.. فنظـر إليهمـا آفيـدان باحتقـار شـديد ثـم أبعـد مـوشي بيديـه وهـو يغـادر قائـلاً:

- أنصحكما أن تبتعدا عن طريقي.. وإلا ستندمان كثيرًا.

فنظـر إليـه مـوشي والنـار تخـرج مـن عينيـه بينمـا أخـذ موردخـاي يهدئـه قائـلاً:

- اتركه الآن.. سوف يأتي اليوم الذي نأخذ فيه اعتبارنا.

*****

أنـه يـوم «الشـبات» أو السـبت ..العيـد الأسـبوعى المقـدّس لليهـود، فـلا توجـد خطيئـة عنـد المتشـددين تفـوق عـدم المحافظـة عـلى شـعائر السـبت إلا عبـادة الأوثـان..

في هـذا اليـوم تتوقـف الحيـاة تمامًـا في إسرائيـل إلا عند بعـض الأفراد والمؤسسـات العلمانيـة.. فـلا أحـد يشـعل نـارًا أو يطفئهـا أو يحمـل قلمًـا أو نقـودًا.. ولا تجـد أحـدًا في الطـرق والشـوارع إلا مـن هـؤلاء الأقـل تدينًـا وتمسـكًا بتعاليـم التـوراه.. فالحيـاة في تـل أبيـب متفتحـة نوعًـا، ولكـن في القـدس تطبـق فيهـا تعاليـم الشـبات بشـكل أكـثر صرامـة.. والـكل

ينتظـر الشـبات ليرتـاح مـن عنـاء عمـل الأسـبوع، كمـا ارتـاح رب اليهـود في التـوراه.. هـذا اليـوم هـو يـوم تجمـع الأسر الإسرائيليـة لتنـاول وجبـات اليـوم معًـا، بدايـة مـن إشـعال شـمعتين مـن شـموع السـبت وتـلاوة صلاة «القيـدوش».. صلاة بدايـة يـوم السـبت.

ومـع غـروب يـوم السـبت وحلـول الظـلام وظهـور النجـوم في السـماء.. جـاء موعـد وجبـة العشـاء الـذي ينتهـي بـه يـوم السـبت، فتجمعـت أسرة عـازار عـلى المائـدة، بينمـا أحـضرت جولـدا طعـام العشـاء المعـد سـلفًا مـن المطبـخ، حيـث كانـت رائحـة الطبيـخ تفـوح قويـة، ووضعـت رغيفـين خـبز عـلى شـكل جدائـل بجانـب الأكل، كذكـرى للطعـام الـذي أرسـله الـرب لبـني إسرائيـل في البريـة، ثـم أزاحـت المفرش المخصـص لأكل يـوم السـبت عـن الأطبـاق، المزخـرف بنجمـة داوود وبعـض الأدعيـة بالعبريـة منتظـرة عـودة يعقـوب مـن المعبـد، في حـين أخـذت مريـم تسـاعدها في نقـل الطعـام، وأشـعلت البخـور لإضفـاء روائـح زكيـة للمـنزل، وأضـاءت «شـمعة الهفـدالاه» ذات فتائـل كثـيرة مجدولـة في ضفـيرة واحـدة، والمخصصـة لهـذه المناسـبة في وسـط المائـدة.. وجلـس إخوتهـا الصغـار في انتظـار العشـاء.. فدخـل يعقـوب متتبعًـا رائحـة الطعـام وقـال بصـوت عـالٍ:

-مـا كل هـذا الطعـام يـا امـرأة؟! مـا كل هـذه الرائحـة؟! أتنويـن تجهـيز وليمـة؟! نحـن جميعنـا في هـذا البيـت لا نزيـد عـن سـتة.. في حـين أن ابنـك الشـاب في الجيـش.. إذن لمـاذا كل هـذا الإسراف في الطعـام؟!

فنظرت إليه بضيق وقالت بغيظ:

-إنـك لـن تقلـع عـن بخلـك هـذا أبـدًا.. إنـي أجهـز العشـاء الـذي يحبـه الأولاد والـذي حرمتنـا منـه شـهرًا كامـلاً بحجـة التقشـف.. كمـا أنـي أجهـزه منـذ يومـين.

فأكمل قائلاً:

- وما كل تلك الأنوار التي توقدينها.. لم يأتِ الظلام بعد.. ما زال هناك بصيص من الضوء بالخارج.. يجب أن تتعلموا التوفير.. الأيام القادمة صعبة.

فصرخت جولدا قائلة:

- يا رجل.. أتريدنا أن نعيش في ظلام من أجل أن توفر ثمن الكهرباء؟! حرام عليك!

فنظرت إليهما مريم وهي تشتعل من الشجار اليومي بينهما، وقالت في حنق:

- أليس هذا هو وقت تناول العشاء والصلاة؟! اتركوا الخلاف قليلاً.

فصمت كلاهما قليلاً، ثم وقف يعقوب على رأس المائدة ممسكًا بكأس الخمر ليرفعه لأعلى، وهو يردد صلاة «الهفدالاة»، وهي صلاة توديع يوم السبت:

- «مبارك أنت.. إلهنا ملك العالم.. الذي ميّز بين النور والظلمة.. وبين المقدس والمدنس.. وبين السبت وغيره من أيام الأسبوع».

ثم مرر الكأس على بقية أفراد أسرته.. ووضع الجميع أيديهم مبسوطة فوق شعلة الشمعة على مسافة يشعرون فيها بدفء نار الشمعة وخففوا إضاءة المنزل قليلاً حتى تنعكس ظلال أصابعهم على سقف المنزل.. ثم سكب يعقوب كأس الخمر على الشمعة المشتعلة فوق صحن «الهفدالاه» المزخرف.. ومع انطفاء الشمعة انقضت طقوس يوم السبت.

وفي منتصف العشاء انهمك يعقوب في الأكل وهو ينظر إلى ابنته قائلاً:

- ألم تجدي وظيفة مناسبة حتى الآن في أورشليم؟ كل زملائك وأصدقائك يعملون وهم طلبة ولا ينتظرون مساعدة أهاليهم.

فردت مريم بملامح غاضبة وصوت صارخ:

- أنـا لا أريـد أن أنشـغل بـأي شيء عـن دراسـتي.. وبالنسـبة إلى المصاريـف سـوف أتدبـر أمـوري مـن المـال الـذي أحوشـه في البنـك.

وقامـت منفعلـة إلى حجرتهـا، بينمـا جلـس يعقـوب يكمـل أكلـه.. فنظـرت إليـه جولـدا بعينـين غاضبتـين قائلـة:

- ألن تكف عن مضايقتها والضغط عليها!

فرد بصوت أخنف:

- لقـد كـبرت ابنتـك وأنهـت دراسـتها الأساسـية.. وهـا قـد جـاء الوقـت لتنفـق عـلى نفسـها وتـنزل إلى سـوق العمـل.. فأنـا لـن أدفـع لهـا شـيكلاً واحـدًا بعـد اليـوم.. يكفـي مـا صرفتـه عليهـا طـوال عمرهـا.. الفتيـات في عمرهـا ينزلـن إلى الشـوارع ليتكسـبن لقمـة العيـش.. وابنتـك جميلـة وجذابـة وتعيـش في مدينـة كبـيرة وفرصهـا كثـيرة.. يجـب أن تسـتفيد مـن جمالهـا وتسـتغله أفضـل اسـتغلال.

فخرجـت جولـدا مـن المطبـخ وألقـت بالمريلـة.. وقالـت بصـوت عـالٍ:

- لقـد سـئمت مـن الحديـث معـك.. سـأخرج لألملـم الغسـيل مـن الشرفـة.. ثـم أذهـب لأتحـدث مـع أخـتي «حاداشـا» في الهاتـف.

فانتفض يعقوب من مكانه وصرخ قائلاً:

- تلك المكالمة ستكون على حسابك.. أنا لن أدفع شيئًا.

فخرجـت إلى الشرفـة وأخـذت تلملـم الغسـيل.. فوجـدت عسـاف يقـف أمـام المـنزل ثمـلاً وهـو يترنـح وأخـذ ينـادي عـلى مريـم بصـوت عـالٍ.. فصرخـت فيـه قائلـة:

- ماذا تريد أيها السكير الأبله؟! ارحل من هنا.

فنظر إليها بعينيه الحمراوين.. ورد قائلاً:

- أنـا لا أريـدك أنـت أيتهـا العجـوز الشـمطاء.. أنـا أريـد مريـم.. أيـن

هي ؟

فامتلأت بالغيظ وأكملت باستعلاء:

- إنهـا تذاكـر لتكـون سـيدة هارحومـا.. بـل سـيدة إسرائيـل كلهـا.. وسـيدتكم أيهـا الغجـر الملاعـين.

فرد عليها مستخفًا:

- إنها لن تفلح في حياتها.. ما دامت هي ابنتك أنت ويعقوب.

فاحمـرّ وجههـا واشـتعلت غيظًـا وأمسـكت بفانلـة مـن الغسـيل وقذفتهـا في وجهـه، بينمـا هـو جـرى ضاحـكًا وقالـت بجنـون:

- اغرب أيها الخنزير.. لعنتك أمك.. ملعووون.

أخـذ عسـاف يجـر سـاقيه حـتى وصـل إلى الملهـى.. فجلس عـلى البار، وأخـذ يحتـسي البـيرة الرخيصـة بينمـا كان ينظـر حولـه وكأنـه ينتظـر أحـدًا مـا.. حـتى دخـل رجـلان يظهـر مـن ملابسـهما الـثراء واقتربـا منـه.. فقـام مـن مكانـه قائـلاً:

- لم تتأخرا.. جئتما في الميعاد.

فرد أحدهما قائلاً:

- نحن دائمًا ما نأتي في الميعاد.. المهم أن تلتزم أنت بالاتفاق.

- أنا دائمًا جاهز.. ماذا لديكما اليوم ؟

فاقترب أحدهما وجلس بجواره وقال بصوت خافت:

- بعـد غـد سـتصل شـحنة جديـدة عـبر المعـبر.. أتسـتطيع أن تهربهـا لنا ؟

فرد عساف بثقة:

- لن أهربها لكم فحسب.. بل أستطيع تصريفها.

فرد الآخر بقوة:

- تصريـف ١٠ كجـم مـن الهيرويـن ليـس بالأمـر الهـيِّن.. يجـب أن ينتهـي الأمـر بـأسرع مما يمكـن.. أعـين البوليـس مفتوحـة بشـدة.. كمـا

أن الرجـل الكبـير لا يمـزح في مثـل تلـك الأمـور يـا عسـاف.
فضحك عساف وأكمل:
- يجـب أن تثقـوا فيّ أكـثر مـن ذلـك.. لا يوجـد أحـد في هارحومـا يمكـن أن يسـاعدكم ويقـوم بمثـل تلـك التسـهيلات مثـلي.. المهـم أن تزيـدوا نسـبتي في تلـك العمليـة.
فرد أحد الرجلين:
- هـذا سـيتوقف عـلى نجاحـك.. كمـا أنـك تعـرف عاقبـة الإخفـاق أو الخيانـة عندنـا.
فنظـر إليهمـا بعمـق وابتسـم ابتسـامة صفـراء.. ثـم طلـب لهمـا كأسـين مـن البـيرة.. فقـال أحدهمـا:
- لا وقت لدينا.. يجب أن نرحل الآن.. وتذكر ما قلناه لك..شالوم.
بينمـا خـرج الرجـلان.. دخـل نعـوم بشـكله المـزري وأخـذ يحملـق فيهمـا، حـتى اقـترب مـن عسـاف وقـال وعـلى وجهـه ملامـح الدهشـة:
- ما هذا؟! أهذان «عزرا» و «كاهان»؟!
فرد عساف:
- بلى.
فأكمل نعوم بانبهار:
- أتتعامل معهما؟ إنهما أكبر تاجري مخدرات في المنطقة.
فرد عساف بقوة:
- أنا لا أتعامل معهما فحسب.. أنا شريكهما.
فصرخ نعوم وأخذ يرقص حول عساف:
- أخـيرًا سـيأتينا المـدد كمـا نشـتهي.. دون الحاجـة إلى رجالهمـا والتذلـل لهـم.. وطبعًـا سـتعطيني مـا أطلبـه منـك دون حسـاب.
فنظر إليه عساف باحتقار وقال:
- أنـا لا أفعـل مـا أفعلـه مـن أجلـك أيهـا المدمـن.. إنهـا فرصـتي

الوحيـدة كي أرتقـي وأصبـح ثريًـا في وسـط هـذا المجتمـع الجشـع.. فبالمـال سـتكون قويًـا وتملـك كل شيء وتتحكـم في جميـع النـاس.. ولا يسـتطيع أحـد أن يقهـرك أو يسـيطر عليـك.. هنـا في إسرائيـل إمـا أن تكـون قويًـا وتـضرب بيـد مـن حديـد.. وإمـا تدهسـك الأقـدام ويلقـى بـك في البحـر.

فرد نعوم بصوت جاد:

- ولكـن احـذر يـا صديقـي.. إنـك تلعـب مـع الكبـار.. ومثـل عـزرا وكاهـان لا يرحمـون أحـدًا.

فنظر إليه عساف نظرة شاردة، واحتسى رشفة من البيرة قائلاً:

- لـم يعـد يهـم.. نحـن لا نملـك مـا نخسره أو نبـكي عليـه.. منـذ أن أتينـا إلى إسرائيـل ونحـن ضائعـون.. قضينـا سـنوات نبحـث عـن وظيفـة محترمـة وسـط هـذا المجتمـع الوحـشي ولكـن لـم نجـد.. لقـد كانـت حياتنـا في المغـرب أفضـل كثـيرًا رغـم كل مـا كنـا نعـاني منـه مـن فقـر وتـشرد.. لقـد أنهيـت دراسـتي الأساسـية بالربـاط وكنـت أعـد نفـسي لدخـول الجامعـة.. لكنهـم أغرونـا بالحيـاة السـهلة والـثراء السريـع وصـوروا لنـا المسـتوطنات الـتي سـنعيش بهـا وكأنهـا جـزء مـن الجنـة.. ولكـن مـع وصولنـا إلى هنـا لـم نـر سـوى سراب.. سـنوات وسـنوات ونحـن نتخبـط مـا بـين عمليـات سـمسرة بسـيطة أو عمليـات نصـب أو سـطو عـلى المـزارع كي نسـتطيع الحيـاة وسـط خوفنـا الرهيـب مـن أصـوات سـيارات الشرطـة.. بينمـا كانـت الوظائـف الكـبرى تذهـب لأصحـاب النفـوذ والمعـارف أمثـال يعقـوب.. حـتى لـم يبـق لـديّ سـوى التسـكع في البـارات ومصادقـة الأغبيـاء أمثالـك نعـوم.

فرد نعوم ببلاهة:

- حظك الجيد أنك رأيتني وأصبحنا أصدقاء.

- بـل مـن حظـي العـثر أن تعرفـت عليـك.. لكنـك في بعـض الأحيـان

تكـون نافعًـا رغـم بلاهتـك.. والآن لـم يعـد أمامنـا الآن سـوى المـضي في هـذا الطريـق رغـم النـيران الـتي تحيـط بـه، إلا أنـني سأسـير فيـه إلى نهايتـه وأصنـع أمـوالاً لا حـصر لهـا، وأكـون أنـا السـيد هنـا.. مهمـا كلفـني الأمـر.

*****

بـدأ الأسـبوع الجديـد وسـط غيـوم الطقـس في السـماء والأجـواء المشـحونة داخـل الجامعـة العبريـة.. وقـف عـشرات الطـلاب مـن جماعـة «السـلام الآن» أمـام مبـنى كليـة الإنسـانيات وهـم يرفعـون أعـلام كل مـن إسرائيـل وفلسـطين، ولافتـات تحمـل عبـارات بالعبريـة والعربيـة تهاجـم الحكومـة.. في حـين اصطفـت قـوات الأمـن المدججـة بالسـلاح تحـاصر المجمـع وتقـف عـلى مقربـة منهـم، بينهـم إبرام جالسًـا داخـل إحـدى المدرعـات يراقـب الوضـع.. بينمـا وقـف الطلبـة والأسـاتذة بالشرفـات يراقبـون تلـك اللحظـات المهيبـة بشـغف وعـلى رأسـهم بـن أهـارون الـذي أخـذ يراقبهـم مـن نافـذة مكتبـه.. أمـا الدكتـور ماكلـين فـنزل مـن مكتبـه ووقـف عـلى مقربـة منهـم وهـو يشـاهدهم بإعجـاب شـديد.

وقفـت مريـم بـين المتظاهريـن وهـي تحمـل علـم إسرائيـل، بينمـا تنظـر حولهـا تبحـث عـن مصطفـى كي يكـون بجوارهـا في ذلـك الموقـف، إلا أن عينيهـا لـم تلتقطـه بـين الجمـوع.. كان جسـدها يرتعـش وأناملهـا تهـتز وصوتهـا الضعيـف يرتعـش وهـو يـردد الهتافـات.. حـتى نظـرت إلى دانيـال وهـو يخـرج بصلابـة بـين النـاس ويـصرخ بصـوت حديـدي «أوقفـوا الاحتـلال.. أوقفـوا الدمـاء» والجمـوع تـردد مـن خلفـه بصـوت يهـز جـدران الجامعـة.. فاسـتجمعت شـجاعتها وأخـذت تـردد وراءه

بصـوت عـالٍ.. ودون أن يشـعر وجـد الدكتـور ماكلـين نفسـه يقـترب منهـم أكـثر فأكـثر ولسـانه يـردد عبـارات الحريـة خلفهـم في سره، وقلبـه يخفـق بقـوة مـن شـدة الحمـاس.. حـتى اشـتعلت المظاهـرة وأعطى إبـرام أوامره بالتدخـل.. فاقتحـم جنـود الأمـن جمـوع الشباب بقـوة ليفرقوهـم وأخـذوا يضربونهـم بالعـصي ويقذفونهـم بالقنابـل المسـيلة للدمـوع.. فهـرع الشـباب وهـم يتخبطـون وارتفعـت أدخنـة القنابـل البيضـاء تغطـي المـكان، حـتى سـقط العديـد منهـم مـن شـدة الاختنـاق.. بينمـا أخـذ الدكتـور يترنـح مـن الاختنـاق، واصفـرّ وجهـه وتحجـرت مقلتـاه وتوقفـت أطرافـه عـن الحركـة، حـتى كاد أن يغمـى عليـه.. وفجـأة اجتذبـه أحـد الشـباب وهـرع بـه بعيـدًا وهـو يحمله حـتى دخـل بـه المبـنى وأرقـده داخـل إحـدى الفصـول، وأغلـق البـاب خلفـه وأخـذ يقـوم بعمليـة التنفـس الصناعـي لـه، ويحـل لـه ربطـة عنقـه.. حـتى بـدأت تتفتـح عينـاه ويعـود إلى نفسـه الطبيعـي ونظـر إليـه نظـرات مشوّشـة، بينمـا ابتسـم الشـاب في وجهـه وهـو يقـول لـه:

- «حمـدًا لله عـلى سـلامتك دكتـور ماكلـين».. فاعتـدل مـن رقدتـه وهـو يدقـق في الصـوت وأخـذ يحملـق في الشـاب وهـو لا يصـدق عينيـه.. فقـال بصـوت مبحـوح:

- مصطفى.. أنا لا أصدق أنك قمت بهذا.. لقد أنقذت حياتي.

فابتسم مصطفى وقال بهدوء:

- أرجـوك لا تقـل هـذا.. أنـت لا تعـرف كـم أنـا أعـتز بـك.. ولا يمكـن أن أراك في هـذا الموقـف دون أن أنقـذك.

- إنني لن أنسى لك هذا الموقف الشجاع.. أنت بطل بحق.

وقـام مـن مكانـه واحتضنـه بقـوة والدمـوع تهـتز داخـل عينيـه.. وفجـأة انفتـح البـاب بقـوة ودخـل كل مـن بـن أهـارون وتـال الفصـل، وأخـذا ينظـران إليهمـا بنظـرات ناريـة، واقـترب بـن أهـارون مـن الدكتـور

ماكلـين وهـو يتظاهـر بمسـاعدته واضعًـا عـلى وجهـه قنـاع القلـق ذا الملامـح الناعمـة والتعبـيرات المقنعـة، وأخـذ يسـاعده عـلى النهـوض وهـو يقـول لـه بصـوت مؤثـر:

- إنـي أعتـذر لـك بشـدة.. لـم أكـن أتصـور أن يخـرج الموقـف عـن ذلـك الحـد.

- لا تقلق عليّ؛ أنا بخير.

فرد تال وهو ينظر إلى مصطفى بعينين ضيقتين وملامح خبيثة:

- لقـد كانـت تظاهـرة رائعـة.. لـولا سـلوك بعـض العـرب الغوغـائي الـذي أفسـد الوضـع.

فرد مصطفى بقوة:

- لقـد بـدأت الشرطـة بالهجـوم وقامـت ببعـض التصرفـات الاسـتفزازية لإفسـاد المظاهـرة.. وهـذا ليـس بجديـد عليهـا.

فنظر إليه بن أهارون شذرًا وقال له بصوت عالٍ:

- وأنـت! مـاذا تفعـل هنـا؟! إنـك تضايـق الدكتـور ماكلـين وترهقـه.. أنـت لا شـك السـبب في حالتـه هـذه.. ارحـل الآن.

فرد الدكتور ماكلين:

- بالعكس.. إنه هو الذي...

فقاطعه بن أهارون بصوته العالي قائلاً:

- بـل أنـا أعـرف تلـك التصرفـات الوصوليـة الـتي يقـوم بهـا العـرب.. أنتـم السـبب في كل شيء.

فنظـر مصطفـى إليهـم وكأنـه يحرقهـم بنظراتـه وغـادر الفصـل.. فتسـلل خلفـه تـال تـاركًا الفصـل حـتى وصـل إليـه وأخـذ يحـدق فيـه بطريقـة غـير طبيعيـة.. كانـت نظراتـه الغريبـة تتفحـص كل عضـلات جسـده بإعجـاب مريـب.. حـتى وضـع يـده عـلى كتـف مصطفـى وأخـذ يتحسسـه، فانتفـض مـن مكانـه، فنظـر إليـه تـال قائـلاً:

- لا تخف مني.

فارتاب مصطفى وظهرت عليه علامات القلق قائلاً:

- ماذا تريد مني؟!

فاقترب منه تال أكثر وازدادت اللمعة الغريبة في عينيه، وقال بصوت خافت:

- لم أكن أعرف أن جسدك رياضي هكذا.. لقد كنت رائعًا وأنت تساعد الدكتور ماكلين.. ما رأيك في أن تأتي معي أنا ورامون؟ ستقضي معنا أوقاتًا رائعة.

فارتعش مصطفى من الصدمة وتحجرت مقلتاه ونفر الدم في كل عروق جسده، وصرخ في وجهه قائلاً:

- ماذا تقصد أيها الملعون؟!

فأمسك تال بذراعه وأخذ يتحسسه بلذة وقال:

- لكنك رائع.. صدقني ستشعر معنا بشعور جميل.. لن تشعره مع أي فتاة.

فسحب ذراعه من بين يديه بقوة ودفعه إلى الحائط، ونظر إليه والشرر يخرج من عينيه قائلاً:

- أتظنني شاذًا مثلكما! اغرب عني أيها الملعون.

- سوف نفعل أي شيء تطلبه منا.. بل سندفع لك أي مبلغ تريده.. ولكن ابق معنا.

فأمسكه مصطفى من ياقة قميصه ودفعه بقوة قائلاً:

- إن لم تغرب عن وجهي الآن سوف أقتلك.

فضحك تال ضحكة صفراء ورد عليه قائلاً:

- من مثلنا يملؤون إسرائيل.

فنظر إليه مصطفى باشمئزاز وقال:

- إنكم دنستم الأرض؛ لعنة الله عليكم.

وابتعـد عـن المـكان مسرعًـا ونظـرات التقـزز تخـرج مـن عينيـه وتـكاد تحـرق تـال.. بينمـا أخـذ تـال يحملـق فيـه وكأنـه سـيلتهمه بنظراتـه، وأخـذ يغمغـم في سره:

- خسارة.. ولكنني لن أتركك يا مصطفى.

مثـل تـال ورامـون يمكـن أن تقابلهم في أي مـكان.. فالشـواذ في إسرائيل جـزء لا يتجـزأ مـن المجتمـع الإسرائيـلي حـتى أن الحكومـة الإسرائيليـة تفتخـر بسـن قوانـين لحمايتهـم ووضعهـم في مكانـة متمـيزة، حـتى أطلـق عـلى إسرائيـل «جنـة الشـواذ في العالـم».. بـل وصـل الأمـر أن سياحة الشـواذ في إسرائيـل جـزء هـام مـن برنامـج السـياحة بهـا.. فلهـم مطاعمهـم وباراتهـم وفنادقهـم، وحـتى مهرجاناتهـم وحفلاتهـم العامـة الـتي يشـاركون فيهـا وسـط الشـوارع.. فتراهـم أنصـاف عـراة بأجسـاد لامعـة، يحلقـون ذقونهـم ويضعـون عـلى وجوههـم مسـاحيق تجعـل ملامحهـم مـا بـين الأنثويـة والصبيانيـة.. يعانقـون بعضهـم بعضًـا ويرقصـون بابتـذال شـديد وسـط الشـوارع الرئيسـية وهـم يرفعـون علـم الشـواذ ذا الألـوان السـبعة، بينمـا تفتخـر الدولـة العبريـة بمثـل تلـك المواكـب وتنقلهـا عـبر شاشـات التليفزيـون وتعدّهـا جـزءًا مـن الحريـة الشـخصية المكفولـة للمواطـن الإسرائيـلي.

ومـن أشـهر بـارات الشـواذ في القـدس بـار «شوشـان» بشـارع «يافـا» والـذي يـأتي إليـه شـباب الشـواذ فقـط، لتبـدأ بـه حياتهـم الليليـة والسـهر والمجـون بدايـة مـن منتصـف الليـل.. فـتراه ذا إضـاءة عالية ملفتـة جذابة مـن الخـارج، بينمـا يكسـوه الإضـاءة خافتـة مـن الداخـل، والـتي تـكاد تنـير لـكل منضـدة، بالإضافـة إلى إضـاءة «البيسـت» الـذي يرقـص فيـه الشـباب ويعلـو فيهـا أصـوات الموسـيقى الصاخبـة، بينمـا يمـلأ بالشـباب سـواء مـن داخـل القـدس أو مـن السـواح الذيـن يأتـون إلى البـار بالاسـم

ليشربـوا أنـواع الخمـور ويرقصـون عـلى أنغـام «الميتـال» و»الهـارد روك»، ويتحـررون مـن ضغوطهـم اليوميـة ويشـعرون بالحريـة.. بـل يصـل الأمـر إلى تعاطـي المخـدرات والـتي تعـلي لديهـم الشـهوة والنشـوة وتعجلهـم في لحظـة اندمـاج، وإن كان هـذا نـادر الحـدوث.

*****

المفاجأة

جلس الدكتور ماكلين في مكتبة الجامعة، وهو يقلب في بعض المراجع والكتب الخاصة بالتاريخ اليهودي، ويتجوّل بين أرفف المكتبة، وهو في حالة انهماك شديد، بينما يفتح أمامه جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص به.. حتى شعر بالإرهاق، فقام من مكانه واستعار بعض الكتب، وخرج من المكتبة متجهًا نحو الممر المؤدي إلى مكتب الدكتور بن أهارون.. وفجأة اصطدمت به فتاة مسرعة كانت تدخل المكتبة وهي تحمل أوراقًا وكتبًا كثيرة.. فوقعت منها على الأرض وأخذت تلملمها وهي في شدة الارتباك وتتمتم بعبارات الاعتذار.. فنزل الدكتور ماكلين وهو يلملم الأوراق معها.. حتى وقع بصره على عينيها التي تركت الأوراق وأخذت تحدق فيه، بينما لم يقاوم بصره في متابعة صدرها الممتلئ الذي اقترب منه وشعرها الأحمر الناري المتطاير على وجهها ذي الملامح الوحشية وقوامها الممشوق وهي تقوم من على الأرض.. فوقف هو الآخر وهو يمسح جبينه المتصبب عرقًا.. فابتسمت قائلة:

- إنني في غاية الأسف.

فرد بابتسامة هادئة:

- بل أنا الذي يجب عليه الاعتذار.

- أنت في غاية الذوق والدماثة.. أنا لا أعرف ماذا أقول لك!

فابتسم قائلاً:

- لا شيء.. فقط اهتمي بنفسك.

ثم غادر الدكتور ماكلين المكان وهو يتابعها بعينيه وهي تدخل

المكتبـة، بينمـا نظـرت إليـه بنظـرات ناعمـة وهـي تمـيء بيديهـا مودعـة لـه.. فاتجـه نحـو مكتـب بـن أهـارون، فوجـده جالسًـا عـلى مكتبـه يدخّـن سـيجاره ومعـه تـال وهمـا يبحثـان بعـض الأشـياء.. فحيّـاه بـن أهـارون وأحـضر لـه كوبًـا مـن العصـير قائـلاً:

- كنت أريد أن أخذ معك كأسًا.. لكنني لا أشرب بالنهار.

فضحك ماكلين قائلاً:

- ولا أنـا أيضًـا.. وإن كان كأس المسـاء مقـدس عنـدي أشـبه بموعـد برنامـج لاري كينـج لايـف عـلى الــCNN.

فقال تال:

- من الواضح أن الدكتور ماكلين يحافظ جيدًا على تقاليده.

فرد الدكتور ماكلين:

- فعـلاً.. إنـي أحـب الحفـاظ عليهـا.. ولكـن لا تنـسى عامـل السـن.. فقـد اقتربـت مـن المشـيب.

فضحك بن أهارون قائلاً:

- لا تقل ذلك.. إنك ما زلت في أوج سحرك وجاذبيتك.

ثم رد تال قائلاً:

- لقد حكى لنا الدكتور بن أهارون عنك الكثير.

ثـم نقـر البـاب، فسـمح بـن أهـارون للطـارق بالدخـول.. فدخلـت تلـك الفتـاة ذات الشـعر الأحمـر والجسـد السـاخن.. فأخـذ الدكتـور ماكلـين يحملـق فيهـا وكأنـه لا يصـدق مـا يـرى.. فابتسـم بـن أهـارون ثـم قـال:

- هـا هـي إحـدى أذكى تلاميـذي.. دعـني أعرّفـك بـ«آشـيرا كوهـين».. إنهـا باحثـة بالجامعـة في نفـس تخصصـك دكتـور ماكلـين.

ثم استدار لها قائلاً:

- إنه من حظك الرائع أن تلتقي بالدكتور ماكلين وتتعاملين معه.

فابتسمت ابتسامة صفراء وردت بعينين لامعتين:

- لكننا التقينا قبل ذلك.. ولكن في صدفة محرجة.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- ولكنها صدفة سعيدة.

فردت بصوت هامس:

- لكنها الأحلى بالنسبة إليّ.

فرد بن أهارون:

- إنهـا فرصتـك الآن كي تتعـاوني مـع الدكتـور ماكلـين.. فهـو الأفضل في مجالـه.. وسـوف يفيـدك كثـيرًا في أبحاثـك.. أليـس كذلـك دكتـور ماكلين؟

فردت آشيرا:

- أتمنى ذلك من كل قلبي.

فابتسم الدكتور ماكلين وقال:

- يبدو أنك لا تضيّعي أي فرصة أمامك.

فردت بهدوء:

- وخصوصًا إذا كانت ذهبية مثلك دكتور ماكلين.

فنظـر إليهـا بإعجـاب شـديد محـاولاً إخفـاؤه أمـام بـن أهـارون وتـال، وأخـذ يراقـب كل شـبر مـن جسـدها وهـي تنحـني بليونـة عـلى مكتـب بـن أهـارون، وهـي تناقـش معـه بعـض الأمـور في بحثهـا.. وبعـد أن انتهـت معـه اقتربـت مـن الدكتـور ماكيلـن وهـي تصافحـه، وقالـت بصـوت خافـت:

- أتمنى أن يحوز عملي إعجابك وأن نعمل معًا بعد ذلك.

فابتسم ابتسامة كبيرة ملأت وجهه ورد:

- أتمنى ذلك أيضًا.

*****

جلـس كل مـن «دان» و «عومـير» داخـل الفصـل بقسـم التاريـخ، بعدمـا غـادره جميـع الطـلاب، وأغلقـا البـاب عـلى نفسـيهما بعـد أن ظهـرت عليهمـا ملامـح القلـق.. فقـال دان:

- يبدو أن ديفيد قد تأخر اليوم.. أخشى أن يفوتنا الاجتماع.

فرد عومير قائلاً:

- لا تقـل ذلـك.. إنـه اجتمـاع مهـم.. ولا أعتقـد أن تلـك الفرصـة سيفوّتها علينـا ديفيـد، خصوصًـا بعـد أن اتخذنـا قـرارات حاسـمة بشـأن مـا سـنفعله في الفـترة القادمـة.

- ولكـن الوضـع الآن متوتـر.. ولا بـد مـن أن نستشـير ديفيـد فيمـا سـننفذه.

وفجـأة انفتـح البـاب.. فقـام الاثنـان مـن مكانهمـا مذعوريـن بعـد أن تملكهمـا الرعـب.. فـكان ديفيـد الـذي أغلـق البـاب خلفـه بسرعـة قائـلاً:

- لا تخافا.. ابقيا مكانكما.

فقال عومير بعد أن هدأ قليلاً:

- ماذا سنفعل الآن؟

- كل شيء عـلى مـا يـرام.. المهـم أن تهـدأ قليـلاً وسـأشرح لكمـا كل شيء بالتفصيـل.

فسمعوا أصوات أقدام تحوم حول المكان.. فقال ديفيد:

- يبدو أن المكان غير مناسب للحديث.. فلنرحل من هنا.

ثـم نـزل الجميـع وغـادروا الجامعـة.. وجلسـوا داخـل أحـد المقاهـي البعيـدة.. فاقـترب ديفيـد مـن دان وعومـير وقـال بصـوت خافـت:

- لقـد تغـيرت الخطـة قليـلاً.. سـنذهب الآن لنقابـل «الرابـاي» شـمعون.. يبـدو أن هنـاك أشـياء خطـيرة يريـد أن يخبرهـا لنـا.. وهـي آخـر مـرة سـنراه في نفـس المـكان.

وبعـد أن أنهـى ديفيـد كلماتـه وسـط إنصـات شـديد مـن دان وعومير..

قام الثلاثة من المقهى واستقلوا الباص الذي سار عبر شارع «بن يودا» الرئيسي بوسط القدس المليء بالمحال التجارية.. ثم نزلوا وسط الزحام وساروا عبر مجموعة من الشوارع الجانبية الضيقة، فركبوا سيارة «دودج» كانت تنتظرهم وساروا عبر شارع «يافا».. حتى وصلوا إلى أحد البيوت القديمة فصعدوا عبر درجات حجرية قديمة وهم يتلفتون خلفهم.. ونقروا على باب خشبي ضخم.. فنادى صوت من الداخل:

- من بالخارج؟

فاقترب ديفيد من الباب ورد بصوت خافت:

- نحن أبناء الهيكل.

- وما كلمة السر؟

- «بنت صهيون».

ففتح لهم الباب ودخلوا عبر ممرات حتى وصلوا إلى حجرة اجتماعات كبيرة مظلمة، لا ينيرها سوى ضوء الشمعدان اليهودي، ومعلق على جدرانها نجمة داوود في كل ركن، وعلى أحد الجدران معلق علم أصفر مرسوم عليه في منتصفه يد قابضة داخل نجمة داوود سوداء.. هو شعار حركة «كاخ» الصهيونية المتطرفة.. كانت الحجرة مليئة بمجموعة من الشباب ورجال الدين يتجاذبون أطراف الحديث.. حتى دخل الراباي شمعون ذو الوجه القاسي والملامح المتجهمة واللحية السوداء الطويلة يتخللها شعرات بيضاء.. يرتدي رداءً أسود طويلاً وقبعة سوداء كبيرة تنزل من جوانبها الـ «بيئوت» أو السوالف الملتوية دلالة التقوى.. فوقف الجميع احترامًا حتى جلس.. فأخذ ينظر إليهم بنظرات نارية ثم قال بصوت رخيم:

- أتعلمون لماذا جمعتكم اليوم؟

فأخذوا ينظرون بعضهم إلى بعض.. فكسر حالة الدهشة التي

وضحـت في أعينهـم وغمغمتهـم وقـال لهـم:

- لقـد اقتربنـا مـن تحقيـق حلمنـا الأكـبر.. الحلـم الـذي كافحنـا مـن أجلـه وأتينـا مـن شـتى بقـاع العالـم إلى تلـك الأرض الطاهـرة لتحقيقـه.. حلـم كل صهيـوني عـلى وجـه الأرض لـيراه بعينـه ويلمسـه بيديـه.. لـم يعـد لدينـا سـوى القليـل لدخـول جبـل الهيـكل ونبـني هيكلنـا العظيـم مـن جديـد.

فارتسمت على ملامحهم السعادة.. وسأل أحد الحاخامات قائلاً:

- ولكـن سـيدي كيـف سنسـتطيع دخـول جبـل الهيـكل ونحـن غـير متطهريـن.. لا بـد مـن وجـود بقـرة حمـراء تمامًـا لا عيـب فيهـا كي نتطهـر برمادهـا.. وهـذا لا يوجـد الآن.

فصمت الراباي شمعون ثم رد بعينين لامعتين قائلاً:

- وأنـا أتحـدث لكـم الآن.. يقـوم مجموعـة مـن الإخـوان في مزرعـة معهـد البحـوث الوراثيـة بمسـتوطنة بيـت شـلومو بمحاولـة التوصـل إلى إنتـاج بقـرة حمـراء لا عيـب فيهـا، لاسـتخدام رمادهـا في تطهـير أجسـادنا قبـل إعـادة بنـاء الهيـكل، وهـو مـا أكّـده لنـا الحاخـام «شمارياشـور».. وفي لويزيانـا بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة يجـري الآن إعـداد قطيـع مـن الأبقـار جاهـز للنقـل الفـوري إلى إسرائيـل جـوًا لإعـداد تلقيـح صناعـي بينهـا ويـبن الأبقـار الإسرائيليـة.. وتنكـب عائلـة نتيـف في أورشـليم عـلى إنتـاج أدوات العبـادة.. بينمـا تقـوم أسرة ألفـي بإعـداد كسـارة الحجـارة الـتي تملكهـا في جنـوب البـلاد، لإنتـاج مـواد بنـاء الهيـكل مـن عنـاصر طبيعيـة، كمـا خاطـت أسرة تسـورفيم أدوات الهيـكل القماشـية مـن نـوع واحـد.. في حـين أنجـز بعـض العاملـين في مصانـع البحـر الميـت طـرازًا مثـيرًا لمذبـح جبـل الهيـكل.. وهـا جـاء دورنـا في صنـع صخـرة كبـيرة لـم تمسسـها مطرقـة أو إزميـل ووزنهـا نحـو أربعـة أطنـان، اسـتعدادًا لصنـع العـرش.. لـم يعـد عـلى تحقيـق الحلـم سـوى القليـل.. يجـب أن نكـون

علـى قمـة الاسـتعداد للوصـول إلى يـوم الخـلاص.

فصـاح الجميـع مهللـين وأخـذوا يصرخـون مردديـن عبـارات النـصر.. وأخـذوا يحتضنـون بعضهـم بعضًـا غـير مصدقـين مـا سـمعوا.. فوقـف الرابـاي مـن مكانـه وقـال بحـزم:

- اهــدؤوا قليــلاً.. لا يجــب أن تنســينا الفرحــة أنفســنا ونتــصرف بعشـوائية مثـل الغوغائيـين؛ يجـب علينـا الآن أن نركّـز فيمـا سـنقوم بـه بعـد ذلـك.

فسأله أحد الحاضرين:

- وماذا علينا أن نفعل الآن؟

- يجـب إرهـاب العـرب والقضـاء عليهـم، حـتى ولـو وصـل الأمـر إلى التصفيـة الجسـدية.. لا يجـب أن نعطيهـم الفرصـة كي يتجمعـوا أبـدًا.. كمـا يجـب أن نسـتمر في ضغطنـا عـلى الجماعـات اليسـارية المؤيـدة للعـرب.. هـؤلاء دعـاة السـلام الذيـن يريـدون بقـاء العـرب بيننـا ويخربـون دولتنـا.. إنهـم خونـة والعـدو الأول لإسرائيـل.

ثم نظر إلى ديفيد وزملائه ثم أكمل قائلاً:

- كمـا لا يجـب أن ننـسى أبناءنـا الشـباب ودورهـم الهـام في الجامعات والتجمعـات الشـبابية.. يجـب أن تعملـوا عـلى اسـتقطاب العديـد مـن الشـباب حولكـم وتسـيطروا عليهـم بأفكارنـا.. كمـا عليكـم أن تحاربـوا الطلبـة الفلسـطينيين وأعوانهـم مـن دعـاة السـلام وتقضـوا عليهـم.

ثم وقف من مكانه وأمسك بكأس من النبيذ وقال بقوة:

- لنشرب الآن نخب أرض الميعاد ويوم الخلاص.

فوقـف الجميـع ممسـكين بكؤوسـهم ورفعوهـا عاليًـا وأخـذوا يـرددون بصـوت عـالٍ:

- نخب أرض الميعاد ويوم الخلاص.

وبعـد أن رحـل الجميـع.. دخـل الرابـاي شـمعون إلى حجـرة صغـيرة، فسـار ديفيـد خلفـه ونقـر البـاب ودخـل، فوجـده واقفًـا يقـرأ في كتـاب كبـير.. فهمّ ديفيـد بالخـروج، فأحـس بـه الرابـاي وطلـب منـه الانتظـار.. فقـال ديفيـد بهـدوء:

- أعتـذر سـيدي الرابـاي.. يبـدو أنـك كنـت تصـلي وقـد عطلتـك عـن قـراءة المزامـير.

فاستدار الراباي شمعون ورد بعينين لامعتين:

- إنـني لـم أكـن أصـلي.. وتلـك ليسـت المزامـير.. بـل إنـه كتـاب أخطـر وأقـوى.. يجـب عـلى كل صهيـوني أن يقـرأه ويؤمـن بمـا في داخلـه ويطبّقـه حرفيًـا، كي نحافـظ عـلى كيـان إسرائيـل ونسـيطر عـلى كل مـن حولنـا.. إنـه «برتوكـولات حكمـاء صهيـون».

فأخـذ نسـخة مـن الكتـاب وأعطاهـا لديفيـد وأمسـك بيديـه بقـوة قائـلاً:

- هـذه نسـخة لـك.. ديفيـد.. إنـه دسـتورنا الـذي نعيـش بـه.. خـذه واحتـوِه بقلبـك.. أنـت وأمثالـك أمـل بنـت صهيـون.. الأمـة العبريـة الـتي جـاءت لتعيـد الشـتات وتسـيطر عـلى العالـم.

فنظـر إليـه ديفيـد نظـرة عميقـة وأخـذ الكتـاب وأخـذ يقلـب فيـه، فقـال لـه الرابّـاي:

- حكومـات العالـم أصبحـت تحـت أيدينـا بفضـل هـذا الكتـاب.. عام بعـد عـام ونحـن نطبـق البروتوكـولات الـ٢٤ بمنتهـى الحرفيـة والدقـة.. بدايـة مـن السـيطرة عـلى التجـارة والصناعـة والزراعـة، ثـم الهيمنـة عـلى مصـادر الفكـر وإفسـاد التعليـم ونـشر الجهـل.. ومنهـا إلى القبـض عـلى زمـام الصحافـة ووسـائل توجيـه الـرأي العـام.

فاتسـعت مقلتـا ديفيـد وهـو يسـمع كلام الرابّـاي بينمـا يتصبـب العـرق منـه.. ثـم أكمـل الرابّـاي:

- انظـر كيـف صنعنـا في الشـعوب العربيـة مـن حولنـا.. جعلناهـم مغيـبي الوعـي ومشـتتي الفكـر، لا ديـن لهـم أو هويـة.. ضـاع بينهـم دينهـم وأخلاقهـم حـتى يكونـون فريسـة سـهلة لغرائزهـم، ومـن ثـم لنـا.. جعلنـا مـن رؤسـائهم طواغيـت عليهـم بيدهـم كل مقاليـد الأمـور.. وهـم في حقيقـة الأمـر ينفّـذون أهدافنـا.. وجعلناهـم يكتبـون دسـاتير بلهـاء لا قيمـة لهـا يعتقـدون أنهـا المـلاذ لهـم.. كل هـذا بفضـل هـذا الكتـاب.

فابتلع ديفيد ريقه وقال بصوت مهزوز:

- ولكـن كيـف حافظتـم عـلى سريـة هـذا الكتـاب سـيدي الرابّـاي؟ أعـرف أنـه كان مـن المسـتحيل طباعتـه ونـشره.

- لقـد صنعنـا المسـتحيل كي ننكـر صلتنـا بـه أمـام العالـم ولا تصـل تلـك البروتوكـولات إلى أيـدي العـرب ولا يفهمـوا مضمونهـا.. سـنوات وسـنوات ونحـن نخفـي أمرهـا ويجـب أن نسـتمر في تنفيـذ تلـك البروتوكـولات في سريـة ودقـة وهـذا مـا يضمـن لنـا النجـاح.. وأي مخلـوق يحـاول أن يقـف في طريقنـا ليـس لـه سـوى المـوت.

- أمرك سيدي الرابّاي.

ثـم ربـت الرابـاي عـلى كتـف ديفيـد وانحـنى ديفيـد عـلى يديـه يقبلهـا ثـم غـادر المـكان.. ومثلمـا جـاء خفيـة رحـل ديفيـد عـبر شـوارع وطرقـات القـدس الداخليـة المظلمـة خفيـة، دون أن يـراه أحـد، حـتى وصـل إلى شـقته «الاسـتوديو» الواقعـة في الطابـق الأخـير في عمـارة يقطنهـا الطلبـة والدارسـون بشـارع «بنجامـين دزرائيـلي» بحـي «تلبيـة».. فصعـد خفيـة وأغلـق البـاب خلفـه بالعديـد مـن الأقفـال، فلـم يكـن يأمـن لأي أحـد في حياتـه سـوى نفسـه بـل أنـه كان يصـل إلى درجـة مـن الوسوسـة والشـك أن يعيـش وحـده بعيـدًا عـن أهلـه.. وكانـت تلـك الحجـرة الصغـيرة تغطـي جدرانهـا نجمـة داوود وصـور لزعمـاء الصهيونيـة العالميـة، أمثـال

«تيـودور هرتـزل» مؤسـس الصهيونيـة و«سـبتاي زئيفـي» الـذي ادّعـى أنـه المسـيح المخلّـص في القـرن السـابع عـشر، وصـور لكبـار حركـة الـكاخ الإرهابيـة الـتي ينتمـي إليهـا ديفيـد نفسـه، أمثـال «مائـير كاهانـا» مؤسـس الحركـة والإرهـابي «إيـلي هازئيـف».. تلـك الحركـة الـتي تؤمـن بتحقيـق أحـلام الصهيونيـة بالتـوراة والسـيف، وتنـادي بالخـلاص مـن الفلسـطينيين إمـا بالقتـل وإمـا بالطـرد، هـم ومـن يؤيدهـم.. فقـد علـق أعـلى سريـره علـم الحركـة مثـل الموجـود عنـد مـنزل الرابـاي.. ورغـم أنـه ذو خلفيـة دينيـة عميقـة وأهلـه مـن «الحريديـم» المتعصبـين الذيـن هاجـروا طواعيـة لإسرائيـل، لكنـه زاد في تطرفـه وعـاش بعيـدًا عنهـم.. خلـع ديفيـد «الـتي شـيرت» وجلـس أمـام المـرآة نصـف عـارٍ، يتأمـل الوشـوم الـتي تغطـي جسـده وكأنهـا غابـة مـن التعاويـذ والإشـارات.. فعـلى جانـبي ظهـره مرسـوم عبـارات مـن التـوراه بالعبريـة، وفي المنتصف رسـم تعويـذة كـف الخمسـة أو «كـف مريـم» أخـت النـبي مـوسى وهـارون، والـذي يحمـي ويمنـع الحسـد، بينمـا رسـم عـلى صـدره جهـة اليمـين أسـدًا يقـف عـلى خلفيتـه، وهـو أسـد يهـوذا أحـد أسـباط اليهـود، وعـلى اليسـار نجمـة داوود غـير الـتي عـلى ذراعـه.

جلـس ديفيـد عـلى السريـر وهـو يتحسـس صفحـات كتـاب البروتوكـولات، بينمـا تشـع كلماتهـا في وجهـه وكأنهـا تـضيء الحجـرة، لتداعـب خيالـه المريـض ورغباتـه الوحشـية، كلمـا وجـد كلمات «الجشـع» و«الإرهـاب» و«العنـف» و«قـوة الذهـب» و«السـلطة».. أخـذت عينـاه تـدور بـين صفحـات الكتـاب وهـو في انتظـار ملـك إسرائيـل، وعـلى رأسـه المقـدس التـاج، ليصبـح بطريـرك العالـم، وينهـض ببنـت صهيـون لتحكـم عالـم «الجوييـم»، أي الأغيـار.

وسـط هـذا الطوفـان مـن الأفـكار الشريـرة لـم ينـس كلمـات الرابـاي بسريـة تلـك البروتوكـولات.. فأخـذ الكتـاب ووضعـه أسـفل مرتبـة سريـره،

ثـم اسـتلقى عـلى ظهـره وهـو يتخيـل أن ينتقـم مـن كل العـرب وينـكّل بهـم، وهـو يـردد «المـوت للجوييـم».

*****

عـاد الدكتـور ماكلـين إلى المـنزل بعـد يـوم طويـل في الجامعـة، فوجد يـوري يصعـد خلفـه ممسـكًا بأكيـاس بهـا زجاجـات الويسـكي رخيـص الثمـن، وإن كان في حالـة وعـي أفضـل.. فمـا أن رآه يـوري حـتى أخـذ يحييـه صارخًـا «دكتـور ماكلـين.. دكتـور ماكلـين»، فانتبـه إليـه واسـتدار كي يسـلم عليـه.. فقـال لـه يـوري:

- شـالوم دكتـور ماكلـين.. أريـد أن أشـكرك عـلى مـا فعلتـه معـي أول أمـس.

فربت الدكتور ماكلين على كتفه وقال:

- لا تشكرني.. أنت كنت تحتاج إلى مساعدة.

- والآن أنـا أدعـوك لمشـاركتي كأسًـا مـن الويسـكي.. إن لـم يكـن لديـك مانع.

فصمـت قليـلاً ثـم أومـأ بالموافقـة.. فدخـل كلامهـا إلى شـقة يـوري والـتي كانـت في حالـة مذريـة مـن الفـوضى.. فزجاجـات الويسـكي والبرانـدي متراميـة أسـفل الكـراسي وعـلى الأرض، وأطبـاق الطعـام ملقـاة عـلى منضـدة الصالـون، يقـع منهـا بقايـا الطعـام رائحتـه عفنـة، والأتربـة والغبـار يمـلآن المـكان.. فأمسـك يـوري بفوطـة ونظـف أحـد كـراسي الصالـون كي يجلـس عليهـا الدكتـور ماكلـين قائـلاً:

- أعتذر عن تلك الفوضى التي تراها.

- لا عليك يا عزيزي.

وبينمـا اتجـه هـو إلى المطبـخ ليحـضر كأسـين للـشراب، أخـذ يرمـق

الدكتـور ماكلـين هـذا الوضـع المأسـاوي وهـو يحـاول التملـص للمغادرة، حـتى جـاء يـوري ومعـه كأسي الويسـكي.. أخـذ الدكتـور ماكلـين كأسـه ولم يسـتطع منـع نفسـه مـن السـؤال الملـحّ:

- كيف تعيش هكذا يوري؟!

فأخذ يوري رشفة من الويسكي وقال:

- أنـا عـلى هـذه الحـال منـذ ثـلاث سـنوات.. أعيـش هنـا وحـدي ولا أحـد يتصـل بي.. لقـد كنـت أعمـل مديـر حسـابات في بنـك «هبوأليـم»، أكـبر بنـوك إسرائيـل، وكنـت ذا مركـز مرمـوق.. ولكـن بسـبب مشـاكل مـع مديـر البنـك ورغبتـه في تعيـين أحـد أقربائـه قـام بإلصـاق تهمـة اختـلاس لي، وتـم طـردي مـن البنـك دون حـتى أن آخـذ مكافـأة نهايـة الخدمـة.

فنظـر الدكتـور ماكلـين إلى صـورة مائلـة معلقـة عـلى الجـدار ليـوري ومعـه امـراة وأطفـال.. فـتردد في السـؤال، فلمـح يـوري السـؤال في عينيـه وبـادره بالإجابـة:

- هــذه زوجــتي «علــيزا» وهــؤلاء أبنــائي «شــيمون» و«جافريــلا».. بالطبـع هــذا الوضــع لــم يرضِهــا بعــد أن أصبحــت فضيحــة كبــيرة.. فــزادت مشــاجراتنا اليوميــة حــتى أخــذت الأولاد وهربــت..

فصمـت الدكتـور ماكلـين قليـلاً وظهـر عـلى وجهـه التأثـر ورد بصـوت خافت:

- وكيف تدير حياتك الآن؟!

- أعمــل محاســبًا في مطعــم قريــب مــن هنــا.. بالطبــع لــم أعــد أتحصّـل سـوى عـلى مرتـب ضئيـل لا يزيـد عـن ٤٠٠ شـيكل.. حـتى أنـني أحصـل عـلى الويسـكي بالقسـط مـن المطعـم.

ثم قام من مكانه وأخذ يترنّح في جنبات الشقة قائلاً:

- منـذ ذلـك الحـين وأنـا لا أجـد أي صديـق لي سـوى زجاجـة الويسـكي ومائـدة القمـار.. فكنـت ألعـب كثـيرًا عـلى أمـل التعويـض واكتسـاب

المـال.. ولكـن كعـادة حظـي السـيئ أصبحـت أخـسر، حـتى بـدأت أبيـع أجـزاء مـن أثـاث البيـت كمـا تـرى.

فـازدادت علامـات التأثـر عـلى وجـه الدكتـور ماكلـين.. فأكمـل يـوري بعدمـا أخـذ رشـفة مـن كأسـه:

- أتعـرف يـا عزيـزي أنـت الوحيـد منـذ أعـوام الـذي زرتـني في بيـتي.. بـل أنـت الوحيـد الـذي اهتـم بأمـري هنـا.. حـتى أنـني يمكـن أن أمـوت في هـذا المـكان دون أن يشـعر بي أحـد.

فأخـرج الدكتـور ماكلـين مـن جيبـه دفـتر شـيكات وكتـب شـيكًا ووضعه بجـوار كأس يـوري.. فأبعـد الشـيك عنـه متصنّعًا:

- أنا لا أخبرك قصتي كي تعطيني مالاً.

- هذا ديْن.. يمكن أن تسدده لي في أي وقت.

فأمسك يوري الشيك بلهفة ووضعه في جيبه قائلاً:

- هـذا المبلـغ سـوف يحـل لي مشـاكل كثـيرة.. أشـكرك بشـدة دكتـور ماكلـين.

- إذا احتجت أي شيء لا تتردد في طلبه مني يوري.

فمسح يوري دمعه الذي تسلل منه وردّ:

- أنـت فعـلاً صديـق رائـع دكتـور ماكلـين.. يـا ليتـك كنـت في إسرائيـل منـذ زمـن.

نـام يـوري في مكانـه مـن شـدة السُـكر ودخـل الدكتـور ماكلـين شـقته وجلـس عـلى مكتبـه، وهـو يحـاول اسـتجماع أفـكاره ليكتـب بعضًـا مـن مذكراتـه.. فـكل مـا يـراه في إسرائيـل سـواء في تـل أبيـب أو القـدس أصبـح يلهـب تفكـيره ويمـده بالإلهـام.. فمنـذ وصولـه إلى القـدس أخـذ يخفـي صفحـة مذكراتـه القديمـة ويفتـح صفحـة word جديـدة عـلى الـلاب تـوب الخـاص بـه، ليكتـب مشـاعره الجديـدة.. أحـضر بجانبـه كأس الكونيـاك اليومـي كي يعطيـه جرعـة خاصـة مـن الإلهـام وسـط إضـاءة خافتـة..

وسرعان ما سيطر عليه ما رآه في شقة يوري وحالته المذرية.. "ذلك اليهودي البائس الذي حطمته ظروفه السيئة.. صراعه في العمل الذي وصل به إلى الهاوية لمجرد أن ليس له وساطة أو قدرة تجعله يصمد أمام أطماع مديره.. وجعلته يدمن الخمر ويصبح عبدًا له ويدخل دوامة الاكتئاب، كما كنت في هذا الطريق.. لا أعرف كيف أساعده.. ولكنه أصبح مستسلمًا لما هو فيه.. يبدو أن يوري أحب الشعور بالضياع والتلذذ بتعذيب الذات.. كل ما أستطع أن أقدمه له زجاجة براندي أو كونياك أو أقرضه بعض المال أثناء لعبه للقمار".

أخذ رشفة من كأس الكونياك وأخذ يقلب فيما كتبه من قبل عن انطباعه عن طلبة القسم والجامعة العبرية.. "هؤلاء الطلبة بهم روح غريبة.. هجين غريب من البشر في مكان واحد وكأنهم نموذج مصغر لإسرائيل:

ديفيد ياكوفيتش: ذلك الفتى مفتول العضلات ذو الأصل الروسي، والذي يعتبر نفسه فوق الجميع.. متفوق دراسيًا ويتمتع بنفوذ وتأثير بين أقرانه، فهو قائد الفصل وله كلمة مسموعة بينهم، ولا يتحرك إلا ومعه صحبته التي تتبعه كالساحر.. ولكنه يُسخّر ذكاءه في سبيل الشر وتدمير كل ما حوله.. وبداخله كمّ من التعصب والكره للعرب ومحبي السلام يكفي لتدمير إسرائيل كلها.

مريم عازار: جميلة القسم.. فالجميع ينتظرها ويتمنى الحديث معها.. دائمًا ما أجدها تضحك وسط الجميع، ولكن هناك شيئًا ما تدفنه بداخلها.. أرى في عينيها تحديًا كبيرًا ورغبة في التفوق.. وأتوقع أنه سيكون لها مستقبل كبير في الجامعة.

مصطفى "العربي": فتى أسمر معتز بنفسه.. لم أقابل مثله في حياتي.. رغم وجود الكثير من الطلبة الأجانب والعرب يدرسون في جامعات الولايات المتحدة، لكنها أول مرة أرى طالبًا عربيًا يدرس في

جامعـة إسرائيليـة.. جامعـة دولـة يـرى أنهـا تحتـل أرضـه.. شـاب حياتـه أشـبه بلغـز.. رغـم أنـي أسـتاذه لكنـني أراقبـه عـن كثـب.. وأريـد أن أعـرف المزيـد عـن تفاصيـل حياتـه.. كيـف يفكـر الفلسـطيني؟ وكيـف يتعامـل مع الإسرائيـلي وهـو دائمًـا مـا يحمـل السـلاح في وجهـه؟! كيـف يـأتي أحدهـم إلى نفـس الجامعـة ليتعلـم وبجـواره مـن يراهـم أعـداءه؟!".

كل مـا يقـوم بـه الدكتـور ماكلـين أو يقولـه في بيتـه مراقـب بكامـيرات وميكروفونـات عاليـة الجـودة.. وضعـت لـه في أماكـن متعـددة دون أن يلاحظهـا.. بينمـا يجلـس فريـق مخصـص مـن الشـين بيـت بمراقبـة كل تصرفاتـه وتسـجيلها وكتابتهـا في تقاريـر تصـل لإبـرام أولاً بـأول.. وأثنـاء مراقبتهـم لـه وجـد أحـد الضبـاط الشاشـة أمامـه، والـتي تراقبـه في حجـرة نومـه، قـد حـدث بهـا تشـوّش، فقـام مـن مكانـه منزعجًـا وهـرع إلى الكولونيـل ليبلغـه.. فارتسـمت عـلى وجهـه تقاسـيم الغضـب وقـال:

- كيـف يحـدث هـذا؟ تأكـد مـرة أخـرى أن العيـب مـن الشاشـة وليـس الكاميرا.

فتلجلج الضابط وقال:

- متأكـد سـيدي الكولونيـل.. هنـاك مشـكلة في الكامـيرا الموجـودة بحجـرة النـوم.

- وما العمل إذن؟

- يجب أن يتم تصليحها مرة أخرى في مكانها سيدي.

فصمت زيفي قليلاً وهو يفرك ذقنة العظمية المدببة وقال:

- يجـب أن يتـم هـذا الأمـر في أسرع وقـت.. نحـن نحتـاج إلى تلـك الكامـيرا بالـذات لأمـر مهـم.

- الآن سيدي.

فوخزه زيفي في كتفه وقال بعنف:

- لا يـا غـبي.. يجـب أن ننتظـر خروجـه مـن المـنزل كي نعمـل بهـدوء

ودقـة.

- تمام سيدي الكولونيل.

*****

في منتصـف الليـل وقـف الكولونيـل باركـر أمـام فنـدق "كيـكار زيـون" ذي النجـوم الأربـع في شـارع "بـن يـودا" وأمامـه صندوقـان كبـيران لأجهـزة كمبيوتـر ادّعـى أخذهمـا مـن العـراق كغنائـم حـرب.. حـتى وقفـت أمامـه سـيارة شـيروكي ونـزل منهـا راؤول رود، ووضعـا بهـا الصندوقـين وانطلقـا إلى شركـة رود بعـد أن أغلقـت أبوابهـا في تمـام السـابعة.. فدخـلا وسـط الظـلام إلى مكتبـه وأضـاء إضـاءة خفيفـة.. فوجـد باركـر شـخصين في انتظـاره، همـا بـن أهـارون ومديـر متحـف إسرائيـل الوطـني.. وبعـد أن تعـرّف عليهمـا باركـر فتـح الصندوقـين وأخـرج مجموعـة رائعـة مـن التماثيـل الصغـيرة للملـك "حامـورابي العظيـم" ملـك بابـل، مـن الجرانيـت، وقطعًـا حجريـة منقوشـة بالمسـمارية، تضـم أجـزاء مـن قوانـين حامـورابي الـتي تمـيزت بهـا الدولـة البابليـة، وخناجـر ذهبيـة عليهـا اسـم الملـك الآشـوري "آشـور بانيبـال".. فأمسـكها كل مـن بـن أهـارن ومديـر متحـف إسرائيـل بلهفـة، وأخـذا يقلبـان فيهـا بيديهمـا، بينمـا توقفـت أنفاسـهما وهمـا لا يصدقـان مـا أمامهمـا.. ثـم أخـرج باركـر حافظـة صغـيرة وفتحهـا وأخـرج منهـا مجموعـة مخطوطـات عليهـا اسـم الملـك نبوخـذ نـصر البابـلي، تصـف عمليـة تدمـير هيـكل سـليمان بالقـدس وسـبي الآلاف مـن اليهـود، وهـو مـا عـرف بالسـبي البابـلي عـام 586 ق.م. حينمـا انطلـق ذلـك الملـك الصـارم ذو الحواجـب السـميكة واللحيـة المضفـرة عـلى صهـوة جـواده، وخلفـه جيـش جـرار مـن جنـود غـلاظ يدكـون أسـوار القـدس عـلى رؤوس سـكانها مـن مملكـة يهـوذا..

فهرع الناس في الشوارع يحاولون جمع ما استطاعوا جمعه، ولكنهم سقطوا أمام سنابك هذا الجيش الذي اجتاحهم كالإعصار المميت، فقتلوا منهم بسيوفهم ورماحهم الآلاف ودمروا كل ما أمامهم من بيوت ومبانٍ.. حتى اجتاحوا الهيكل الذي بناه ملك إسرائيل سليمان ذا الأعمدة الذهبية والجدران المرصّعة بالياقوت والزمرّد، فدمروه عن بكره أبيه ولم يبق منه سوى الأطلال، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وتماثيل ذهبية.. بل أنهم ساقوا سكان يهوذا وسبوا الآلاف منهم في طوابير طويلة إلى بابل يكسوهم العار والذلة، بعدما أصبحت أورشليم مخربة.

تصفح بن أهارون مخطوطات أخرى، تصف مملكة إسرائيل في عهد الملك سليمان وفرقها العسكرية بالقوة والشجاعة والثراء الوفير، وثالثة عليها اسم الملك الفارسي "قورش" والذي سمح فيه لليهود بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، بعد تدمير مملكتهم على يد ملوك بابل، ومنحهم الأموال لتجديد بناء هيكلهم، ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن بابل بعد قرون الذل والهوان.. فأمسك بن أهارون بهذا المخطوط وهو يتحسسه بقوة قائلاً:

- هذا هو وعد بلفور الأول.. أول تصريح بعودتنا لأرض الوطن.

فرد مدير المتحف قائلاً:

- هذه الوثائق في غاية الخطورة.. كيف كانت طوال تلك الفترة في أيدي العرب وليست في أيدينا؟!

فأكمل بن أهارون:

- لقد كنا ننتظر تلك اللحظة منذ سنوات.. نحاول بكل الطرق الحصول على تلك المخطوطات الخطيرة.. وها قد جاءت اللحظة الحاسمة.. تلك الوثائق ستغيّر مجرى التاريخ، كما أنها ستظل عندنا

للأبـد.

ثم أخرج باركر وثيقة حديثة وأعطاها لبن أهارون وهو يضحك:

- أعتقد أن تلك الوثيقة هي هدية لك.

فأمسـك بـن أهـارون بوثيقـة ملكيـة أرض بالموصـل ترجـع لعـام 1887، خاصـة بعائلـة بـن أهـارون عراقيـة الأصـل، قبـل أن يتـم تهجيرهـا لإسرائيـل عـام 1948.. فلمعـت عينـاه بقـوة وطـاف بذاكرتـه عندمـا كان صبيًـا في العـاشرة مـن عمـره، يلهـو في شـوارع الموصـل، حينمـا عملـت الحكومـة العراقيـة عـلى تهجـير اليهـود عـن طريـق إرهابهـم وتفجـير دور عبادتهـم.. فقـرر "ساسـون" والـد حاييـم الهجـرة إلى إسرائيـل، تـاركًا وراءه جميـع ممتلكاتـه وبيتـه وأرض أجـداده، خوفًـا مـن أن يصيبـه أذى هـو وأسرتـه، المكونـة مـن حاييـم وإخوتـه الخمسـة وأمـه.. تذكـر لحظـة هروبهـم مـن العـراق عـبر سـيارات نقـل ضخمـة لـم يحملـوا معهـم سـوى القليـل مـن أغراضهـم، بعـد أن مـروا بالعديـد مـن نقـاط التفتيش، حـتى وصلـوا إلى أرض الميعـاد، مثلمـا سـمح قـورش لأجـداده بالعـودة بعـد تـرك بابـل.. نظـر بـن أهـارون إلى الوثيقـة وقـال بصـوت رخيـم:

- إنها أروع هدية صديقي باركر.

فقال رود ضاحكًا:

- أعتقد أن صديقنا الأمريكي يستحق هدية هو الآخر.

فربت مدير المتحف على كتف باركر قائلاً:

- هـذا أمـر مفـروغ منـه.. إنهـا خدمـة جليلة مـن صديق وفي.. والشـعب اليهـودي لـن ينسى خدمـات الأخت الكـبرى "الولايـات المتحدة".

فضحك باركر ضحكة صفراء، وردّ:

- والأخت الكبرى تنتظر مكافأة أحد جنودها الصغار.

فرد مدير المتحف:

- سـوف نُدخـل تلـك الكنـوز إلى مجموعـات عـرض المتحـف.. وبعدهـا

نحتفـل معًـا احتفـالاً كبـيرًا.

*****

جدران الغضب

خـرج دانيـال مـن مقـر عملـه بالجريـدة في منتصـف الليـل، بعدمـا تسـكع مـع جلعـاد كعادتهمـا، حـتى انـصرف، بينمـا أخـذ يسـير وحـده في الشـوارع الهادئـة المظلمـة، حامـلاً بعـض متطلبـات المـنزل، حـتى وصـل إلى منزلـه الواقـع بشـارع «هابلمـاخ» بوسـط القـدس.. أخـذ يصعـد السـلالم وهـو يلملـم سـاقيه مـن شـدة الإرهـاق، حـتى اقـترب مـن بـاب شـقته وأخـرج المفتـاح مـن جيبـه بصعوبـة ليضعـه بالبـاب.. فوجـده مواربًـا قليـلاً، فانتفـض مـن غفلتـه ودفـع البـاب بقـوة ودخـل المـنزل، وأخـذ يحملـق فيـه بعينـين مرتعشـتين.. فتجمّـد الـدم في عروقـه وارتفعـت دقـات قلبـه داخـل صـدره، وتحجّـر جسـده كالصنـم وسـقطت الأكيـاس مـن يـده، وتدحرجـت محتوياتهـا عـلى الأرض.. كان أثـاث المـنزل مهشـمًا ومبعـثرًا في كل مـكان، والأجهـزة محطمـة عـن آخرهـا، والدواليـب مفتوحـة، وكل مـا فيهـا ملقـى عـلى الأرض.. وكُتـب عـلى الجـدران باللـون الأحمـر «الخائـن» فهـرع إلى حجـرة المكتـب فوجـد أدراجـه مفتوحـة والأوراق منثـورة بطريقـة عشـوائية.. فأخـذ يبحـث بينهـا عـلى أوراق مقالاتـه بطريقـة جنونيـة، حـتى وجـد ورقـة عـلى المكتـب مكتوبـة باللـون الأحمـر تقـول «ابتعـد عـن العـرب.. وإلا قضينـا عليـك»، فالتقطهـا بيديـن مرتعشـتين وأخـذ يحملـق فيهـا.. وازدادت أنفاسـه في التصاعـد، وتمتـم في سره قائـلاً «هـم بالتأكيـد؛ لا أحـد غيرهـم يقـوم بذلـك» ثـم قبـض عليهـا بقـوة وأخـذ يـصرخ بصـوت عـالٍ «لكـن مهمـا حـدث لـن أصمـت ولـن أتوقـف عـن الـكلام».

وانطلـق إلى الشـارع حامـلاً مـا بقـي مـن أوراق، وهـو يضمهـا إلى صـدره لا يـدري أيـن يذهـب. أخـذت قدمـاه تقودانـه مـن شـارع إلى آخـر والأفكار المتضاربـة تحيـط برأسـه وتـشرده عـن مساره.. حـتى دخـل إلى شـارع مظلـم مسـدود بعيـد عـن العمـران يقتلـه السـكون الشـديد، مـلىء بأكـوام القمامـة.. وفجـأة شـق ظـلام الشـارع ضـوء سـيارة چيـب سـوداء، أخـذت تطـارده بسرعـة جنونيـة حـتى صدمتـه بجـدار.. فسـقط عـلى الأرض وسـقطت أوراقـه حولـه.. ونـزل مـن السـيارة أربعـة شـباب يرتـدون أقنعـة سـوداء ذوي بنيـة ضخمـة وأحاطـوه وأخـذوا يركلونـه بقـوة ويضربونـه بعـصي وجنازيـر في كل أنحـاء جسـده، وهـو يـصرخ ويحـاول المقاومـة، حـتى خـارت قـواه ونـزف الـدم مـن رأسـه.. فاقـترب أحدهـم منـه وجذبـه مـن شـعره وهمـس لـه في أذنـه بنـبرة سـاخرة قائـلاً:

- ألـم أقـل لـك لا تقـترب مـن العـرب؟! لكـن يبـدو أنـك لا تسـمع الـكلام.. ابـقَ هنـا حـتى يـأتي مـن ينجـدك.

فنظـر إليـه دانيـال بعينـين زائغتـين لا تريـان سـوى خيـالات، وهـو يحـاول رفـع رأسـه ناحيـة الصـوت الـذي أخـذ يتشـبّه عليـه.. حـتى انطلـق صـوت سـيارة شرطـة تقـترب مـن الشـارع.. فانتفـض أحدهـم وهـو يقـول لزميلـه بقـوة:

- دعك من هذا ديفيد.. هيا بنا نهرب.

فهرعـوا جميعهـم إلى السـيارة وانطلقـت بعيـدًا.. حـتى وصلـت سـيارة الشرطـة إلى المـكان ونـزل الضبـاط وأحاطـوا بالمـكان، واسـتدعوا سـيارة إسـعاف وحملتـه إلى المستشـفى، ودمـاؤه تسـيل عـلى وجهـه وتلطـخ كل ملابسـه.. بينمـا تطايـرت أوراقـه في كل مـكان تغطيهـا قطـرات دمـه.

داخـل مستشـفى «حداسـا» بحـي عـين كارم بالقـدس.. امتـلأت الطرقـات المؤديـة إلى حجـرة دانيـال بباقـات الـورود، بينمـا كانـت تعـج حجرتـه بالـزوار.. سـار كل مـن مصطفـى ومريـم نحـو الحجـرة وهـي

تحمـل باقـة ورد ودخـلا إليـه، فوجـداه راقـدًا عـلى سريـره مربّطًا بالشـاش في معظـم جسـده، والسـجحات تمـلأ وجهـه وبجـواره صديقـه جلعـاد.. فنظـر إليهمـا بعينيـه اللامعتـين رغـم انهيـار جسـده، واقتربـت مريـم مـن السريـر ووضعـت الباقـة بجانبـه قائلـة:

- الجامعة كلها تريد أن تزورك.. أنت لا تعرف كم نحن نفتقدك!

فابتسم دانيال دون أن ينطق.. وأمسك مصطفى بيده وقال:

- ألم أقل لك أن الطريق صعب؟! لكنك قوي وسوف تعود.

فردّ جلعاد بصوت قوي قائلاً:

- هـذه هـي ضريبـة الحريـة.. لكـن كلمـة الحـق يجـب أن تقـال مهمـا كان الثمـن.

فارتسـم القلـق عـلى وجـه مريـم وهـي تحملـق في جسـده المنهـك وقالـت:

- ألا تعرف ماذا فعلوا بديفيد؟

فرد دانيال بأسى:

- لقـد أثبـت عـدم وجـوده باورشـليم في هـذا الوقـت.. لقـد شـهد كل مـن دان وعومـير معـه أنهـم كانـوا في نزهـة ب«حيفـا» ولـم يعـودوا سـوى اليـوم.

فتنهد مصطفى قائلاً:

- هنـاك مـن يدعـم ديفيـد ومـن معـه.. حـتى القانـون يمكـن أن يطوّعـوه لمصلحتهـم.. يصبحـون في موقـف الشـهداء بـدلاً مـن القتلـة.

فقاطـع مصطفـى نقـر عـلى البـاب ودخـل الدكتـور ماكلـين وهـو يحمـل باقـة ورد.. فانتبـه الجميـع والدهشـة تمـلأ وجوههـم، وقـام مصطفـى ومريـم مـن مكانهمـا، بينمـا هـمّ دانيـال مـن رقدتـه كي يصافحـه.. فـأسرع الدكتـور ماكلـين نحـوه وهـو يربـت عـلى كتفـه وقـال بصـوت هـادئ:

- لم أستطع التأخر عن البطل الذي هز الجامعة العبرية كلها.. لقد كنت تذكّرني بهتافاتك بأيام دراستي في الجامعة، وما كنا ننادي به من حريات ومظاهرات ضد حرب «فيتنام».. وها أنت تعيد لي شبابي من جديد.

فرد دانيال:

- أنا لا أعرف كيف أرد على كلمات أستاذ مثلك.. تلك الزيارة وحدها أكدت ثقتي في نفسي.

فردت مريم مبتسمة:

- أرأيت؟ كل الجامعة تقف بجوارك!

فقاطعها الدكتور ماكلين قائلاً:

- الجامعة لا تتحدث سوى عما حدث لك.. وديفيد ومن معه يشيعون ببراءتهم عن الحادث.. لكن لا أحد يصدق.. وأنا شخصيًا غير مقتنع بما يدور في التحقيقات، وخاصة بعد أن أفرج عنهم بتلك السرعة.. إنهم مجموعة من المتعصبين يجب إيقافهم عند حدهم.

فاقتربت مريم من الدكتور ماكلين، وقالت له بصوت خافت وعلى ملامحها القلق:

- دكتور ماكلين.. سأخبرك شيئًا لا أحد يعرفه بالجامعة العبرية سوى القليل.. إنه سر بيننا.. ديفيد وأصدقاؤه ليسوا مجرد مجموعة من الشباب المتعصبين فحسب.. إنه عضو بجماعة «كاخ» الدينية المحظورة، والتي لها مخططات دموية، وتقوم بعمليات مشبوهة ضد العرب واليهود أنفسهم، ما دامت ضد مصالحهم.. والخطير أن السلطات تعلم بأمرهم، لكنها لا تتخذ أي إجراء ضدهم إلا إذا تجاوزوا حدودهم.. والأخطر أنهم لسوا الوحيدين الذين ينتمون إلى تلك الطائفة بالجامعة.. بل هناك أساتذة أيضًا.

فصمت الدكتور ماكلين واكتسى وجهه بقناع من الحيرة والشرود، ورد بصوت ضعيف:

- لقد كنت أظن أن صوت الحق دائمًا ما ينتصر.. لكن ما نشاهده على الشاشات ونقرأه بالصحف من دفاع عن الحرية والمساواة لم يكن سوى زيف.

فنظر إليه دانيال وقال:

- التعصب والكراهية أصبحا في كل مكان.. وهؤلاء الشباب ما هم إلا مجموعة من المتعصبين يجرون خلفهم مجموعة من الجهلة.. يحسبون أنهم هكذا يحمون إسرائيل ولكنهم يدمرونها.

فرد مصطفى قائلاً:

- وبعد كل ما يجري يطلبون منا سلامًا وهدوءًا! أي سلام يريدونه وهم يحاربون أنفسهم بأنفسهم؟!

فنظر الدكتور ماكلين إليهم وأخذ عقله في الشرود.. ودار في ذهنه كلمات الدكتور بن أهارون في أروقة جامعة شيكاجو، عندما كان الدكتور ماكلين يدعوه لإلقاء محاضرات عن الحرية والديموقراطية في إسرائيل.. كلماته الرنانة وأسلوبه الحماسي الذي اجتذب أساتذة الجامعة قبل طلبتها وهو يتحدث.. في الوقت الذي تعتلي ملامحه علامات التشنج ويهتز صوته من شدة الانفعال، وهو يروي تاريخ النضال ضد العرب وإقامة الدولة العبرية على أرض الميعاد، حتى ضجت جدران الجامعة بالتصفيق ودموع الانفعال تذرف من عينيه.. فأخذ الدكتور ماكلين يغمغم في سرّه «أنا لا أصدق.. لا أصدق».

*****

أخـذت مريـم تسير بجانـب مصطفـى بـين الطرقـات، وهـواء الشـتاء البـارد يمـوج حولهمـا، وقطـرات الـبَرَد تتسـاقط عـلى شـعرها.. كانـت السـماء المغيمـة تنـذر بمطـر غزيـر فوقهمـا، وهـي تفـرك يديهـا بقـوة ووجههـا البـارد تسـير بعروقـه الدمـاء السـاخنة وملامـح الـشرود تمـلأ تفاصيلـه، وعيناهـا تائهتـان بـين المـارة.. نظـر مصطفـى إليهـا وهـو يراقـب عينيهـا وتقاسـيم وجههـا قائـلاً:

- منـذ أن خرجنـا مـن المستشـفى ولـم تنطقـي بـأي كلمـة.. لـم أكـن أعـرف أن قلبـك ضعيـف لهـذه الدرجـة.

فحرّكت عيناها من ثباتهما ونظرت إليه في شرود وقالت:

- أتعـرف؟! مـا حـدث اليـوم جعلـني أشـعر بالخـوف أكـثر مـن أي وقـت.. لقـد هـز قلـبي بعنـف.. مـا حـدث لدانيـال اليـوم يمكـن أن يحـدث لأي أحـد منـا في أي وقـت.. ولـن نجـد مـن يأخـذ بحقنـا.

فأمسك مصطفى بيدها ونفخ فيها قائلاً:

- أنـت تعلمـين أن هـذا الكيـان لا يحكمـه سـوى الأقـوى.. ومـن يحاول أن يخـرج عـن النظـام لا يجـد سـوى القـوة، إمـا لتعيـده مـرة أخـرى وإمـا تدفنـه إلى الأبد.

- أمثـال ديفيـد ورفقائـه أصبحـوا يملـؤون الجامعـة.. بـل إسرائيـل كلهـا.. هـم الذيـن يتحكمـون في كل شيء، ويجـب أن يخضـع لـه الجميـع وإلا كان هـذا مصيره.. أنـا خائفـة.. أنـا خائفـة.

وبـدأت الدمـوع تنهمـر عـلى وجههـا البـارد لتشـعله، وازدادت رعشـة يديهـا، حـتى مـلأت جسـدها كلـه، فضمهـا مصطفـى إلى صـدره ومسـح دمعتهـا ونظـر داخـل عينيهـا الخائفتـين وقـال:

- لا تخافي.. أريدك أن تتماسكي أكثر من هذا.

فردت بصوت هادئ:

- أتعـرف؟ أنـت الـشيء الوحيـد الـذي يبقيـني في هـذا البلـد! فأنـا لا

أشـعر بالأمـان سـوى معـك وداخـل حضنـك.

- لكنــي لــن أبقــى معــك طويــلاً.. كمــا أن هــذا الكيــان لا أنتمــي إليـه.. سيأتي اليـوم لأعـود فيـه إلى بلـدي وأهـلي.. وأنـت تبقـين هنـا في مجتمعــك بــين أهلــك وأصدقائــك وعملــك.

- ولمـاذا لا نعيـش معًـا؟! لمـاذا لا نجعـل بلـدي وبلـدك كيانًـا واحدًا.. نبـني فيـه بيتنـا الهـادئ ونعيـش فيـه معًـا في حب وسـلام.

فنظر إليها نظرة عميقة وابتسم قائلاً:

- صدقيـني.. لا أحـد يريـد أن يعيـش في الحـرب للأبـد.. ولكـن الحـب والـدم لا يجتمعـان.. يجـب أن نـنزع جميعنـا السـلاح حـتى نسـتطع العيش في سلام.. نحـن عـلى أرض نـزع مـن قلبهـا بـذور الحـب، ليغـرس فيهـا أغصـان الشـوك والحديـد.. ومـا تطلبينـه اليـوم لـن يتحقـق إلا بعـد أن تـزال كل هـذه الأشـواك.. هـي ومـن زرعهـا.. ويعـود الحـق إلى صاحبـه والبعيـد إلى داره.. حينهـا يمكـن أن ينبـت الحـب مـن جديـد.

فأمسكت يده بقوة وقالت له وهي تمسح دموعها:

- وأنا سأظل معك حتى يأتي هذا اليوم.

- صعـب.. يجـب أن تفكـري بعقلـك قبـل مشـاعرك. نحـن مـن عالمـين مختلفـين مـن الصعـب أن يدمجـا معًـا مـرة واحـدة.. صدقيـني مهمـا فعلنـا فأحلامـك لـن تتحقـق.. هنـاك واقـع أقـوى مـني ومنـك، يجـب أن نواجهـه ونتعايـش معـه.

أخــذت أقدامهمــا تسـير بهمــا حــتى وصــلا إلى محطــة الأوتوبيــس.. وصعــدت مريــم لتركــب.. فأمســك بيدهــا وقــال بصــوت رقيــق:

- أرجوكِ اهتمي بنفسك.

فاستدارت له وقالت:

- وأنت أيضًا.

وأخــذ يراقــب الأوتوبيــس حــتى غــادر المحطــة.. ثــم أخــذ يتمــشى

حـتى أخـذ الأوتوبيـس المتجـه إلى المدينـة القديمـة، مـارًا بالعـشرات مـن نقـاط التفتيـش، حـتى نـزل أمـام المـنزل.. فوجـد زحامًـا أمـام المدخـل والعديـد مـن النـاس في حالـة اضطـراب.. فتزاحـم بـين النـاس وهـرع إلى داخـل المـنزل.. فوجـد جارتـه أم محمـود راقـدة عـلى الأرض في حالـة إعيـاء وحولهـا أولادهـا، بعـد أن هاجمتهـا أزمـة قلبيـة مميتـة.. فـصرخ محمـود ابنهـا:

- لقـد بحثنـا عـن أدويـة لهـا لكننـا لـم نجـد.. حالـة الحصـار الـتي فرضهـا الملاعـين سـتقتل أمـي.

فرد مصطفى بقوة:

- إذن يجب أن ننقلها إلى أقرب مستشفى بالمنطقة.

فحملهـا أولادهـا ومعهـم مصطفـى حـتى وصلـوا إلى السـيارة، وقـاد محمـود السـيارة بسرعـة جنونيـة حـتى وصـل إلى المعـبر الرئيـسي الـذي يفصـل الطريـق.. فأوقفـه الجنـود الإسرائيليـون وأشـاروا إليـه بالعـودة.. فـصرخ في وجههـم:

- نحن نحمل مريضة ويجب أن نمر بسرعة وإلا تعرضت للخطر.

فخرج إليه ضابط إسرائيلي وقال بعجرفة:

- هـذا المعـبر مخصـص للإسرائيليـين فقـط.. أمـا أنتـم فيجـب أن تصعـدوا إلى التـل إذا أردتـم المـرور.

فانفجر محمود صارخًا:

- حرام عليكم.. هذا ظلم.

فالتـف الجنـود حـول السـيارة شـاهرين أسـلحتهم في وجوههـم، وقـال لهـم الضابـط:

- ارحلوا من هنا وإلا قتلناكم كلكم في الحال.

فنظر إليهم مصطفى بحنق وقال لمحمود:

- لا فائـدة مـن مجابهتهـم هنـا.. يجـب أن نصعـد عـبر التـل لنصـل

إلى الطريـق العـام.

- ولكنه واعر للغاية ولا يمكن الصعود بالسيارة عبره.

فصمت مصطفى وامتلأت عيناه بالحزن قائلاً:

- لا يوجد لدينا حل آخر.

فصعـدوا بالسـيارة عـبر التـل حـتى تعـذّر إكمالهـم الطريـق، فـنزل الجميـع مـن السـيارة وأخـذ مصطفـى يحمـل أم محمـود عـلى ظهـره وهـم يعـبرون التـل، وسـط الـبرد القـارس والسـماء الممطـرة، حـتى هبـط الليـل عليهـم. أخـذ مصطفـى يسـمع نبضـات قلـب أم محمـود الضعيفة وأنفاسـها المتلاحقـة وقلبـه يعتـصره الألـم حـتى مالـت عليـه قائلـة:

- أنزلني يا بني.

فأنزلهـا مصطفـى وجلسـت عـلى الأرض والتـف أبناؤهـا مـن حولهـا.. فقالـت بصـوت ضعيـف:

- لـم يعـد منـه بـد مـا تفعلونـه معـي الآن.. لـم يتبـق لي سـوى لحظـات كي أقابـل وجـه الله العظيـم.

فاحتضنها محمود بقوة قائلاً:

- لا تقـولي هـذا يـا أمـي.. سـنصل إلى المستشـفى وسـتأخذين العـلاج وستعيشـين.

- صدقـني يـا بـني.. اتركـوني هنـا ولا تحملـوا أنفسـكم المشـقة أكـثر مـن ذلـك.. لا فائـدة مـن ذلـك.. كل مـا أريـده أن أترككـم وأنـا راضيـة عنكـم وأريدكـم أن تعتنـوا بعضكـم ببعـض.

ثم نظرت إلى مصطفى وأكملت:

- أمـا أنـت يـا مصطفـى فـلا أعـرف كيـف أرد لـك جميلـك.. لقـد كنـت تتحمـل عنـائي طـوال تلـك الفـترة وكأنـك أحـد أبنـائي.. فلـم أقابـل قلبًـا حنونًـا مثلـك.. وهـا قـد جـاء الوقـت كي ترتـاح مـن هـذا العنـاء.

وأخـذت تنظـر إليهـم نظـرات شـاردة وعيناهـا تودعـان العالـم، حـتى

أغلقتهما للأبد وهي تردد الشهادتين.. وسقطت برأسها على صدر مصطفى، وهو لم يتمالك نفسه من البكاء، واحتضنها بقوة، بينما أخذت سيول الأمطار تنزل على رؤوسهم وتغطي ملابسهم.. أخذ محمود يصرخ بأعلى صوته:

- حسبنا الله ونعم الوكيل.. حسبنا الله ونعم الوكيل.

*****

في الموعد المتفق عليه.. جلس كل من أبو عمار وناصر في مكتب السمسرة الخاص بيعقوب عازار في هارحوما، ينتظرانه وهما في قمة الترقب.. ذلك المكتب الصغير عند مدخل المستوطنة والشهير بعمليات سمسرة الأراضي والعقارات.. وكثيرًا ما يتردد عليه الإسرائيليين وعرب ٤٨ وغيرهم.. أخذا يحملقان في الداخل والخارج وينظران في ساعتيهما، فقام ناصر يسأل يوشع مساعد يعقوب -ذلك النحيف ذو الصوت المتحشرج- عن موعد مجيئه، فقال له:

- لا أعرف سيدي.

حتى دخل يعقوب ومعه رجل طويل أنيق يرتدي بدلة سوداء.. ما أن رآهما أمر يوشع همّ لإدخالهما إلى مكتبه سريعًا.. فجلس كل منهما أمام الرجل الأنيق.. قال لهما يعقوب:

- هذا السيد «جان ميشيل» المسؤول المالي لشركة الأغذية التي ستشتري الأرض.. أين الأوراق المطلوبة؟

ففتح أبو عمار حقيبته بسرعة وأخرج أوراق ملكية الأرض وأعطاها لمسؤول الشركة.. ثم أخرج يعقوب عقد الملكية كي يوقّعا عليه.. ثم أخرج الرجل الفرنسي شيكًا بمبلغ 1.000.000.000 شيكل أعطاه لأبو عمار.. فنظر أبو عمار في الشيك ممتعضًا وقال بصوت حانق:

- المبلغ زهيد جدًا يا يعقوب.. نحن لم نتفق على هذا.

- هذا أقصى ما ستدفعه الشركة.

ثـم مـال إليـه وأكمـل دون أن يفهـم مسـؤول الشركـة مـا يقـولان بالعربيـة:

- وهـذا السـعر مخصـوص لـك يـا عزيـزي.. فالشركـة لا تريـد أن تدفـع أكـثر مـن ٧٠٠،٠٠٠ ألـف شـيكل فقـط.. ولكـن لمعزتـك عنـدي رفعـت السـعر إلى هـذا الحـد.

فغمغم أبو عمار وتردد في الإمساك بالشيك.. فقال له ناصر:

- هـذا المبلـغ أفضـل مـن لا شيء.. وإذا رفضتـه فالشركـة سـتنقص مـن قيمـة العـرض.

فنظر إليه يعقوب وأكمل:

- ها هو صديقك ينصحك يا أبو عمار؛ اقبل بالشيك.

فـتردد أبـو عمـار، ثـم مـد يـده وأخـذ الشيك وهـو ينظـر إلى المبلغ المكتـوب فيـه، وعينـاه تشـعان سـعادة.

*****

في السادسـة مسـاءً أخـذ يـوري يتسـكع في الشـوارع المحيطـة بالمـنزل، مسـتغلاً هـدوء الحركـة بهـا بعدمـا خـرج مطـرودًا مـن إحـدى البـارات دون أن يدفـع حسـاب زجاجـات الخمـر.. فتلاعبـت الخمـر برأسـه وحاوطتـه الأفـكار المجنونـة، حـتى قـرر التسـلل إلى داخـل شـقة الدكتـور ماكلـين، كي يحصـل عـلى إحـدى زجاجـات الخمـر الفاخـر.. فقفـز مـن خـلال فتحـة صغـيرة في زجـاج النافـذة ودخـل إلى صالـة الشـقة.. فسـمع أصـوات خفيفـة حولـه جعلتـه يختـبئ خلـف التليفزيـون الـLCD، حـتى تحجـرت مقلتـاه وتجمـد الـدم البـاقي في عروقـه.. كانـت مجموعـة مـن

الرجـال ينتـشرون داخـل الشـقة ومعهـم أجهـزة وأسـلاك، لـم يكونـوا سـوى فنيـين مـن الشـين بيـت يحاولـون إصـلاح الكامـيرا المثبتـة في حجـرة النـوم.. حـاول بقـدر المسـتطاع التماسـك، ولكـن حالـة السُـكر الـتي غلبتـه لـم تمكّنـه مـن الجلـوس صامتًـا، فسـقط عـلى الأرض حـتى انتبهـوا إليـه بعـد أن أصابهـم الذعـر.. فركلـه أحـد الرجـال في بطنـه بينمـا انهـال عليـه آخـر بعصـا عـلى رأسـه وهـو يحـاول مقاومتهـم، ولكـن حالـة السـكر منعتـه مـن أن يقـف عـلى قدميـه، وأوسـعوه ضربًـا في كل جوانـب جسـده حـتى وقـع عـلى الأرض، وقطـرات الدمـاء تغطـي وجهـه.. فانتبـه أحدهـم إليـه وقـال في اضطـراب:

- ما الذي فعلتوه؟! ما كان يجب أن نضربه هكذا!

- لم نتوقع مجيئه.. لقد أربك جميع حساباتنا.

فمـال أحدهـم إليـه ليتحسـس حالتـه.. فوجـد جسـده بـاردًا لا ينبـض.. فاكتسى وجهـه بقنـاع مـن الخـوف وتجمـد الـدم في عروقهـم جميعًـا بعـد أن تأكـدوا أنـه مـات.. فقـال أحدهـم:

- وما العمل إذن؟

- يجـب أن نتخلـص منـه فـورًا.. ولا يجـب أن يعـرف الكولونيـل بمـا حـدث!

حملـوه خـارج الشـقة وأغلقـوا بابهـا بإحـكام، ولكنهـم نسـوا أمـر الكامـيرا المعطلـة بسـبب حالـة الهـرج الـتي أصابتهـم.. وسـاروا بـه قليـلاً حـتى رمـوه في فنـاء المـنزل الخلفـي.. وفـروا بسرعـة الـبرق دون أن يلحظهـم أحـد.

وعندمـا جـاء الدكتـور ماكلـين في المسـاء وجـد المـارة يلتفـون حـول جثـة رجـل، بينمـا يقـوم رجـال الشرطـة بمعاينتهـا.. وفجـأة وجـد طرقًـا عنيفًـا عـلى البـاب فهـرع ليفتحـه.. فوجـد أمامـه ضابطًـا ذا صـوت أجـش يقـول لـه:

- عـذرًا سـيدي عـلى الإزعـاج.. ولكننـا وجدنـا جثـة رجـل ملقـاه في الفنـاء الخلفـي، أعتقـد أنهـا لأحـد جيرانـك.. فبطاقـة الهويـة الـتي وجدناهـا معـه تـدل عـلى أنـه يسـكن هنـا.

فـازدادت قطـرات العـرق عـلى جبـين الدكتـور ماكلـين، ونـزل مـع الضابـط فوجدهـا جثـة يـوري.. فكتـم أنفاسـه وتحجـرت مقلتـاه بعدمـا وجـد وجهـه البائـس الشـاحب، وعينـاه زائغتـان مليئتـان بالدمـاء وبجواره زجاجـة نبيـذ.. فنظـر إليـه الضابـط وقـال للدكتـور ماكلـين:

- هل تعرفه؟

- نعـم.. إنـه جـاري.. لـم أعرفـه سـوى منـذ أيـام قليلـة.. ولكنـه شـخص مسـكين مثـير للشـفقة.

فنظـر إلى الجثـة ذات الملابـس المهلهلـة ورائحـة الكحـول تفـوح مـن فمـه باحتقـار ولا مبـالاة، وهـو يتحقـق مـن بطاقـة الهويـة، ثـم أكمـل:

- يبـدو مـن اسـمه أنـه سـافارد.. أعتقـد أن أحدهـم قـد ضربـه ضربًـا مبرحًـا عـلى رأسـه بغـرض السرقـة أو شـجار سـكارى في البـار.. ضعـوه هنـا قليـلاً حـتى تـأتي سـيارة الإسـعاف لتنقلـه إلى المشرحـة.

- وماذا بعد؟

فنظر إليه الضابط بعجرفة:

- هـذه الأشـكال تعوّدنـا عـلى وجودهـا في شـوارع أورشـليم.. مجموعـة مـن السـكارى والمدمنـين عـادة مـا تكـون هـذه هـي نهايتهـم.. أرجـوك لا تشـغل بالـك سـيدي.. عندمـا تبـدأ النيابـة في التحقيـق سـوف تسـتدعيك لأخـذ أقوالـك.

فنظـر الدكتـور ماكلـين إلى الجثـة واكتسـت وجهـه ملامـح الشـفقة وهـو يلقـي النظـرة الأخـيرة عـلى جـاره البائـس الـذي داسـته جميـع الأقـدام.. بدايـة مـن زوجتـه ومديـره في العمـل حـتى رجـال الشـين بيـت.. حـتى أصبـح كومـة قـاذورات مهملـة ملقـاة عـلى قارعـة الطريـق.. نظـر إليـه

دون أن ينطـق بكلمـة.. سـار نحـو شـقته ومنظـر الجثـة لا يفـارق مخيلتـه، وكلامـه عـن مأسـاته بصوتـه الأجـش، وكلام الضابـط عنـه كمتسـول، مـا زالا يسريـان في أذنـه، حـتى دخـل الشـقة ولـم يفـق مـن هـذا الذهـول إلا عندمـا اصطـدم بلوحـة زيتيـة سـقطت مـن مكانهـا.. فاتسـعت مقلتـاه وهـو يحـدق إليهـا وعليهـا آثـار ارتطـام، فـدارت الشـكوك حـول رأسـه، وأخـذ يتجـول في الشـقة، فوجـد فتحـة الشـباك وأسـفلها آثـار طـين مـن الحديقـة.. فارتعـدت أطرافـه وتجمـد الـدم في عروقـه، وهـو يـردد: "ثمـة شيء غـير طبيعـي حـدث".

*****

دخـل مـوشي إلى مكتبـه بعـد أن اسـتبدل ملابـس التدريبـات وارتـدى البدلـة العسـكرية الرسـمية زرقـاء اللـون، وعليهـا رتبـة «سـيرين» أو كابـتن، وجلـس عـلى الكـرسي بعـد أن ظهـرت عليـه ملامـح الإرهـاق، فدخـل عليـه موردخـاي حامـلاً خوذتـه وهـو مـا زال بــ «الأوفـرول» العسـكري.. وقـال لـه:

- يبـدو أن هنـاك حملـة لتصفيـة الطياريـن تحـدث الآن.. فأسـلوب التدريـب الـذي يتبعـه آفيـدان سـيقضي علينـا قريبًـا.

فرد موشي بقوة:

- هـذا الوغـد يريـد أن يرفـع مسـتويات التدريـب إلى أقصاهـا، كي يحطـم أعصابنـا ويوصلنـا إلى أعـلى درجـات الإرهـاق، حـتى لا يبقـى ضمـن المجموعـة سـوى مـن هـم يتبعونـه.

فصاح موردخاي:

- وبالطبع هم الأشكيناز.

- إنه سيدمر سلاح الطيران بأسلوبه المتعصب البغيض.

- ولكنك لم تعطه الفرصة.. فقد كنت دائمًا ما تتألق كي تحبط مخططه لطردك من التشكيل.

- لقد كنت ندًّا عنيفًا لهذا المتغطرس.. فهو مريض نفسي لا يؤمن سوى بالقوة والعنف مع الجميع، ولا يسعده شيء أكثر من منظر الدم حوله.

فتنهد موشي بقوة ثم أكمل قائلاً:

- إنني لن أنسى عندما قمنا بعملية بجنوب لبنان.. حينها صدرت لنا الأوامر بالهجوم على قاعدة عسكرية تابعة للبنانيين.. ومع اقترابنا من الموقع اكتشفت أنها مجموعة قرى معزولة لا يقطنها سوى المدنيين.. إلا أن آفيدان قد أصرّ على الهجوم وضرب كل من في تلك القرية.. لم أستطع أن أتحمل الموقف وأنا أراه يحلق فوق المساكن البسيطة ويقصفها بوحشية حتى يدكها على رأس من فيها.. كانت سعادته الطاغية وهو يرى النار تتصاعد من المساكن وجثث الضحايا تنتشر حول المكان ودماءهم تملأ الشوارع، لا تُقدّر.. حينها لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أنني ألقيت بحمولة الطائرة فوق قمم الجبال وادّعيت بأنني أخطأت الهدف.

- ولكن آفيدان علم بما فعلته وحوّلك إلى التحقيق.. وكاد أن يوقفك عن الطيران ويحوّلك إلى وظيفة إدارية.. لولا تدخّل القائد العام ومساعدته لك حتى عدت ضمن تشكيلات المقاتلين مرة أخرى.

فصمت موشي وأكمل بصوت قوي:

- لقد التحقت بالخدمة في جيش الدفاع كي أحمي الوطن من أعدائه.. ولكنني لم أتخيل أن يكون الأعداء من المدنيين العُزّل النساء والأطفال.. إنه ليس من الإنسانية أن أقاتل من لا يحمل سلاحًا أو يحتمي ببيته.. إن ما يقومون به هو منتهى الوحشية..

وللأسـف هنـاك مـن يدعـم آفيـدان وأمثالـه.

فانتفض موردخاي من مكانه وأخذ يهدئ من موشي قائلاً:

- أرجـوك اصمـت.. فالجـدران لهـا آذان، وأتبـاع آفيـدان منتـشرون في كل مـكان.. إنـك تتحـدث عـن سياسـة جيـش الدفـاع، وهنـاك عـشرات، بـل مئـات مـن القـادة يتبنـون تلـك السياسـة.. أرجـوك نحـن لا نريـد أن ندخـل في مشـاكل مـع أحـد.. فيكفـي مـا نحـن فيـه.

ثم صمت قليلاً وأخرج من جيبه ورقة وأكمل:

- قبـل أن أنـسى.. لقـد وزّع علينـا هـذا المنشـور بعـد أن غـادرت أنـت.. لقـد قـرر آفيـدان أن يغـيّر مسـتوى التدريـب، وسـوف نتـدرب عـلى طائـرات أباتـشي بـدلاً مـن F-16.

فارتسـمت ملامـح الدهشـة والقلـق عـلى وجـه مـوشي أخـذ يغمغـم قائـلاً:

- لا بد أن هناك شيئًا سيحدث.. ويبدو أنه قريب.

فانتقـل القلـق إلى موردخـاي واكتسـت وجهـه الريبـة واقـترب مـن مـوشي قائـلاً:

- ماذا تقصد؟!

فرد موشي بثقة:

- تحـوّل التدريـب عـلى طائـرات الأباتـشي يعـني أن هنـاك عمليـة ستتم داخـل المـدن.. فهـذا النـوع مـن الطائـرات يمكـن أن يسـتخدم في الارتفاعـات المنخفضـة وضرب أهـداف قريبـة مـن الأرض.. وهـذا الأمـر ينـبئ بـأن هنـاك معركـة قريبـة.. قريبـة جـدًا.

*****

جلس أبو عمار يشاهد ضوء القمر من أعمدة شباك بيته في وسط أرضه التي باعها لليهود، وكأنه يشاهده لآخر مرة من نفس المكان.. فلم يذق النوم في تلك الليلة، بعدها عصفت الأفكار والهواجس برأسه.. ولكنها لم تكن هواجس وخيالات، بل صدق حدسه تلك المرة.. فالأرض لم تشترِها شركة أغذية كما أخبره يعقوب.. ولكنها شركة وهمية كي تحصل الحكومة الإسرائيلية على الأرض وتضمها لتوسيع المستوطنة.. فهي حيلة أحيانًا يلجأ إليها بعض السماسرة لأخذ الأرض بالتضليل.

خرج أبو عمار يسير في أرضه هائمًا، وهو يسمع صراخها وهي تئن، حتى وجد ناصر أمامه، فقال له بصوت مهزوز:

- أنا لن أبيع أرضي يا ناصر.. أشعر بشيء يحرق صدري وأنا أبتعد عن أرضي.

فنظر إليه ناصر ورد بقوة:

- أنت مجنون؟! لم يبق سوى ساعات وتأتي الشركة بجرّافاتها لاستلام الأرض.

- لا توجد شركة يا ناصر.. لقد سألت الجميع وأنكروا وجود تلك الشركة.. لقد بيعت الأرض للمستوطنة!

- وما الفارق إذن؟! كل ما كنت تريده هو المال، مثلك مثل جيرانك.. عندما يحضر المال فلا فرق بين أن تبيع أرضك لشركة أو للمستوطنة.. لقد جئتني وأنت تريد أن تبيع أرضك بأي ثمن.

فصرخ أبو عمار قائلاً:

- كنت مخطئًا.. أردت أن أعيش أنا وزوجتي وأولادي في مستوى أفضل.. الكل من حولي يبيع أرضه.. ولكن الآن غيرت رأيي بعد أن خدعتوني.. لن أبيع أرضي للمستوطنة.

فضربه ناصر على كتفه وقال:

- الإسرائيليـون سيأخذون الأرض بـأي شـكل سـواء رضيـت أو رفضت.. غـيرك سـلبت منـه أرضـه عُنـوة دون أن يحصـل عـلى أي شيء.. أمـا أنـت فحظـك أفضـل مـن غـيرك.. فـات الأوان؛ الإسرائيليـون قادمـون يـا أبـو عمـار.

فانتابـت أبـو عمـار حالـة هسـتيرية، وأخـذ يلطـم عـلى وجهـه بقـوة وهـو يـصرخ قائـلاً:

- لن أبيع.. لن أبيع!

لـم يمـض الوقـت حـتى ظهـرت الجرافـات الإسرائيليـة تغـزو الأرض وحولهـا قـوة مـن الشرطـة تنتـشر في أرجـاء الأرض.. ونـزل أفرادهـا مـن المدرعـات يبعـدون أي شـخص يحـاول الاقـتراب مـن الجرافـات بقـوة.. فانطلقـت الجرافـات تزيـل أشـجار المشـمش المثمـرة تدهسـها بوحشـية وتقطـع غصونهـا تحـت مجنزراتهـا.. وأخـذت تدمـر المنـازل الموجـودة لتسـاويها بمسـتوى الأرض في لحظـات.. خـرج أهـالي المنطقـة مـن بيوتهـم يـرون هـذا المشـهد، يحبسـون أنفاسـهم ودموعهـم دون أن يتلفظـوا بكلمـة.. هـذا المشـهد المتكـرر اليومـي الـذي اعتادتـه الأعـين الفلسـطينية دون أن تسـتطيع أن تتحـرك.. الأرض تسـلب والـدم يـراق عليهـا.. وصراخ وعويـل أمـام المدرعـات الإسرائيليـة الـتي تدهـس الأرض دون رحمـة.

اقتربـت الجرافـات مـن مـنزل أبـو عمـار لتدمـره، حـتى خـرج أبنـاؤه حاملـين أمتعتهـم يجـرون أقدامهـم.. بينمـا نظـرت زوجتـه إلى الجرافـات وهـي لا تصـدق مـا تـرى عيناهـا فسـقطت عـلى الأرض وأخـذت تلطـم بقـوة وتأخـذ مـن تـراب الأرض وتضعـه عـلى رأسـها، وصوتهـا يزلـزل أركان الأرض وهـي تـصرخ في وجـه زوجهـا الـذي نزلـت دموعـه عـلى لحيتـه قائلـة:

- بعـت أرضنـا لليهـود أيهـا الخائـن؟! بعـت أرضـك وأرض أجـدادك يـا أبـو عمـار؟! أنـا لـن أغـادر الأرض حـتى أمـوت عليهـا!

فانطلـق نحوهـا مجموعـة جنـود ليبعدونهـا عـن طريـق الجرافـات وهـي تحـاول أن تقاومهـم، حـتى جذبوهـا مـن ذراعيهـا وجرّوهـا عـلى الأرض بعيـدًا، وسـاقاها تحفـران في الأرض، فانتفـض أحـد أبنائهـا ليبعـد عنهـا الجنـود، فضربـه أحدهـم عـلى رأسـه ببندقيتـه.. وسـارت الجرافـة نحـو المـنزل لتدكّـه تمامًـا، ومعـه كل مـا امتلـك أبـو عمـار وأهلـه مـن ذكريـات وتاريـخ وأصالـة.. خرجـت رائحـة الأجـداد مـن الأرض بـلا عـودة لتتطايـر في السـماء.. وبعدهـا بـدأ الجنـود في نـشر السـياج الحديديـة والأسـلاك الشـائعة وعليهـا أعـلام إسرائيـل، لتعلـن انضمـام أرض أبـو عمـار ضمـن مسـاحة مسـتوطنة هارحومـا.

*****

لحظات ضعف

كان الدكتور ماكلين جالسًا في مكتبه يقرأ تقارير الطلاب، وقام من مكانه وصنع لنفسه كوبًا من «الاكسبرسو» من الماكينة الموجودة بمكتبه.. ثم عاد مرة أخرى وجلس يتابع التقارير باهتمام.. فنقر الباب ودخلت آشيرا.. فانتبه الدكتور ماكلين واعتدل في جلسته.. كانت آشيرا مرتدية «بَادي» ضيقًا ملتصقًا بجسدها الشهيّ يُظهر كل تضاريسه الساخنة ويحدد صدرها الممتلئ بوضوح، والجينز الضيق الذي يوضح معالم فخذيها المكتنزين.. فاقتربت منه قائلة:

- أعتذر إن كنت قد عطلتك عن عملك.. لقد أتيت لأريك أجزاء من رسالتي، ولكني أخاف أن يكون الوقت غير مناسب.

فردّ بانتباه قائلاً:

- أبدًا.. لقد كنت أراجع بعض تقارير الطلبة فحسب.. تفضلي.

فجلست بجواره ووضعت أمامه مجموعة من الأوراق.. فأخذ نظارته والتقط بعض الأوراق وأخذ يقرؤها، بينما هي تراقبه بعينيها الثاقبتين وتطلق منهما نظرات الإعجاب والفتنة.. فخلع النظارة وأكمل قائلاً:

- بحثك رائع.. يبدو أن قسم التاريخ قد كسب باحثة ممتازة.

فردت بصوت دافئ:

- حقًا؟ أنا لا أصدق أن تقول عني هكذا.

- أنا لا أمزح.. إنك فعلاً رائعة.

ثم نظر إليها بإمعان وضحك مجاملاً وقال:

- يبدو أنك رائعة في كل شيء.

فنظرت إليه نظرة حالمة وقالت:

- ويبـدو أنـك لسـت أسـتاذًا في التاريـخ فحسـب.. بـل أسـتاذًا في الغـزل.

فضحك الدكتور ماكلين قائلاً:

- ولكن ليس لهذه الدرجة.

- بل أكثر من ذلك.

ثـم اقتربـت منـه أكـثر.. وأخـذت تتشـمم رائحـة عطـره، وقالـت بهـدوء:

- ما نوع العطر الذي تضعه؟ إنه رائع.

فرد قائلاً:

- Chanel.

- حتى ذوقك في العطور رائع.. إنك فعلاً ساحر.

فابتسـم الدكتـور ماكلـين محـاولاً إخفـاء انجذابـه إليهـا.. لكنهـا لـم تعطـه الفرصـة كي يهـرب ولاحقتـه بعينيهـا وكلماتهـا قائلـة:

- إنـني لـم أرَ أحـدًا في الجامعـة.. بـل في أورشـليم كلها في شـخصيتك.. أنيـق ووسـيم وجـذاب.. وفـوق كل ذلـك عالـم فـذ.. إنـني أحسـد زوجتك عـلى الكـنز الـذي تملكه.

فصمت قليلاً ثم قال بهدوء:

- إنها متوفية.

فتراجعت قليلاً وأكملت بأسى:

- أنا آسفة؛ لم أكن أعلم ذلك.

- لقد حدث ذلك من مدة.. لا عليك.

- أكيد كانت سعيدة معك.. أنت تسعد أي امرأة تكون معك.

فابتسم الدكتور ماكلين وأكمل:

- عندمـا يحـب المـرء بجـد.. يعطـي كل مـا عنـده.. ولكنـني الآن

أعيــش وحيــدًا.

فنظرت إليه برقة وأمسكت بيده قائلة:

- لا أريـدك تقـول تلـك الكلمـة.. مـا دمـت هنـا بأورشـليم أنـت لسـت وحيـدًا.. أنـا سـأكون بجـوارك وحولـك دائمًـا.. لـن أتـركك وحـدك أبـدًا.

فنظر إليها بهدوء ثم نظر في ساعته وأكمل مبتسمًا:

- ولكــن يبــدو للأســف أنــي أنــا الــذي ســأتركك.. لقــد جــاء موعــد المحــاضرة.

فقامت من مكانها ولملمت الأوراق ومدت يدها لتصافحه قائلة:

- سأراك مرة أخرى.. أليس ذلك؟!

فأمسك يدها بحرارة ورد بعينين لامعتين:

- أكيد آشيرا.. أكيد.

لـم يكـن الدكتـور ماكلـين يـدري حقًـا مـاذا يجـري لـه عندمـا يـرى آشـيرا أو مجـرد يسـمع صوتهـا.. فقـد كان تأثيرهـا السـاحر لـه مفعولـه الرهيـب عليـه، وهـو مـا لـم يسـتطع مقاومتـه.. كانـت الكلمـات الخاصـة بهـا عـلى صفحـات مذكراتـه تصفهـا وكأنهـا «مفاجـأة تسـللت إلى حياتـه.. إكســير الســعادة الــذي كان ينتظـره منــذ مــدة»، فقــد أتــاح لخيالــه المسـاحة في أن تسـكن فيـه وتحتلـه بحيلهـا المتمرسـة وفتنتهـا القاتلـة.. أصبـح ينتهـز الفرصـة الـتي تجمعهمـا معًـا ليعيـش معهـا مـا كان يفتقـده في حياتـه.. وأصبـح لقاؤهـا يغـيّر حالتـه المزاجيـة ويجعلـه هـو الـذي يسـعى إليهـا، بعـد أن اسـتولت عـلى تفكـيره وعوّدتـه عـلى رؤيتهـا.

وفي منتصـف الليـل بينمـا هـو يكتـب بعـض مقالاتـه، دق هاتـف المـنزل وكأنـه يتوقـع مـن المتصـل أو أنـه يتمـنى أن يسـمع صوتهـا.. ومـا أن التقـط السـماعة بشـغف حـتى انطلـق صوتهـا في أذنيـه كالسـحر.

- آسفة على الإزعاج.

- لا تقولي هذا.

- هل أيقظتك من النوم؟
- أبدًا.. بالعكس.
- لكنني لم أستطع النوم دون أن أسمع صوتك.
- أتعلمين أنني كنت أفكر فيك الآن؟! وكأنني أتوقع أن أسمع صوتك!
- حقًا؟! أتعرف ماذا أفعل أنا الآن؟ إنني أجلس في حجرتي أستعيد كل اللحظات التي كنا فيها معًا.. أتخيلك معي الآن.. فلم أعد أستطع أن أمنع نفسي من أن أراك ولو حتى في أحلامي.

فصمت الدكتور ماكلين ليلتقط أنفاسه.. إلا أنها منعته من التفكير ولاحقته قائلة:

- ولكن قل لي الحقيقة.. هل تتمنى أن أكون معك الآن مثلما أنا أتمنى؟
- نعم.. ولكنني لن أحتمل.. فيبدو أنك ستكسبين.

فضحكت ضحكة أنثوية عالية رجت أركانه وأكملت قائلة:

- يبدو أنك أنت الذي ستسيطر عليّ.

كانت ممددة على السرير وهي تتحدث إليه وهي تؤرجح ساقيها في الهواء.. وأخذت تلعب في إحدى خصلات شعرها الأحمر المتدلي على وجهها، وهي تصف له وضعها حتى ندى جبينه.. ثم أكملت قائلة:

- غدًا هو يوم عيد ميلادي.. وأنت مدعو للاحتفال معي به.
- ولكن...
- لا أريد منك أي أعذار.. سأمر عليك بالسيارة لنحتفل معًا.. أريد أن أراك غدًا أجمل رجل في إسرائيل.

وما أن وضعت السماعة حتى انطلق صوت من خلفها قائلاً:

- ماذا فعلتِ؟

- كل شيء على ما يرام.. سيكون جاهزًا في الميعاد كما أردتم.

- إنـك رائعـة يـا آشـيرا.. لا يمكـن لأحـد أن يفلـت مـن تأثـير أنوثتـك.. خـذي تلـك الكامـيرا الصغـيرة لتضعيهـا في حجـرة نومـه.. نريـد أن نسـجل ونصـور كل شيء.

وقـف الدكتـور ماكلـين أمـام بـاب منزلـه بكامـل أناقتـه المعتـادة.. مرتديًـا بدلـة سـوداء وربطـة عنقـه الحمـراء المميـز بهـا.. تفـوح منـه رائحـة عطـره.. وأخـذ ينظـر في ساعته الذهبيـة الـتي أشـارت إلى العـاشرة مسـاء.. حـتى وقفـت أمامـه سـيارة آشـيرا.. فاقـترب منهـا قائـلاً:

- دائمًا في الميعاد.

فابتسمت آشيرا قائلة:

- الليلـة ليلتنـا.. لا أسـتطع التأخـر.. والآن سـوف نسـهر في أجمـل مـكان في أورشـليم.. إنـك لـن تنـسى هـذه الليلـة.

وصـلا إلى مطعـم فخـم في شـارع «حاناتسـيف» بوسـط المدينـة.. ودخلـت آشـيرا وهـي تعلـق يدهـا في ذراعـه مرتديـة فسـتانًا أسـود دانتيـل قصـير بحمـالات، وتضـع عـلى كتفهـا شـالاً حريريًـا، وشـعرها الأحمـر مرفـوع متدليـة منـه خصلتـان عـلى جبينهـا.. وجلسـا عـلى طاولـة بالقـرب مـن الموسـيقى.. فنظـر الدكتـور ماكلـين في عينيهـا وأخـرج علبـة حمـراء مـن جيبـه وقدمهـا إليهـا.. ففتحتهـا ووجـدت خاتمًـا «سـوليتير» براقًـا.. فلمعـت عيناهـا وردّت بصـوت حنـون:

- أنت مذهل ماكلين.. هذا كثير عليّ!

- إنك تستحقين الكثير.. لقد منحتني سعادة لم أكن أتخيلها.

فاقـترب منهـم النـادل حامـلاً زجاجـة «شـمبانيا» وصـبّ أمـام الدكتـور ماكلـين فأشـار إليـه بالرفـض.. فنظـرت إليـه آشـيرا قائلة:

- الليلـة يجـب أن تتحـرر مـن كل شيء.. أنـت الآن معـي.. ويجـب أن تـشرب نخـبي.

فابتسم الدكتور ماكلين وأماء برأسه موافقًا ورفع كأسه قائلاً:

- نخب آشيرا.

فردت برقة:

- بل نخب ماكلين وآشيرا.

وبدأت الفرقة الموسيقية في عزف موسيقى هادئة.. فقفزت آشيرا من مكانها وشدت يد ماكلين للرقص معها، فلفّت ذراعيها حول كتفه، واقتربت بصدرها ليلامس جسده، ونظرت داخل عينيه وكأنها تغزوه وهو يضع يديه حول خصرها، وكأنه يلمس قطعة من الجمر تشعل أنامله.. واقتربت من أذنه وأخذت تهمس قائلة:

- لقد بحثت عنك في كل مكان منذ يومين لكنني لم أجدك.. لقد قلقت عليك.

- أكيد إما كنت مع بن أهارون وإما مع شلة البار.

- لقد قلت لك مرارًا لا تجلس مع هؤلاء.. إنهم عواجيز وجلستهم مملة وكل كلامهم عن السياسة أو حال البلد، وأنت ما زلت شابًا.. لا أريدك أن تجلس مع أحد هنا غيري.. ولا تفكر في أحد غيري.

فابتسم الدكتور ماكلين ورد:

- لكنك ستملين مني.

فوضعت إصبعها على شفتيه وتحسستهما وكأنها تحرقهما، وقالت:

- لا أريدك أن تقول هذا.. أنت ملكي ولن أسمح لأحد أن يأخذك مني.

وبعد أن انتهت الموسيقى قالت له بصوت ناعم:

- ما رأيك في أن نكمل الليلة في منزلك؟

- ولكن المنزل غير ملائم لاستقبالك.. أنت تعرفين بيوت العزاب.

- لا تقلق؛ أي مكان نكون فيه معًا يكون ملائمًا.

وقـادت آشـيرا سـيارتها وهـي تشـق الطريـق بجنـون وكأنهـا تسـابق الزمـن، حـتى وصـلا إلى المـنزل.. ففتـح الدكتـور ماكلـين النـور، فدخلـت آشـيرا بخطـوات رشـيقة متمايلـة، وهـي تصـدر صوتًـا مثـيرًا بكعبهـا العـالي، وأزاحـت شـالها الحريـري وهـي تكشـف عـن كتفيهـا، وصدرهـا المرمـري وكأنـه يريـد القفـز مـن الفسـتان الضيـق.. وأخـذت تنظـر إلى اللوحـات الفنيـة المعلقـة عـلى الحائـط وقالـت:

- شقتك رائعة.. يبدو أنك تعشق الفن.

فابتسم الدكتور ماكلين ابتسامة صفراء ورد بوجنتين حمراوين:

- في الحقيقـة.. إنهـا ذوق بـن أهـارون.. هـو الـذي اختـار المـنزل والأثـاث الـذي يحتويـه.

فردت قائلة:

- لكنك اخترتني أنا.. وهذا يكفي.

ثـم اقتربـت مـن طاولـة بمنتصـف الصالـة عليهـا نسـخة مـن الإنجيل، بينمـا دخـل إلى المطبـخ المفتـوح وهـو يبحـث عـن مـشروب لهمـا.. فنظـرت إليـه باسـتخفاف وقالـت:

- أرى أنك متدين أيضًا.. أدائمًا تقرأ في الإنجيل؟

- في بعض الأحيان.. إنه هدية من أحد الاصدقاء.

فأزاحتـه بيديهـا ووضعـت شـالها عـلى الطاولـة، واسـتمرت في التجـول داخـل المـنزل، حـتى ارتمـت عـلى أريكـة ومـددت جسـدها النـاري، وكأنـه يتوعـد للدكتـور ماكلـين بـكل مـا يحـوي مـن أنوثـة صارخـة.. أخـذت تهـز سـاقيها في الهـواء وهـي تفـك إبزيـم صندلهـا حـتى أطلقتـه بعيـدًا.. وبقيـت بفـردة واحـدة تمايلهـا وتتلاعـب بهـا بقدميهـا حـتى خلعتهـا وعلقتهـا عنـد أطـراف أصابعهـا.. حـتى دخـل الدكتـور ماكلـين حامـلاً كأسـين مـن الشـامبانيا المثلجـة ماركـة Bruno Paillard الفاخـرة الشـهيرة ووضعهـا عـلى الطاولـة، واقـترب منهـا وهـو يفـك ربطـة عنقـه قليـلاً..

أخـذ جبينـه يتصبـب العـرق الغزيـر وجسـده يرتعـش، وهـو يحـاول مقاومـة ذلـك السـلاح الـذري الممـدد أمامـه.. كانـت عينـاه تتسـابق في ملاحقـة نهديهـا المشـتعلين اللذيـن يصرخـان في وجهـه ويناديانـه ليقـترب منهمـا، بينمـا أخـذت يديهـا تتحسـس سـاقها البيضـاء حـتى وصلـت إلى صندلهـا المعلـق.. فقذفتـه بعيـدًا باتجـاه إحـدى الغـرف.. فقامـت مـن مكانهـا وهـي تترنـح حاملـة كأس الشـامبانيا، وأشـارت إلى الصنـدل وقالـت بلسـان ثقيـل:

- أووه! لقد سقط الصندل.

فمال الدكتور ماكلين وحمله مقتربًا منها وقال:

- لا تقلقي؛ أنا سأحضره.

فأخذتـه بيدهـا وألقتـه مـرة أخـرى داخـل الحجـرة، وكأنهـا تلقـي بالكـرة ليجـري وراءهـا القـط.. وقالـت بعينـين لامعتـين:

- هيا نحضره من الداخل.

فدخـل كلاهمـا إلى حجـرة نومـه.. كانـت تخطـو بقدميهـا الحافيتـين والدكتـور ماكلـين يبلـع ريقـه بصعوبـة، ملاحقًـا ثنيـات جسـدها الملتـوي داخـل الفسـتان الضيـق.. كانـت آشـيرا تنظـر إلى أركان الحجـرة بدقـة شـديدة متصنعـة ثملهـا.. ورفعـت كأسـها بيـد مهتزة وهـي تطيحـه يمينًـا ويسـارًا حـتى أسـقطت الشـامبانيا عـلى صدرهـا وفسـتانها.. فنظـرت إلى الفسـتان بملامـح سـاذجة وقالـت بصـوت ناعـم:

- خسارة لقد اتسخ الفستان.

- لا عليكِ اخلعيه كي أنظّفه.

فـزادت لمعـة عينيهـا وأضـاء بريقهمـا ملامحهـا الجريئـة، وكأنهـا تخطـو آخـر خطواتهـا نحـو خـط النهايـة، وتحركـت دون انتظـار إلى مـا أتـت مـن أجلـه.. تحسسـت بيديهـا الحمـالات وأنزلتهـا مـن فـوق كتفهـا.. انزلـق الفسـتان مـن عـلى جسـدها بسـهولة وسـقط تحـت قدميهـا،

ووقفت أمامه عارية تمامًا.. وسارعت إلى غرفة النوم، حيث ثبّتت كاميرا صغيرة عالية الجودة بجوار السرير.. ومالت على السرير وجميع مفردات جسدها تناديه.. فاقترب منها وهو يلقي كل محاولات المقاومة خلف ظهره، وتسارعت أنامله نحوها وهو يتحسسها، وهي تضمه دون أن تعطيه أي فرصة للتراجع.. بداية من ساقيها المرمريتين أشبه بعمدان نور مصقولتين، مرورًا بكهفها الوحشي حتى صدرها المكتنز المرصع بحبتي عنب، وصولاً إلى رقبتها مخملية الملمس عسلية الطعم.. ذاب جسده داخلها وهي تحيطه بذراعيها، وشفاهما المشتعلة تلتصق وكأنها فتيل قنبلة.. حتى مال بنظره إلى صورة داخل برواز بجانب السرير.. فانتفض من مكانه مذعورًا وكأن تيارًا كهربيًا عنيفًا صعق جسده.. نظر إلى صورة زوجته وهي تتغلغل داخله وتطرد جميع الأرواح الشريرة من دماغه.. نظر إلى عيني ليندا وكأنها ترقبه وتلومه.. اغرورقت الدموع في عينيه ووضع يديه على وجهه وكأنه ارتكب خطيئة البشرية الأولى، ونزل من فوق السرير ونظر إلى آشيرا، وغرق وجهه في ملامح الخزي، وقال بصوت مهزوز:

- أنا آسف.. لن أستطيع؛ هناك ما هو أقوى مني.

فنظرت إليه بدهشة شديدة وهي تحاول كتم دموعها، والتقطت فستانها من على الأرض.. نظرت إلى الصورة والدموع تهرب منها، وهي تراقب ملامح ليندا الملائكية.. ارتدت الفستان ووضعت يدها على كتفه وقالت بصوت حزين:

- أنا مَن يجب يتأسف.. أنا لم أر إخلاصًا مثل ذلك في حياتي.

فمسح الدكتور ماكلين دمعه وقال:

- ليندا ليست داخل الصورة فقط.. إنها في كل مكان حولي.

ثم قام من مكانه واتجه نحو الباب ليوصلها.. فأمسكت بيده وقالت:

- ابقَ معها.. إنك في حاجة إليها الآن.. وأنا أعرف طريقي جيدًا.

وبعـد أن رحلـت آشـيرا وأغلقـت البـاب خلفهـا، أمسـك الدكتـور ماكلين بالصـورة واحتضنها بقـوة ودمـوع عينيـه تـنزل عليهـا.. أخـذ ينظر إلى عينيهـا الزرقاويـن ويتحسـس بأصابعـه صـورة وجههـا، وقـال بصـوت خافـت:

- أنـا آسـف ليـندا.. آسـف.. سـامحيني أرجـوك.. أعـدك أن أظـل معـك للأبد.

فى اليـوم التـالى بعـد أن أوقفـت سـيارتها أمـام مبـنى الكليـة بطريقـة جنونيـة ونزلـت غـير مباليـة بمـا حولهـا.. دخلـت آشـيرا إلى قسـم التاريـخ متّشـحة بالسـواد، ترتـدي نظـارة سـوداء تخفـي بهـا ملامحهـا الغاضيـة، وهـي تلملـم شـعرها الأحمـر دون أن تتحـدث إلى أي أحـد.. فمـرت أمـام تـال ورامـون ونظـرت إليهمـا دون أن تنطـق بكلمـة.. فنظـرا بعضهمـا إلى بعـض، فقـال رامـون مندهشًـا:

- ماذا بها؟ إنها أول مرة أرى آشيرا بهذا الشكل!

فصمت تال مستغرقًا في التفكير ورد قائلاً:

- لا أعرف.. يبدو أن في الأمر شيئًا.

ودخلـت إلى مكتـب بـن أهـارون وأغلقـت البـاب خلفهـا بقـوة.. ونظـرت إلى كل مـن بـن أهـارون وإبـرام اللذيـن كانـا في انتظارهـا وكأنهمـا جالسـان عـلى الجمـر.. فقفـز بـن أهـارون مـن مكتبـه متلهفًـا واقـترب منهـا وقـال بعينـين ضيقتـين:

- ماذا حدث؟ بشريني بالنتيجة.

فرد عليه إبرام قائلاً:

- أنا أعرف النتيجة مبكرًا.. إنها آشيرا تلميذتي.

فنظرت إليهما شذرًا وارتمت على الكرسي، وقالت بصوت ضعيف:

- لم يحدث شيء.

فانتفـض كلاهمـا وكأن النـار قـد مسّـتهما.. وقـام إبـرام مشـتعلاً والغليـان يلـوّن وجهـه بالسـواد، وجذبهـا مـن ذراعهـا، وقـال بصـوت أجـش:

- أنتِ أكيد تمزحين.. ماذا فعل بك هذا الرجل؟!

- قلت لك لم يحدث شيء.

فاقترب منها بن أهارون مذعورًا وقال:

- كيف ذلك؟! لقد كان كل شيء محسوبًا حسب الخطة.

فنظرت إليهما وردت بهدوء:

- لقد وقفت زوجته بيننا.

فقام إبرام وقال صارخًا:

- أيتها الحمقاء! زوجته ماتت منذ فترة طويلة!

- لكنها ما زالت تعيش في وجدانه.. إنه لم ينسها أبدًا.

فرد بن أهارون قائلاً:

- ماذا تعنين؟

- تلـك الأسـاليب الرخيصـة لا تجـدي مـع شـخص مثـل الدكتـور ماكلـين.. إنـه شـخص أكـبر وأرفـع مـن ذلـك.

فقاطعها إبرام بقوة:

- بـل إنـك الـتي فشـلتِ في مهمتـك.. لقـد أصبحـت ضعيفـة ولـن تصلحـي لمثـل تلـك الأعمـال.

فنظرت إليه بعينين ممتلئتين بالدموع وقالت:

- بـل أنـت الـذي لا تعـرف شـيئًا عـن الوفـاء.. لقـد رأيـت في هـذا الرجـل مـا لـم أره في أي رجـل عرفتـه طيلـة حيـاتي.. يسـكن قلبـه كـمّ مـن الوفـاء والإخـلاص يمـلأ الدنيـا كلهـا.. إنـه يملـك قلبًـا ذهبيًـا لا مثيـل لـه.. أرجوكـم اتركـوا هـذا الرجـل وشـأنه.. إنـه لا يسـتحق منكـم مـا تخططونـه

لـه.

فنظـر إليهـا إبـرام بعينـين حمراويـن يخـرج منهمـا الـشرر.. وقـال صارخًـا:

- أعـدك بـأن مصيرك لـن يكـون أرحـم مـن مصيره.. اصـبري علينـا قليـلاً حـتى نفـرغ منـه.. ثـم نختـار لـك الجـزاء الـذي يليـق بمكانتـك عندنـا.. والآن ارحـلي مـن هنـا وإلا أطلقـت عليـك الرصـاص.

فانتفضـت آشـيرا مـن مكانهـا متجهـة نحـو البـاب ومسـحت دموعهـا وقالـت بتحـدٍ:

- لم أعد أخشى ما ستفعلانه بي.. لم يعد عندي ما أبكي عليه.

وبعد أن أغلقت الباب بقوة.. نظر إليه بن أهارون قائلاً:

- وما العمل الآن؟

- يبـدو أن هـذا الرجـل مُـصِرًّا عـلى الخـروج مـن دائرتنـا.. يجـب أن نسـيطر عليـه بـأي طريقـة مهمـا كلفنـا الأمـر.

- لقـد أصبـح خطـيرًا علينـا.. بـدأ يعـرف مـا لا يجـب معرفتـه، وأصبـح يتغلغـل في أوسـاط المجتمـع كالمـاء، والـكل يتأثـر بـه ويسـمع كلامـه.. يجـب أن تضـع لـه حـدًا إبـرام.

- سيحدث عزيزي.. وسيكون أسرع مما تتخيل.

*****

البركان

بعـد انتهـاء المحـاضرة اسـتعد الطـلاب للخـروج، بينمـا جلـس مصطفى بجـوار النافـذة تكتـسي ملامحـه بعلامـات الـشرود.. ينظـر عـبر النافـذة بعينـين ضائعتـين متشـحًا بالسـواد، تـاركًا لحيتـه تـبرز عـلى وجهـه دون تهذيـب.. فاقتربـت منـه مريـم ووضعـت يدهـا عـلى كتفـه دون أن يلقـى بهـا بـالاً ثـم مالـت عليـه قائلـة:

- مـاذا بـك؟ إنـك لـم تكـن في حالتـك الطبيعيـة اليـوم، ظللـت طـوال المحـاضرة صامتًـا حـتى لاحـظ الجميـع عليـك ذلـك.. وهـذا ليـس اليـوم فقـط، بـل منـذ أسـبوع وأنـت عـلى تلـك الحالـة.

فظـل مصطفـى عـلى صمتـه، ثـم اسـتدار لهـا في بـطء وقـال بصـوت مجروح:

- مـا حـدث شيء وحـشي.. أبشـع ممـا يتخيلـه أي إنسـان.. لا يوجد أي عـرف في الدنيـا يسـمح بـترك مريـض في أحـرج حالاتـه حـتى يمـوت.. حـتى في عالـم الحيوانـات يبقـى جـزء مـن الرحمـة بينهـا.. أمـا هنـا فـلا يوجـد سـوى الكراهيـة والحقـد والـدم.

- أنـا أقـدّر مـا تمـر بـه.. فمـا حـدث لجارتـك ليـس بسـهل.. ولكـن لا يجـب أن تـترك نفسـك هكـذا.

- إنهـا لـم تكـن مجـرد جـارة لي.. بـل كانـت أكـثر مـن أم.. لا تمـر أي مناسـبة حـتى أجدهـا هـي وأبناءهـا حـولي.. لقـد حملتهـا عـلى ظهـري وأنـا أعـبر التـل بعـد أن منعنـا الملاعـين مـن العبـور.. حاولـت أن أنقذهـا لكنـني لـم أسـتطع.

فنظرت إليه وردت بصوت هادئ:

- أيًـا كان السـبب لا يجـب أن تنفعـل هكـذا.. يجـب أن تظـل قويًـا وشـجاعًا كمـا أريـدك أن تكـون.

فنظر إليها بقوة ورد:

- أنـا لا أنفصـل عـن أهـلي مهمـا كان الأمـر.. هـؤلاء النـاس جـزء مـني وأنـا جـزء منهـم، وهـم الأبقـى لي في النهايـة.

- لكنـني أنـا الـذي أحبـك.. ولا أريـدك أن تتعلـق بهـؤلاء الضعفـاء حـتى لا تتأثـر بهـم وتصبـح مثلهـم.

فنظـر مصطفـى في عينيهـا وأخـذ يحملـق في ملامحهـا.. فوجـد نظـرة ناريـة لـم يرهـا مـن قبـل.. فمالـت عليـه مريـم ووضعـت يدهـا عـلى كتفـه، وقالـت بصـوت عميـق:

- اسـمع يـا مصطفـى.. كل مـا يحـدث حولنـا لسـنا طرفًـا فيـه، ولا يجـب أن نتعاطـف معـه بهـذا القـدر.. كل يـوم يمـوت فلسـطينيون وإسرائيليـون.. ومـع ذلـك تسـتمر الحيـاة.. المهـم أن نعيـش لنسـتفيد ونسـتمر في الحيـاة، ولا نتعلـق بأفـكار عاطفيـة وخيـالات مريضـة يمكـن أن تؤخرنـا.. المهـم مـن يعيـش وليـس مـن يمـوت.. يجـب أن تبتعـد عـن أهلـك ونعيـش معًـا.. حينهـا سـأمنحك أنـا السـعادة الحقيقيـة.

فاسـتدار مصطفـى نحوهـا واحمـرّ وجهـه وهـو لا يصـدق مـا يتهـاوى عـلى أذنيـه مـن كلمـات.. أخـذ يحملـق فيهـا بعينـين حمراويـن، وانتفـض مـن مكانـه والنـيران تخـرج مـن عمـق عينيـه، وأمسـك بذراعيهـا بقـوة وقـال بصـوت مخنـوق:

- الآن تقولـين هـذا الـكلام لأن فلسـطينية هـي الـتي ماتـت.. ولكـن لـو جُـرح إسرائيـلي ولـو بإبـرة تقيمـون الدنيـا ولا تقعدوهـا.

فردت ببرود قائلة:

- إنها سياسة.. يجب أن نتقبلها حتى ولو خاطئة.

فـازداد وجهـه احمـرارًا ودفعهـا بـكل قوتـه فسـقطت عـلى الأرض..

وقال لها بصوت عالٍ:

- يبدو أن كل ما فكرت فيه من قبل كان خاطئًا.. إنك لا تختلفين كثيرًا عن الآخرين.. نحن لن نكون كيانًا واحدًا.. فالشمس والقمر لا يسطعان في سماء واحدة أبدًا.. والتاريخ الطويل الأسود لا يمكن أن ينسى في ليلة واحدة.

فنهضت مريم من مكانها وقالت بصوت ضعيف:

- ولكنني أحبك يا مصطفى.

- لم يعد من هذا الحديث بد.. فأنا لم أعد أحتمل هذه الأكاذيب.. ويجب أن تعلمي أن بلدي وأهلي بالعالم وما فيه.. كما أنني أحب فتاة أخرى.. فلسطينية من هذا البلد.. وهي ابنة عمي من بلدتي.. ولم ولن أحب سواها.. والآن اغربي عن وجهي فلم أعد أحتمل.

نزلت كلمات مصطفى على أذني مريم كالزلزال الرهيب.. كسّرها إلى شظايا متناثرة.. لم تشعر بجسدها وهو يترنح بعد أن أصابها الدوار وبدأت ترى العالم من حولها يضيق ويزداد سوادًا حتى أغلقت عيناها ولم تعد ترى شيئًا.. أخذت تجري في الشوارع دون أن تشعر، حتى وصلت إلى مسكنها بمستوطنة «هارحوما»، دون أن تدري كيف ساقتها قدماها إلى هناك وهي في هذه الحالة.. كان الصداع يفتت رأسها من الألم حتى والدنيا تدور من حولها.. أخذت تهذي ببعض الكلمات غير المفهومة وكأنها قد أصابتها لوثة.. بل أصابتها بالفعل.. دخلت حجرتها وأخذت تحملق في المرآة بطريقة غريبة.. فرأت ملامحها المضطربة وشفتيها المرتعشتين، وأخذت تهذي بصوت مخنوق:

- لم أكن أعرف أنك يمكن أن تضيّع حبي لك بمنتهي السهولة.. لقد فعلت المستحيل من أجلك يا مصطفى.. ولكن يبدو أنك لم

تقدّر ذلك.. لقد خنتني رغم كل ما قدمته لك.

وأخذ جسدها يتشنج بشدة وهي تصرخ:

- أنتم العرب كلكم خونة؛ يجب أن تبادوا جميعكم مثل الحشرات.

وأمسكت بمقص وألقت به في المرآة، فكسرتها إلى شظايا، وهي تصرخ وتردد كلمة «خونة.. خونة.. كلكم خونة».

*****

داخل مبنى الشين بيت دخل أحد العساكر إلى مكتب إبرام وأخبره بأن هناك امرأة تريد مقابلته.. فاتكأ إبرام على كرسيه وأذن لها بالدخول.. دخلت مريم مرتدية شالاً أسود كثيفًا تغطي به شعرها، ونظارة شمس كبيرة تخفي أغلب ملامح وجهها المضطرب.. أخذ إبرام يرمقها بعينيه اللامعتين، حتى جلست أمامه، فاعتدل في جلسته واقترب منها وقال بصوت قوي:

- مريم يعقوب عازار.. طالبة الجامعة العبرية.. أهلاً بك في مبنى الشين بيت.

فاندهشت مريم بشدة، واكتسى وجهها بملامح الارتباك.. فلاحقها إبرام قائلاً:

- لا تقلقي هكذا.. فنحن نعرف كل شيء.

فازدادت ملامح الدهشة عليها وحاولت التماسك وقالت بصوت منخفض محاولة إخفاء ما بداخلها:

- لقد أتيت إلى هنا كي أبلغ عن شيء يحدث ضد مصلحة الوطن.

فانتبه لها إبرام.. فأكملت قائلة:

- أريد أن أبلغ عن زميل عربي في الكلية.. منضم إلى مجموعة من

الخلايا الإرهابية.. وأعتقد أنكم تريدون الإيقاع به، اسمه...

فقاطعها إبرام ورد بسرعة:

- مصطفى إبراهيم القوادري.. أليس كذلك؟

فانتفضت مريم من مكانها، واحمر وجهها، وازدادت علامات الدهشة عليها.. فضحك إبرام بخبث ورد قائلاً:

- عزيزتي مريم.. نحن نعرف كل شيء عن كل فرد هنا في إسرائيل.. أنتِ هنا في الشين بيت أخطر جهاز أمني في العالم.

وصمت قليلاً، بينما كانت مريم تتصبب عرقًا ثم أكمل قائلاً:

- كما أننا نعرف كل تحركات مصطفى القوادري وأعماله.. ولكن ننتظر الوقت الحاسم للقبض عليه واعتقاله.. إنك لا تعرفين كم نحن سعداء بقدومك هنا للإبلاغ عن واحد من أعداء الوطن.

- إنه واجب وطني على كل مواطن هنا بإسرائيل.

فابتسم إبرام ولمعت عيناه ورد قائلاً:

- ولكن لماذا قمت أنتِ بالإبلاغ عنه؟ على حسب مصادرنا أنكما قريبان بشدة بعضكما من بعض.. كما أنك كنت تؤيدين العرب في العديد من المواقف.

فصمتت قليلاً وردت بصوت مغلول:

- يبدو أنني كنت مخطئة في موقفي هذا.

فاقترب إبرام منها أكثر ومال عليها قائلاً:

- هل حدث شيء ما بينكما.. أخبريني، فأنا مثل أخيك الأكبر.

فتلعثمت في كلماتها قليلاً ثم قالت:

- لا سيدي.. لم يحدث شيء.. فكما أخبرتك من قبل.. إن موقفي هذا بدافع خوفي على الوطن.

فأمعن إبرام النظر داخل عينيها بعينيه الثاقبتين.. وازدادت ابتسامته الصفراء، ورد قائلاً:

- عـلى العمـوم.. نحـن سـعداء بموقفـك الوطـني، ونتمـنى أن يكـون كل شـباب إسرائيـل بحماسـك هـذا، مـن أجـل القضـاء عـلى الإرهابيـين الذيـن يدمـرون الوطـن.. هـذا هـو الـكارت الخـاص بي، فيـه كل أرقامـي.. وأود أن تبلغيـني بـكل مـا يحـدث حولـك مـن أحـداث وأشـخاص.

أخــذت مريـم الـكارت ووضعتـه في حقيبتهـا بسرعـة.. فنـادى إبـرام أحـد العسـاكر كي يوصلهـا إلى بـاب المبـنى.. وبعـد أن خرجـت اتـكأ إبـرام عـلى كرسـيه مجـددًا ووضـع قدميـه عـلى المكتـب وأشـعل سـيجارة، وأخذ يحملـق في الدخـان المتطايـر، يتخيـل فيـه وجـه مصطفـى القـوادري، وأخـذ يضحـك بطريقـة هسـتيرية.

*****

خان شاهين

كانـت الجامعـة العبريـة خاليـة مـن تكـدس الطـلاب بعـد انتهـاء موسـم الامتحانـات وبدايـة إجـازة منتصـف العـام.. عـدا قليـل مـن الطلبـة الذيـن كانـوا يـترددون عـلى المكتبـة أو الطلبـة مـن سكان القدس، سـواء العـرب أو اليهـود.. فـكان معظـم الطـلاب يسـافرون إلى مدنهـم ومسـتوطناتهم الـتي وفـدوا منهـا.. وقـف الدكتـور ماكلـين أمـام نافـذة مكتبـه، يراقـب حركـة بعـض الطـلاب القليلـين الذيـن كانـوا يتجولـون في فنـاء الكليـة، وهـو يحتـسي الاكسبريسـو المعتـاد عليـه.. فوجـد مصطفـى جالسًـا في الفنـاء عـلى الأرض يمسـك بكتـاب، لكنـه لا يقـرأ فيـه.. كانـت نظراتـه الشـاردة واضحـة عليـه وملامـح الوجـوم تشـكّل تقاسـيم وجهـه، وكأنـه يجلـس في عالـم آخـر بعيـد، رغـم وجـود بعـض الطلبـة حولـه.. نـزل الدكتـور ماكلـين مـن مكتبـه، واقـترب منـه دون أن يشـعر بـه مصطفـى، وأمسـك بالكتـاب الـذي كان معـه، فانتفـض مصطفـى مـن مكانـه وهـمّ بالوقـوف.. فربـت عـلى كتفـه وجلـس بجـواره عـلى الأرض.. وأخـذ الدكتـور ماكلـين يقلّـب في الكتـاب وهـو يسـأله بابتسـامة:

- ماذا تقرأ يا مصطفى؟

فرد بهدوء:

- إنه كتاب لإميل توما.. «جذور القضية الفلسطينية».

فأمسك الدكتور ماكلين بالكتاب بعينين يملؤهما الإعجاب وقال:

- ذلـك الكاتـب الفلسـطيني المسـيحي.. والـذي كان يـدرّس في الجامعة الصهيونيـة بالقـدس في أوائـل القـرن العشريـن.. يبـدو أنـك متأثـر بـه بشـدة، حـتى أنـك تشـبهه كثـيرًا في أفـكاره وأفعالـه.

فرد مصطفى بوجوم:

- بلى.

- ولكـن يبـدو أنـك لـم تقـرأ منـه سـوى القليـل.. هنـاك مـا يشـغل بالـك إلى درجـة كبـيرة.

فصمــت مصطفــى وازدادت ملامــح الحــزن عــلى وجهــه.. فأكمــل الدكتــور ماكلــين قائــلاً:

- لقـد علمـت بمـا حـدث.. وفـاة جارتـك دون أن يسـاعدها أحـد، لهـو أمـر بحـق بغيـض.. ولكـن لا يجـب أن تـترك نفسـك للحـزن هكـذا.. يجـب أن تتماسـك أكـثر مـن ذلـك كمـا تعـودت أن أراك.. أريـد أن أرى مصطفـى القـوي الـذي رأيتـه مـن قبـل.

فابتسـم مصطفـى قليـلاً، فوضـع الدكتـور ماكلـين يـده عـلى كتفـه وقـال لـه:

- ولكن لماذا لم تسافر مع بقية زملائك في فترة الإجازة؟

- إنـي بالفعـل أريـد أن أعـود إلى بلـدتي.. فأنـا مـن مدينـة الخليـل.. ولـم أذهـب إلى هنـاك منـذ عـدة أشـهر، ولقـد اشـتقت إليهـم كثـيرًا.. ولكـن مـاذا سـتفعل أنـت.. فهـل سـتعود إلى الولايـات المتحـدة؟

فرد الدكتور ماكلين:

- لا أعتقـد.. فـإن الوقـت لـن يسـمح.. كمـا أنـي أريـد أن أكتشـف المزيـد عـن فلسـطين.

فلمعت عينا مصطفى، وقفزت فكرة سريعة في ذهنه، وقال له:

- ما رأيك في أن تأتي معي إلى الخليل؟!

فانتبـه الدكتـور ماكلـين إليـه بعـد أن راقتـه الفكـرة.. فهـو لـم يذهـب خـارج القـدس قبـل ذلـك، حيـث كان معظـم زياراتـه محصـورة مـا بـين تـل أبيـب والقـدس.. ولـم يـر أي مـدن فلسـطينية عـلى الطبيعـة مـن قبـل سـوى في نـشرات الأخبـار والبرامـج التسـجيلية الـتي تنتجهـا إسرائيل..

ولـم يـتردد في انتهـاز الفرصـة لـيرى مـا لا يمكـن أن يـراه، وقبـل الدعـوة بحمـاس شـديد.. أخـذ الدكتـور ماكلـين يجهّـز أغراضـه اسـتعدادًا للسـفر، وهـو يضـع في مخيلتـه مـا قـرأه عـن المدينـة ومـا رآه في القنـوات الفضائية عـن حيـاة عـرب فلسـطين مـن بدائيـة وسـذاجة.. بـل يصورهـم البعـض وكأنهـم إرهابيـون متطرفـون.

وبعـد أقـل مـن سـاعتين وصـل الأوتوبيـس إلى مدينـة الخليـل.. تلـك المدينـة المشرقـة الواقعـة عـلى هضبـة والمليئـة بالبيـوت والأحيـاء العريقـة الـتي تفـوح منهـا رائحـة الـتراث، ومـزارع الزيتـون الخـضراء اليانعـة، تتخللهـا أحيـاء وشـوارع حديثـة.. فـنزل كل مـن مصطفـى والدكتـور ماكلـين، وخـرج بصيـص مـن شـعاع الشـمس مـن بـين السـحب الكثيفـة، ليـدفئ شـتاء المدينـة البـارد وكأنـه يحييهـا.. فأخـرج مصطفـى مـن حقيبتـه الشـال الفلسـطيني، ولفّـه عـلى كتفـه، فنظـر إليـه الدكتـور ماكلـين بدهشـة.. فابتسـم مصطفـى ورد:

- أهلاً بك في الخليل.

ثم أخذ حقائب الدكتور ماكلين وقال له:

- إن بيتنا ليس ببعيد.. يمكن أن نتمشى حتى نصل إليه.

فابتسـم الدكتـور ماكلـين، وأخـذا يمشـيان بـين شـوارع حـي القزازيـن بالبلـدة القديمـة.. بينمـا كان الدكتـور ماكلـين يراقـب المبـاني القديمـة، والـتي ترجـع إلى العهـد الأيـوبي والمملـوكي والعثمـاني، والنـاس وهـم يسـيرون في أسـواق البلـدة وأزقتهـا الحجريـة الضيقـة، وهـو يصـور كل تفاصيـل المدينـة بكامـيرا الفيديـو الصغـيرة.. حـتى اقتربـا مـن أحـد البيـوت القديمـة ذات الطـراز العـربي.. فصـاح مجموعـة مـن الأولاد يلعبـون أمـام البيـت «مصطفـى عـاد.. مصطفـى عـاد»، فتنبّـه أهـل البيـت وخرجـوا لاسـتقبالهما.. فطـار مصطفـى نحوهـم يملـؤه الشـوق والحنـين وأخذهـم بالأحضـان، ودخلـوا عـبر بـاب حديـدي أزرق ذي عقـد

نصف دائري مزخرف، ومنه إلى حوش البيت المزدان بأغصان الزيتون حتى حجرة الاستقبال، التي جلست فيها كل عائلته على وسائد وحُصر على الأرض، معلق على جدرانها صور قديمة للخليل.. حتى وصل إلى أبيه الحاج إبراهيم القوادري، وقبّل يديه.. وكان رجلاً قارب الستين من العمر، ذا لحية بيضاء وملامح تملؤها الهيبة والوقار، مرتديًا ملابس أهل الخليل التقليدية، حيث القمباز، ذلك الرداء الطويل المشقوق من الأمام وعليه جبة قصيرة وعباية سوداء، ويلف على خصره بالحزام القماشي العريض، ويمسك بعصا طويلة يتكئ عليها.. فجلس الدكتور ماكلين وسطهم وهو لا يصدق مدى الحفاوة التي قوبل بها.. فقال الحاج إبراهيم:

- أهلاً بك في الخليل، في دارك ووسط أهلك.

فهم مصطفى ليترجم له ما قاله.. فأماء الدكتور ماكلين بيده مقاطعًا وقال:

- أنا أعرف القليل من العربية.. وأفهم ما قاله له سيدي.. وأنا في منتهى السعادة والشكر لما رأيته منكم.

فرد مصطفى:

- إنك لم تر شيئًا بعد.. يجب أن ترى الكرم العربي على أصوله.

فعلّق أحد الشباب الجالسين بقوة، وكان طويل القامة ذا شعر قصير وبشرة خمرية، مرتديًا الشال الفلسطيني، قائلاً:

- يجب أن يعرف أنه فعلاً بين أهله، ويعرف الفارق بيننا وبين غيرنا.

فانتبه له الدكتور ماكلين.. فرد مصطفى معرفًا به:

- أما هذا فهو غسان.. ابن عمي وصديقي وأقرب شخص لي في الحياة.

فرد الحاج إبراهيم قائلاً:

- لقد حدّثنا مصطفى كثيرًا عنك في مكالماته.. ولكننا لم نتوقعك صغيرًا هكذا.. إنك لا تعرف لأي درجة هو معجب بك.

فضحك الدكتور ماكلين ورد:

- يبدو أنه يبالغ كثيرًا.. مصطفى من أشجع وأفضل الطلبة عندي.. وأنا أفتخر به بشده.

ولم ينهِ الدكتور ماكلين كلماته حتى فتح الباب ودخلت فتاة جميلة ممشوقة القوام ذات وجه ملائكي أبيض، تنزل عليه بعض من خصلات شعرها الحالك السواد، والذي يغطيه شال تلف به رأسها، وعينان مكحلتان ذاتا رموش طويلة أخّاذة.. كانت ممسكة بصينية عليها إبريق من القهوة العربية ومجموعة من الأكواب الصغيرة.. وما أن رآها مصطفى حتى تغيرت ملامحه وانتفض من مكانه وأمسك الصينية عنها ووضعها على المائدة.. فاحمرّ وجهها خجلاً وجلست بجوار أخيها غسان.. وطوال الجلسة لم ينزل مصطفى عينيه من على وجهها المشرق، بينما هي كانت تبادله النظرات بعينيها الرقيقتين، وكأنها تريد أن تنقل له رسالة دون أن يقرأها أحد سواهما.. فأشار إليها الحاج إبراهيم قائلاً:

- أما تلك الجميلة.. فهي زينة، ابنة أخي بركات.. طالبة في جامعة الخليل.. تدرس الحقوق.

فاستمر مصطفى يحملق في وجهها، وعيناه تحتضن ملامحها كأنه يريد أن يكمل «وحبيبتي أيضًا».

وأخذ يطوف بذكرياته عندما كان يلعب معها وهما صغيران في مزارع الزيتون، حتى كبر وجاء ميعاد رحيله إلى القدس ليكمل دراسته.. وفجأة انفتح الباب بقوة ودخل شاب بدين الجسد ذو عينين غائرتين وبشرة شاحبة وملابس مهلهلة.. وأخذ يهرول نحو مصطفى وهو يهلل بصوت مرتفع «ها قد جاء البطل»، وأخذ

يحتضنـه بقـوة حـتى كاد يكـسر ضلوعـه.. بينمـا أخـذ الحـاضرون ينظـرون إليـه باشـمئزاز.. فصـاح الحــاج إبراهيــم بقــوة:

- نــزار.. هــلا أخفضــت صوتـك قليـلاً.. لا أحـد يعلـو صوتـه داخـل بيـت القـوادري.. ثـم مـا الـذي أتى بـك إلى هنـا؟! يجـب أن تكـون بجانـب زوجتـك الحامـل.

فجلـس نـزار مقرفصًـا بعـد أن خلـع حـذاءه واسـتمر في صوتـه العـالي وهـو يحـرك يديـه في الهـواء قائـلاً:

- جئـت لأرى البطـل وأحييـه.. زينـة شـباب عائلـة القـوادري الـذي يرفـع رأسـنا أمـام اليهـود.

ثم نظر إلى مصطفى وأكمل قائلاً:

- وكيـف حـال القـدس الآن؟ النـاس والجامعـة.. أريـدك أن تحـك لي عـن كل شيء.

فرد مصطفى متأففًا:

- كل شيء بخير.

فأكمل نزار بأسلوب مستفز وهو ينظر إلى زينة:

- وكيف حال الفتيات هناك؟ أعرف أن بنات اليهود لا يقاومن.

فانتفض الحاج إبراهيم وصرخ فيه:

- نــزار.. أنــت تعلــم أن مصطفــى ليــس مــن هــذا النــوع.. إنــه في القـدس لمهمـة معينـة.. كمـا يجـب أن تعلـم أنـي قـد ربيـت ولـدي عـلى طاعـة الله والقيـم السـليمة.

- لا أقصد شيئًا يا عمي.. بل كنت أمزح معه فقط.

ثم نظر إلى الدكتور ماكلين وأكمل بعينين يقفز منهما الفضول:

- ومن هذا الرجل المهيب الذي أتى معك يا مصطفى؟

- إنـه أسـتاذي في الجامعـة.. وقـد اسـتضفته هنـا لمـدة أسـبوع.. هـل عنـدك سـؤال آخـر؟

فصمـت نـزار وأومـأ برأسـه دون أن ينطـق بكلمـة.. ثـم وقـف مـن مكانـه وارتـدى حـذاءه وهـم بالرحيـل قائـلاً:

- والآن.. يجـب أن أرحـل فعنـدي ميعـاد مـع بعـض العمـلاء.. كمـا يجـب أن أطمـئن عـلى أمينـة، فهـي وحدهـا.. ولـولا الظـروف لأتـت معـي.. المهـم أنـني اطمأنيـت عـلى البطـل.

ومـا أن رحـل نـزار حـتى تنفـس الجميـع الصعـداء.. فمـال غسـان عـلى مصطفـى وقـال لـه بصـوت خافت:

- زيـارة نـزار غـير مطمئنـة.. إنـه لا يطيقنـا ولا يـأتي إلى هنـا إلا للظروف الصعبـة، ويـأتي متـضررًا.. لـذا أنـا أجـزم أن وراءه غرضًا.

فنظر إليه مصطفى وأكمل قائلاً:

- وأنا أشك في هذا الغرض.. وأتمنى ألا يكون صحيحًا.

*****

وصـل نـزار إلى بيتـه غـير البعيـد مـن بيـت القـوادري.. وأغلـق البـاب خلفـه بقـوة، فخرجـت زوجتـه أمينـة مـن المطبـخ، وقـد ظهـرت عليهـا أعـراض الحمـل.. فقالـت:

- لقد أتيت مبكرًا الليلة.

فرد بغيظ:

- ألا تريدينني أن أعود إلى البيت؟! إنه بيتي وأعود وقتما أشاء.

فأكملت في لهفة:

- هل رأيت مصطفى؟ كيف حاله؟ هل هو بخير؟

- إنـه كمـا هـو.. مثلمـا ذهـب مثلمـا عـاد.. محمّـلاً بالخيبـة والفشـل.. وأنتـم تجعلـون منـه بطـلاً قوميًـا لمجـرد أنـه يـدرس في جامعـة اليهـود.

فصرخت أمينة في وجهه قائلة:

- لا تقـل عـلى أخـي هكـذا.. إنـه بطـل رغمًـا عنـك.. مصطفـى أفضـل مـن أخرجتهـم عائلـة القـوادري.. شـاب طمـوح ومكافـح.. يقـاوم الصهاينـة ويقـف أمامهـم وسـيعود بالشـهادة العليـا عـن قريـب.. يجـب أن تتعلـم منـه بـدلاً مـن جلوسـك عـلى القهـوة وأعمـال السـمسرة الـتي تقـوم بهـا مـع هـؤلاء المشـبوهين.

فرد بقوة:

- إن هـذه الأعمـال هـي الـتي تفتـح لنـا بيتنـا.. وهـي الـتي سـتربي ابنـك القـادم.

فنظرت إليه شذرًا وأكملت:

- لم أتمنَ أن يأتي ولدي ليراك أباه ومثله الأعلى.

فأمسك بذراعها بقوة ودفعها قائلاً:

- أنـا لا أسـمح لـك أن تخاطبينـني بتلـك الطريقـة.. مـا لا يعجبـك الآن سـيجعل مـني رجـلاً غنيًـا وسـأكون أفضـل مـن فارسـكم مصطفـى القـوادري.

ثـم دخـل غرفتـه وأغلـق البـاب عـلى نفسـه، وأخـرج صندوقًـا صغـيرًا كان يخبئـه في درج سـحري في الـدولاب، وفتحـه بمفتـاح وأمسـك برزمـة مـن الشـيكلات الإسرائيليـة والـدولارات، وأخـذ يعدّهـا، ثـم وضعهـا مكانهـا وأغلـق الصنـدوق ووضعـه مكانـه، ثـم خـرج مـن الحجـرة.. وصـاح بصوتـه العـالي:

- سـوف أجلـس عـلى القهـوة لأقابـل بعـض العمـلاء.. وإن سـأل أحـد عـليّ فأنـا سـوف أتأخـر.

وخـرج مسرعًـا بعـد أن أغلـق البـاب خلفـه بقـوة.. ثـم سـار بعيـدًا عـن المنزل عـبر التـلال وهـو يغطـي وجهـه بشـال، وأخـذ يتلفّـت حولـه حـتى وصـل إلى نقطـة تفتيـش إسرائيليـة.. فدخـل عـلى الضابـط قائـلاً:

- أريد أن أقابل الميجور «دان».

فنظر إليه الضابط قائلاً:

- من أنت؟ ولماذا تريده؟

- أنا نـزار عبـاس.. صديـق الميجـور دان.. وعنـدي لـه أخبـار هامـة وعاجلـة.

- انتظـر قليـلاً.. سـتأتي دوريـة وسـتأخذك إليـه في مركـز القيـادة بمسـتوطنة «كريـات أربـع».

بعـد أن ظـل سـاعات في الانتظـار وهـو يتصبـب عرقًـا.. أتـت الدوريـة، ركـب معهـا نـزار حـتى وصلـت إلى المركـز.. فدخـل وهـو يرتعـش مـن كـم الضبـاط والعسـاكر المحيطـين بـه.. حـتى وصـل إلى مكتـب الميجـور دان.. فوجـد سـكرتيرته «تاليـا» جالسـه بالبدلـة العسـكرية.. فمـال عليهـا وقـال بصـوت هـادئ:

- أريد أن أقابل الميجور الآن.

فنظرت إليه باحتقار وردت قائلة:

- وهل هناك ميعاد سابق يا عباس؟

- لا.. بـل هنـاك معلومـات هامـة يجـب أن أقولهـا لـه.. كمـا أن اسـمي نـزار.. وسـيكون أجمـل اسـم لـو نطقـت بـه مـن شـفتيك الجميلتـين.

فزادت من نظرة الاحتقار له وقالت باشمئزاز:

- لم يبق سواك لتغازلني! ادخل وانتظره بالمكتب.

فدخـل نـزار وجلـس أمـام مكتـب الميجـور وقـد ظهـرت عـلى وجهـه ملامـح القلـق، وأخـذ يفـرك يديـه مـن شـدة القلـق.. حـتى فُتـح البـاب بقـوة ودخـل الميجـور دان.. وكان رجـلاً ضخـم الجسـد أصلـع الـرأس ذا عضـلات مفتولـة.. مـا أن رآه نـزار حـتى انتفـض مـن مكانـه وأخـذ يـزداد في عرقـه.. فنظـر إليـه الميجـور بقـوة وأمسـك بكتفـه وصرخ فيـه قائـلاً:

- ألـم أقـل لـك لا تـأت إلى هنـا أبـدًا؟! نحـن الذيـن نسـتدعيك بطريقتنـا.

- سيدي الموضوع لا يحتمل التأجيل.. العصفور وقع.
فهدأ الميجور ورد:
- ماذا؟ ماذا تقصد؟
- لقد عاد مصطفى القوادري اليوم.. وجاء بزفّة وكأنه قادم من حرب.. ويبدو أنه سيلملم حوله هؤلاء الملاعين من أصدقائه مرة أخرى، وسيقوم بتأليب الأهالي ضدكم.
فصمت الميجور قليلاً ثم أكمل قائلاً:
- هذا الولد مشاغب ومثير للمشاكل ودائمًا ما يقود المظاهرات ضدنا.. اعتقلناه عشرات المرات ولكنه لا يكف عن فعلته.. وأنا على يقين أنه على علاقة بالعديد من منفذي العمليات الإجرامية التي حدثت في الفترة الأخيرة.. إنه يتخيل نفسه زعيمًا.
فأكمل نزار قائلاً:
- وها هو الآن أصبح بين أيدينا.. كما أنه قد قدم هذه المرة ومعه رجل أجنبي يقول إنه أستاذه.
فغمغم الميجور في سره قائلاً:
- هذه المرة لن أتركك يا مصطفى.
ففرك نزار يديه وقال بعينين لامعتين:
- ألا أستحق شيئًا على هذا الخبر؟! إنه يساوى مليون شيكل.
فدفعه الميجور بقوة من كتفه وقال:
- نحن من نقرر قيمة الخبر أيها الأبله.. اذهب وخذ من تاليا ٥٠٠٠ شيكل، ولا تأت إلى هنا إلا إذا استدعيناك.
فهرول نزار إلى الخارج.. واقترب من تاليا السكرتيرة وطلب منها المال.. ففتحت الدرج بجانبها وأخرجت له الـ٥٠٠٠ شيكل وقذفتها في وجهه.. فأمسك بها بلهفة وقال بنعومة:
- ألم يحن الوقت كي ترضي عني؟! لم أر في حياتي جمالاً قاسيًا

مثلـك.

فصرخت في وجهه قائلة:

- هـل جننـت؟! كيـف تتجـرأ وتخاطـب ضابطًـا في الجيـش الإسرائيـلي هكـذا.. ارحـل قبـل أن أخـبر الميجـور.

فأسرع خارجًا وهو يتحسس كتفه قائلاً:

- لا.. أرجوك.. فأنا أعرف معزتي عند الميجور.

ثـم خـرج مـن المركـز وهـو يحتضـن المـال ويخبئـه تحـت ثيابـه، وأعـاد تلثيـم وجهـه مـرة أخـرى حـتى عـاد إلى المدينـة.

*****

سـار كل مـن مصطفـى وغسـان وسـط الظـلام الدامـس والبرد الشـديد بـين المـزارع، وهمـا يغطيـان وجهيهمـا بالشـال.. فأخـذ مصطفـى يلتفـت حولـه ونظـر إلى غسـان قائـلاً:

- هل كل شيء على ما يرام؟

فرد غسان بثقة:

- لا تقلق.. كل شيء كما خططت.. والشباب جميعهم في الانتظار.

واقتربـا مـن بيـت قديـم عـلى أطـراف المدينـة.. ونـزلا إلى بـدروم البيـت، ونقـر غسـان البـاب بطريقـة معينـة حـتى انفتـح.. وكان يوجـد أربعـة شـباب ملثمـون بالشـال الفلسـطيني وسـط مجموعـة مـن الصناديق الخشـبية.. مـا أن رأوا مصطفـى حـتى قامـوا واحتضنـوه بقـوة.. فقـال أحدهـم:

- حمد الله على السلامة يا زعيم.

فرد مصطفى بحماس:

- لقـد اشـتقت إلى هـذا المـكان.. مـا زلـت أشـم رائحـة البـارود فيـه

وكأنـني تركتـه أمـس.

فرد غسان:

- كل شيء جاهز كما أخبرتنا آخر مرة.

- كان لا بـد أن نوقـف نشـاطنا طيلـة الفـترة السـابقة، وأن أبقـى في القـدس خـلال الدراسـة حـتى لا يربـط أحـد بيـني وبـين العمليـات.

- وها قد عدنا من جديد.

- وما أخبار السلاح؟

- هـا هـو موجـود بالكميـات الـتي طلبتهـا.. بعـد أن سـاعدنا إخواننـا في الأردن في تهريبـه عـبر الأنفـاق إلى هنـا.

فالتفت مصطفى بلهفة نحو صناديق الأسلحة قائلاً:

- وأين «قسّام»؟

فنظر إليه أحد الرجال مبتسمًا ورد:

- إنه في انتظارك.

فدخـل اثنـان مـن الرجـال يحمـلان صـاروخ «قسـام».. الـذي سـمي عـلى اسـم الشـهيد عـز الديـن القسـام بطـل المقاومـة الفلسـطينية، والـذي استشـهد عـلى يـد قـوات الاحتـلال البريطانيـة عـام ١٩٣٥.. ووضعـاه عـلى المنضـدة.. فوضـع يـده عليـه وكأنـه يحتضنـه، وأخـذ ينظـر إليـه بعينـين متشـوقتين، وقـال:

- هـذه المـرة لـن تكـون العمليـة سـهلة.. يجـب أن تكـون موجعـة حـتى لا تنسـيهم مـا فعلنـاه آخـر مـرة.

فرد غسان:

- بعـد أن فقـدوا أربعـة ضبـاط كبـار في دوريـة عسـكرية كبـيرة.. انكسرت شـوكتهم بشـدة في الخليـل وأصابهـم الذعـر والجنـون.. لقـد كانـت ضربـة في الصميـم.

فرد مصطفى بصوت متحشرج:

- هـذه المـرة يجـب أن يتألمـوا أكـثر وأكـثر.. يجـب أن أجعـل قلوبهـم تحـترق بالنـار الـتي حرقـوا بهـا قلوبنـا قبـل أجسـادنا.. هـذه المـرة سـآخذ بثـأر أم محمـود الـتي راحـت حياتهـا هـدرًا بسـبب غطرسـتهم وجنونهم.. دم تلـك المـرأة لـن يذهـب سـدى أبـدًا.. أبـدًا.

وأخـذ يمسـح الدمـوع الـتي سـالت مـن عينيـه.. فربـت غسـان عـلى كتفـه وقـال:

- إنـه ليـس ثـأرك وحـدك.. إنـه ثأرنـا كلنـا وكل الفلسـطينيين.. وكلنـا سـوف سـنأخذه معـك.

فرد مصطفى بقوة:

- هــذه المــرة ســتكون العمليــة في المعــبر الرئيــسي عنــد مدخــل المدينـة.. وقـت تغيـير الورديـة سـتكون مليئـة بالضبـاط والجنـود.. يجب أن نحصـد أكـبر عـدد مـن الضبـاط الكبـار.

فصاح الجميع بحماس شديد:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وأحــضر غســان مصحفًــا ووضعــه عــلى مائــدة.. فوضــع الجميــع أيديهــم عليــه.. وقــال مصطفــى:

- لنعاهد الله على استمرار الكفاح.. إما النصر وإما الشهادة.

*****

كان يومًـا مشمسًـا عــلى غــير عــادة شــتاء الخليــل.. فخــرج كل مــن مصطفـى والدكتـور ماكلـين يطوفـان في شـوارع المدينـة وحواريهـا، وكان مصطفـى يقـوم بـدور المرشـد.. فأخـذه نحـو سـوق «خـان شـاهين». تلـك السـوق القديمـة المليئـة بالمـارة، بينمـا كان الدكتـور ماكلـين يشـاهد بدقـة مبـاني الخـان العتيقـة ومنتجاتـه التراثيـة، مـا بـين جلـود وأقمشـة

وخـزف، وأخـذ يراقـب حـركات البائعـين وأصواتهـم وهـم يتغنـون ببضائعهـم.. ولكنـه لاحـظ مسحة حـزن عـلى وجـوه البائعـين وأصحـاب المحـال، فـكان أغلبهـا مغلقًا بأمـر القانـون الإسرائيـلي، حيـث إن الشـارع الرئيـسي للمدينـة المـؤدي إلى الأسـواق مغلـق أمـام حركـة السـيارات، بعدمـا احتلـت إسرائيـل المدينـة في عـام ١٩٦٧ وجعلتـه خاصًـا لأهـالي المسـتوطنات، الـتي أحاطـت بالمدينـة كالمخالـب، وأكبرهـا مسـتوطنة كريـات أربـع عنـد مدخـل الخليـل، الـتي انتـشر سـكانها في المدينـة بالسرطـان وأصبحـوا ينتفعـون بهـا أكـثر مـن أهلهـا.. فطـوال الطريـق وهـو يـرى اسـتفزاز قـوات الأمـن للبائعـين وأهـالي الخليـل، بينمـا يسـير سـكان المسـتوطنة بحريـة مطلقـة رافعـين أعـلام إسرائيـل ويرتـدون تي شـيرتات عليهـا كلمـات بذيئـة ضـد العـرب، مثـل «اللعنـة عـلى العـرب» و «العـرب خنازيـر».. حـتى وجـد صبيـة إسرائيليـين يرتـدون الطاقيـة اليهوديـة وتي شـيرتات عليهـا علـم إسرائيـل، يجـرون خلـف سـيدة مسـنّة فلسـطينية تحمـل أكياسًـا لمسـتلزماتها المنزليـة، ويقذفونهـا بالأحجـار ويمطرونهـا بالسـباب بالعربيـة والعبريـة.. فقـام أحـد الرجـال مـن مكانـه عـلى القهـوة ليدافـع عـن السـيدة، فانطلـق خلفـه رجـال قـوات الأمـن يضربونـه بمؤخـرة بنادقهـم ويطرحونـه أرضًـا حـتى نـزف مـن رأسـه بشـدة.. والـكل يشـاهد ويصمـت.

وأثنـاء مرورهمـا وجـدا مجموعـة مـن الصبيـة يبيعـون الشـال الفلسـطيني عـلى الطرقـات ويلوحـون بـه وكأنـه علـم.. فنظـر إليهـم بإعجـاب شـديد ولـم يـترك كاميرتـه لحظـة عـن التقـاط كل مـا يـراه.. فأقبـل مصطفى عـلى واحـد منهـم واشـترى منـه شـالاً فلسـطينيًا وأعطـاه للدكتـور ماكلـين قائـلاً:

- هذه هدية من الخليل.. كي تذكرك بنا.

فأمسـكه بتلهـف ووضعـه عـلى كتفـه سـعيدًا، وكأنـه واحـد مـن أهـل

البلـد الذيـن يسـيرون في الطرقـات.. ومـا أن مـر الوقـت حـتى ارتفـع صـوت أذان العـصر.. فتحـرك كل منهمـا إلى المسـجد الإبراهيمـي ذي الأسـوار الحجريـة العاليـة والمداميـك السـميكة.. ذلـك المسـجد العتيـق الـذي يشعّ مـن أروقتـه نـورًا روحانيًـا، ويفـوح هـواه أشـبه برائحـة مسـك قـادم مـن الجنـة.. ويـضيء المسـجد أنـوار ربانيـة قادمـة مـن خـلال شـبابيك زجاجيـة مزخرفـة تعكـس الضـوء عـلى أرضيتـه الرخاميـة.. ويضـم بـين جنباتـه أضرحـة أنبيـاء الله المكرمـين، يعلوهـا قبـاب ضخمـة.. فـترى ضريحًـا ضخمًـا للنـبي إسـحق وبجـواره قـبر زوجتـه رفقـة، ومنـه إلى الحـضرة الإبراهيميـة، تلـك الحجـرة الضخمـة ذات الجـدران والأعمـدة الرخاميـة المطعمـة بالصـدف، بينمـا زيّنـت الجـدران بآيـات مـن القـرآن الكريـم، وبهـا ضريـح خليـل الله وأبي الأنبيـاء إبراهيـم -عليـه الصـلاة والسـلام- وبجانبـه قـبر زوجتـه سـارة أم إسـحق، والمزينـة جدرانـه بآيات الله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيْـمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتَـاً لِلَّـهِ حَنِيْفَـاً وَلَـمْ يَـكُ مِـنَ الْمُشْرِكِـيْنَ﴾.

ومـن خـلال شـباك نحـاسي في الحـضرة الشريفـة يطـل عـلى قـبر النـبي يوسـف عليـه السـلام والمبـني مـن الحجـر، تـرى سـاحة المسـجد الفسـيحة الـتي يغطيهـا الحمـام يرفـرف بجناحيـه، وكأنـه يشـعر براحـة في هـذا المـكان النـوراني، وفي نهايتـه ضريـح النـبي يعقـوب الرخامـي، وبجـواره ضريـح زوجتـه لائقـة.

إلا أن هـذا الجـلال والبهـاء تطاولـت عليـه يـد الإسرائيليـين بعـد عـام ١٩٦٧.. فسـيطرت الحكومـة الإسرائيليـة عـلى المسـجد ونسـفت الـدرَج المـؤدي إلى المسـجد.. وضيقـوا الخنـاق عـلى المصلـين المسـلمين فزرعـوا بوابـات إلكترونيـة عنـد مداخـل المسـجد وكامـيرات مراقبـة، وطوقـوا المنطقـة المحيطـة بـه بدوريـات وحواجـز أمنيـة.. وأصبـح دخـول المسـلمين إليـه أشـبه بمعجـزة أو عمليـة فدائيـة.. وبعـد أن اجتـاز مصطفـى مراحـل التفتيـش الاربعـة متحمـلاً سـخافات جنـود الاحتـلال

الذيـن لـم يرحمـوا شيخًا أو صغـيرًا.. حيـث دخـل في طابـور عـبر بوابـة حديديـة، تـم تفتيشـه ذاتيًـا ثـم مـر بنقطـة أخـرى بهـا أربـع بوابـات إلكترونيـة، ومنهـا إلى نقطـة ثالثـة، ثـم نقطـة رابعـة مـن خـلال بوابتـين أخريـين.. نجـح في الدخـول إلى الجانـب المخصـص لصـلاة المسـلمين والـذي يغلـق تمامًـا مـع قـدوم أعيـاد اليهـود.. ووقـف مـع المصلـين الذيـن كانـوا يملـؤون المسـجد عـن آخـره، بينما كان صـوت الإمـام جهورًا، يصـل بقوتـه إلى خـارج المسـجد ويـرج جدرانـه كالزئـير، وهـو يكـبر مـع كل ركعـة «الله أكـبر.. الله أكـبر» ومـع كل سـجدة لـه كانـت تسـيل الدمـوع مـن عيـني مصطفـى وهـو يدعـو الله أن يوفّقـه في العمليـة الجديـدة، بينمـا كان قلبـه ينفطـر مـن الحمـاس.. ومـا أن انتهـت الصـلاة حـتى خـرج مـن المسـجد، فوجـد الدكتـور ماكلـين واقفًـا ينظـر إلى المسـجد بانبهـار شـديد بعدمـا انتظـره في اسـتراحة أقامتهـا بلديـة الخليـل الإسرائيليـة، لتسـد الرؤيـة عـن المسـجد وتجـذب السـائحين إليـه.. وأخـذ ينظـر إليـه وسـط جمـوع المصلـين وقـال لـه:

- منظـر المصلـين وهـم يخرجـون مـن المسـجد أفواجًـا مهيـب.. يهـتز لـه القلـب بشـدة.. تجمعكـم بهـذا العـدد وقـت الصـلاة، لـم أر مثيلـه بـأي مـكان رغـم عمليـات التفتيـش.. ولا حـتى عندنـا.

فابتسم مصطفى وصمت قليلاً ثم أشار إلى المسجد وقال:

- هـذا المسـجد ليـس مجـرد مـكان للصـلاة.. إنـه شـاهد لتاريـخ الخليـل ورمـز لكرامتهـا.

ثم صمت قليلاً وأشار بإصبعه إلى داخل المسجد وأكمل قائلاً:

- هنـا.. وبهـذا المسـجد حـدث أبشـع مـا سـجل تاريـخ البشريـة.. وبالأخـص في فجـر يـوم ٢٥ مـن فبرايـر عـام ١٩٩٤.. عندمـا جـاء العديـد مـن المصلـين يجتمعـون هنـا لأداء صـلاة فجـر منتصـف رمضـان وسـط هـدوء شـديد وخشـوع تـام وهـم يسـلمون وجوههـم إلى الله.. وفجـأة

دخـل أحـد المسـتوطنين يُدعـى «بـاروخ جولدشـتاين» المسـجد ممسـكًا برشـاش، وأخـذ يطلـق الطلقـات بوحشـية عـلى المصلـين، حـتى سـقطوا شـهداء وسـالت دماؤهـم الطاهـرة عـلى أرضيـة المسـجد.. ولـم يصـل الموقـف إلى هـذا الحـد فحسـب.. بـل تدخـل الجيـش الإسرائيـلي وفتـح النـار عـلى كل مـن حـاول الخـروج مـن المسـجد، ممـا زاد مـن عـدد الشـهداء والأبريـاء.. وبعـد تلـك المذبحـة عاقبـت الحكومـة الإسرائيليـة الضحيـة لصالـح الجـلاد.. وقسـمت المسـجد إلى قسـمين، أحدهمـا لليهـود وحوّلـوه إلى هيـكل بـه أضرحـة الأنبيـاء، ووضعـوا بـه صناديـق تضـم لفائـف توراتهـم، والآخـر بمسـاحة أصغـر تركـوه لنـا.

وأخـذت عينـاه تسـيل وصوتـه يتحـشرج.. بينمـا كان الدكتـور ماكلـين يسـتمع لـه وهـو في قمـة الذهـول وصمـت مـن هـول الصدمـة.. فأمسـك بمصطفـى واحتضنـه وقـال بصـوت مخنـوق:

- لـم أكـن أتصـور أن يصـل العـداء إلى هـذا الحـد مـن الوحشـية.. ترويـع المصلـين في دور عباداتهـم.. هـذا شيء رهيـب ومقـزز.. لا يطيقـه أي إنسـان سـويّ.

فمسح مصطفى دموعه ورد قائلاً:

- الآن عرفـت لمـاذا نكرههـم إلى هـذا الحـد ونقـف في وجههـم ونهاجمهـم باسـتمرار! هـؤلاء النـاس قدمـوا مـن الشـتات ليحتلـوا أرضنـا بغـير حـق ويخرجوننـا منهـا بمنتهـى الوحشـية والدمويـة.. ثـم تأتـون لتلقـوا اللـوم علينـا عندمـا ندافـع عـن أرضنـا.

ولـم ينـه مصطفـى كلماتـه حـتى خرجـت مـن المسـجد جنـازة أحـد شـهداء المظاهـرات.. ولـم يمـض الوقـت حـتى تحولـت الجنـازة إلى مظاهـرة كبـيرة، وأخـذ المتظاهـرون شـبابًا وشـيوخًا وأطفـالاً يـرددون كلمـات العـداء لإسرائيـل، ويهتفـون باسـم فلسـطين وهـم يطوفـون بجثمـان الشـهيد.. حـتى وصلـت دوريتـان إسرائيليتـان نحوهـم ونـزل

منها الجنود مدججين بالسلاح وأخذوا يطلقون النار عشوائيًا على المتظاهرين الذين كانوا يلقون الحجارة عليهم.. فسقط العشرات منهم على الأرض دون أن يفرقوا بين أطفال أو شيوخ.. فأخذ مصطفى يشد الدكتور ماكلين ليهربوا من وسط تلك الاشتباكات، حتى رآهما اثنين من الجنود وأخذا يركضان خلفهما.. حتى اختبئا في حارة ضيقة دون أن يراهما الجنديان.. ثم صعدا إلى سطح أحد البيوت ليراقبا ما يحدث.. وأخذ الدكتور ماكلين يحملق فيما يحدث حوله دون أن يصدّق عينيه.. فرأى مجموعة من الجنود تركض خلف أحد الشباب حتى أسقطوه وأخذوا يضربونه بوحشية بمؤخرة بنادقهم ويوخزونه بالسكاكين، حتى كادوا يقطعون أوصاله هو يصرخ من أعماقه، حتى أغشي عليه من شدة الألم.. فحمله أربعة جنود من كلتي يديه وقدميه كالذبيحة، وألقوه داخل سيارة الدورية ودماؤه تسيل منه وتملأ الشارع.. فأخذ الدكتور ماكلين يصور كل ما حدث بالكاميرة بدقة شديدة، بينما كانت عيناه يسيل منها الدمع دون أن يشعر، وأخذت أنامله تقشعر من هول ما رأى.

لم يكن في مقدوره أن يتصور مدى الدم والوحشية التي رآهما بعينيه دون أن تكذبا.. فما وجده الدكتور ماكلين لم يكن ليراه أبدًا على شاشة أي قناة، سواء CNN أو FOX NEWS أو حتى على الجزيرة.. كل شيء بلا تزييف أو كذب.. الدم والطغيان واضحان على الملأ وضوح الشمس والضحية أصبحت تحت الأقدام والجاني هو صاحب الصوت العالي.

جلس الدكتور ماكلين في شرفة حجرته ببيت القوادري وهو يسترجع كل ما صوّره بالكاميرة والدموع محبوسة في عينيه.. وملامح الأسى الممزوجة بالغضب تكسو وجهه لما اكتشفه من خديعة طوال سنوات وسنوات.. وكأنه كان أعمى العينين والقلب ومكبل اليدين

واللسـان.. وسـنوات عمـره انسـابت بـين يديـه في أكاذيـب محبوكـة لـم تخدعـه وحـده.. بـل خدعـت العالـم كلـه.. فـكل مـا كان يـراه هـو الوجـه الآخـر مـن الحقيقـة، أو النصـف الثـاني مـن العـدوان.

دخـل عليـه الحـاج إبراهيـم وسـط شروده العميـق، وحالـة الصدمـة الـتي زلزلـت كيانـه وبعـثرت كل تفكـيره في الفضـاء.. ولـم يفـق الدكتـور ماكلـين إلا عـلى يـد الحـاج إبراهيـم وهـو يربـت عـلى كتفـه قائـلاً:

- أعـرف أنـك رأيـت مـا لـم تتوقعـه اليـوم.. ولكننـا نعيـش تلـك المأسـاة كل يـوم، والأصعـب أنـه لا أحـد يشـعر بنـا، بـل يتهموننـا نحـن بالإرهـاب.

فرد الدكتور ماكلين بصوت مبحوح:

- هــذه وحشــية لــم أر مثلهــا.. مــاذا فعــل هــؤلاء كي يســحلون ويضربــون في الشــوارع ودماؤهمــا تســيل دون رحمــة؟!

- في كل بيـت مـن بيـوت الخليـل وفلسـطين كلهـا حكايـة مقاومـة تسـتحق أن تسـجلها بالكامـيرة الخاصـة بـك.. نحـن نقـدّم كل يـوم شـهيدًا جديـدًا، سـواء كان كهـلاً أو شـابًا أو حـتى طفـل.

ثـم أشـار بيـده إلى منطقـة بعيـدة عنـد سـفح الجبـل، وقـال بملامـح تملؤهـا الحـسرة:

- هـذه المزرعـة عنـد السـفح كانـت أرضنـا أبًـا عـن جـد.. كنـا نـزرع فيهـا الزيتـون الأخـضر اليانـع والمشـمش البرتقـالي كأنـه حبـات شـمس تتـلألأ عـلى الأرض.. حـتى ابتلعهـا الاحتـلال الإسرائيـلي وجـرف أشـجارها لبنـاء مسـتوطنة عليهـا، ونسـج عليهـا سـياجه الحديديـة.

فنظـر إليهـا الدكتـور ماكلـين بعـد أن أصبحـت غابـة مـن الأعمـدة الخرسـانية القبيحـة، قضـت عـلى أي ملامـح للطبيعـة الهادئـة بهـا.. ثـم اتـكأ الحـاج إبراهيـم عـلى عصـاه وأكمـل قائـلاً:

- أريـدك أن تخبرهـم في بـلادك بـأن العـرب لا يحاربـون إلا مـن

حاربهـم وأخرجهـم مـن ديارهـم.

مـا أن أكمـل الحـاج إبراهيـم كلامـه حـتى سـمع نقـرًا عـلى البـاب.. كان مصطفى ينتظـر والـده ليخـبره بـضرورة قيامهما بواجـب عـزاء.. إنـه عـزاء الشـهيد يونـس الصوالحـة مـن سـكان الخليـل، والـذي استشـهد في مناوشـة مـع جنـود الاحتـلال في الصبـاح.. فسـأله الدكتـور ماكلـين عـلى اسـتحياء:

- هل هو جار لكم أو أحد أقربائكم؟

- نحـن هنـا كلنـا أهـل وأقـارب.. حـتى لـو لـم تربطنـا علاقـة دم أو صهـر.. فـكل البيـوت همهـا واحـد ومصيرهـا واحـد.

فصمـت الدكتـور ماكلـين وتـردد في السـؤال الـذي ظهـر جليًـا في عينيـه ثـم قـال:

- هل يمكن أن آتي معكما؟

- بالطبع.. إنه ليس ببعيد عن هنا.

سـار كل مـن الحـاج إبراهيـم ومصطفـى ومعهمـا الدكتـور ماكلـين عـبر منـازل وادي الجـوز القديمـة.. فلاحـظ عليهـا رسـومات وشـعارات تمثـل قبـة الصخـرة، ومعهـا يـدان تمسـكان بالسـلاح، بجوارهـا عبـارات مكتوبـة بالأسـود والأحمـر العريـض، تتضمـن أسـماء متعـددة.. فقـال لـه مصطفـى:

- هـذه شـعارات فصائـل المقاومـة الفلسـطينية، وهـذه أسـماء الشـهداء الذيـن قدمهـم آل هـذا البيـت فـداء للوطـن.

حـتى وصلـوا إلى بيـت آل الصوالحـة.. فوجـدوا عـلى جـدران المـنزل أسـماء عـدة شـهداء، وبجوارهـم صورهـم يعلوهـا أكاليـل الزهـور، وفي المنتصـف صـورة الشـهيد الجديـد عريـس الليلـة، ومكتـوب بجـواره «يـزف آل الصوالحـة بمزيـد مـن الاعـتزاز والفخـر ابنهـا الشـهيد يونـس»، فدخلـوا عـبر فنـاء المـنزل إلى قاعـة كبـيرة توافـد فيهـا المُعزِّيـن لآل

الصوالحة مبتسمين وسعداء.. فلا أحد يبكي الشهيد، بل الكل يهنئ العائلة وكأنه فرح يصعد فيه العريس إلى السماء.. فرفع الدكتور ماكلين عينه قليلاً، فوجد النساء واقفات في الشرفات لا تصرخن أو تلطمن.. بل تطلقن الزغاريد والأهازيج الحماسية.. كان الحاج «معين الصوالحة» يقف في مدخل القاعة يستقبل الزوار بوجه بشوش يكتسيه الفخر والإعزاز.. ورغم التجاعيد العميقة المحفورة في ثنيات وجهه لكن خبر استشهاد أكبر أبنائه جعل تلك التجاعيد تذوب في إشراقة الفرح التي تشع من وجهه، وهو يرحب بالحاضرين وكأنهم يحسدونه على شهادة ولده، وليس ليرثون حاله.

وما أن جلسوا حتى طاف عليهم صبية صغار يرتدون ملابس جديدة عليها أوشحة خضراء، تضم شعارات حماسية، يوزعون على الحاضرين التمور وكؤوس الشربات والابتسامة تملأ وجوههم.. وما أن انتهى الشيخ من تلاوة جزء من القرآن الكريم.. حتى انطلقت مكبرات الصوت في المنزل بإذاعة أغانٍ حماسية ترج أركان المنزل والحي بأكمله، بينما أخذ الحاضرين يرددونها بأصوات عالية:

- «يا صهيوني اسمع اسمع.. شعب الشهداء لا ما بيركع

لا لا للاستسلام.. وعيون تسهر ما تنام.. أقصانا حتمًا راح يرجع

اهدم علينا الحارات.. اقصف بالطيارات.. من وسط الركام بنطلع.. أبطال بنواجه مدفع

اسمع ياعدو الدار.. ها الأرض أرض أحرار.. أقسمنا أطفال صغار.. لنخلي الغاصب يركع».

لم يصدق الدكتور ماكلين بأنه في عزاء شهيد.. بل شعر لوهلة أنه في مظاهرة حماسية تلهب الأحاسيس، يخرج منها بركان الغضب ليحرق مغتصبي الأرض.. ليلة عرس مثل كل ليلة من ليالي الخليل، يزف فيها شهداؤها الأبطال على الجنة.. فالكل يزاحم في حمل

نعـش الشـهيد أثنـاء تشـييع جثمانـه الطاهـر، ويتسـابقون عـلى ملامسـة جـزء مـن جسـده وتقبيـل وجهـه، وكأنـه يدعوهـم للحـاق بـه إلى الجنـة.

*****

دخـل عسـاف الملهـى وهـو يحمـل حقيبـة سـوداء يحـاول أن يخفيهـا عــن أعــين الموجوديــن بــه.. رغـم أن كلهـم كانــوا إمـا سـكارى وإمـا مدمنـين ولا يعـيرون لـه أي انتبـاه.. فمـا أن رآه نعـوم حـتى أقبـل عليـه وهـو يترنـح وأمسـك بالحقيبـة بقـوة قائـلاً:

- كنت أعلم أنك ستأتي بالبضاعة.. فإنك لن تضيع فرصة كهذه.

فنظر إليه عساف وهو يسحب الحقيبة من بين يديه بقوة قائلاً:

- أيهـا الأحمـق! اتركـني.. إنـه المـال الـذي أخذتـه مـن عـزرا نظـير توزيــع البضاعـة.

فحملــق نعــوم في الحقيبــة بعينيــه الحمراويــن وضحــك ضحكتــه البلهــاء قائــلاً:

- إذن لنشترِ بها بضاعة لنا.

فأزاحه عساف بيده وقال بصوت غليظ:

- يبــدو أن الهيرويــن قــد مسـح مخــك نهائيًــا.. هنـاك أشـياء أهـم سـنفعلها بالمــال.

فنظر إليه نعوم وضحك مرة أخرى قائلاً:

- على العموم العصفورة في انتظارك.. إنها هنا منذ فترة.

فانتبـه عسـاف إليـه وارتسـمت ملامـح النشـوة عـلى وجهـه.. واقـترب مـن فتـاة تجلـس عـلى طاولـة في آخـر بالحانـة، ووضـع يـده عـلى كتفهـا، فرفعـت رأسـها.. كانـت مريـم جالسـة في ركـن مظلـم تتعاطـى الهيرويـن بالحانـة.. ظهـر وجههـا أصفـر شـاحبًا وشـعرها أشـعث متطايـرًا وعيناهـا

غائرتـين حمراويـن تلتـف حولهمـا هـالات سـوداء. أخـذت تفـرش البـودرة عـلى الطاولـة وتلقـي بأنفهـا عليهـا لتستنشـق حبيبـات الهيرويـن حـتى تغيـب عـن الوعـي، ثـم تسـتيقظ مـرة أخـرى لتتعاطـى جرعـة ثانيـة.. ومـا أن تفيـق قليـلاً حـتى تهـذي بالـكلام.. فجلـس كل مـن عسـاف ونعـوم بجوارهـا.. فرفعـت رأسـها قليـلاً ونظـرت إليهمـا بـلا مبـالاة وقالـت بصـوت ضعيـف:

- مـن أنتمـا؟ إنـني أعرفـك، أنـت نعـوم.. لكنـني لا أعـرف ذلـك الرجـل السخيف.

فرد عساف بهدوء:

- ألا تعرفيني؟ أنا عساف! الذي أحضر لك الهيروين منذ أسبوعين.

فرد عليه نعوم ساخرًا:

- كيـف لا تعرفينـه يـا مريـم.. كلنـا هنـا أتباعـه.. فهـو الـذي يحـضر لنـا المـزاج.

فمسحت البودرة اللاصقة على أنفها ونظرت إليه وقالت:

- بلى.. بلى.. هل أحضرت معك البودرة؟

فابتسم عساف ابتسامة صفراء وقال:

- بالطبع معي، إنني لا أستطيع أن أتأخر عليك أبدًا.

فرد نعوم:

- أرأيـتِ كـم نحـن نحبـك؟! فلمـاذا كنـتِ تتركيننـا وتذهبـين مـع ذلـك العربي؟!

فانتفضـت مريـم مـن مكانهـا وارتسـمت عـلى وجههـا علامـات الوجـوم.. وكأن كلمـة العـربي قـد بـدأت في إعادتهـا للوعـي وأوقفـت تأثـير المخـدر عليهـا.. فقـام عسـاف مـن مكانـه وركل نعـوم في ظهـره وقـال بصـوت خافـت:

- لماذا تذكّرها يا غبي؟ إنها تريد أن تنسى.

أخـذت تنظـر إليهمـا بعينـين ضيقتـين، وترمـق مـا حولهـا بنظـرات شـاردة، ثـم أخـذت تهـذي قائلـة:

- لـم أكـن أعـرف أني رخيصـة لهـذه الدرجـة.. فقـد فعلـت كل شيء كي أحتفـظ بـه لنفسي.. لكنـه لـم يحبـني كمـا أردت.. فقـد أحـب أهلـه أكـثر مـني.. رغـم أنهـم لـن يعطـوه مـا كنـت سـأعطيه لـه.. كنـت عـلى اسـتعداد لأفعـل كل شيء مـن أجلـه.. وبعـد كل ذلـك يذهـب ويتركـني وحـدي.. لـم يبـق لي شيء الآن سـوى تلـك البـودرة اللعينـة.

وأجهشـت في البـكاء بطريقـة هسـتيرية وهـي تـضرب بيديهـا عـلى الطاولـة.. فنظـر إليهـا عسـاف نظـرات ناريـة وكأن الـشرر سـيخرج مـن مقلتيـه ليحرقهـا، واقـترب مـن أذنيهـا بشـفتيه قائـلاً:

- أرأيـتِ أن العـرب خائنـون ومجرمـون؟! نحـن الذيـن نخـاف عليـك.. ابقـي معنـا كي تكسـبين.

فنظرت إليه شاردة وقالت وهي تترنح:

- إذن أين البودرة التي وعدتني بها؟

فأخـرج مـن جيبـه كيسًـا صغـيرًا، بينمـا كانـت نظراتهـا تتسـابق إليـه وهـي تلهـث لالتهامـه.. ففتحـه وأنـزل بعضًـا منـه عـلى الطاولـة.. فانكبت عليـه بأنفهـا دون أن تـدري.. وأخـذ يتـدرج بالبـودرة حـتى أسـقطها عـلى طـرف حذائـه.. فسـقطت وراءهـا وأخـذت تلعقـه بلسـانها وتضـع أنفهـا عـلى طـرف الحـذاء كي تلحـق مـا بقـي مـن المخـدر.. فنظـر إليهـا والحقـد يكتـسي وجهـه، وقـال بصـوت يعتليـه التشـفي:

- انظـري! لقـد جعلتـك تركعـين لي بعـد سـنوات مـن التكـبر والغـرور.. جعلـت أنفـك عنـد أطـراف حـذائي كمـا أردت.. ليـت أبـوك يعقـوب يـأتي الآن كي يـرى مـا كان يفخـر بـه، أصبـح الآن في الوحـل.

*****

بينمـا كان ديفيـد جالسًـا في حجرتـه ينظّـف مسدسـه، وحولـه أوراق خاصـة بخطـط ضرب تجمعـات فلسـطينية، سـمع صـوت طـرق عنيـف عـلى البـاب، فانتفـض مسرعًـا ينظـر مـن العـين السـحرية في البـاب.. فوجـد دان أمامـه وقـد اصفـر وجهـه وذابـت ملامحـه مـن الخـوف.. ففتـح لـه مسرعًـا وقـال لـه بصـوت أجـش:

- ماذا حدث؟

فرد دان وهو يرتعد:

- كارثـة ديفيـد.. الشرطـة داهمـت بيـت الرابّـاي شـمعون وقبضـت عـلى مجموعـة مـن أعضـاء الحركـة، وسـوف تـأتي إليـك بـين لحظـة وأخـرى.

فاتسعت عينا ديفيد ورد بقوة:

- ماذا؟

- يجب أن ترحل فورًا؛ هناك من يتتبعنا منذ حادثة دانيال.

لـم يكمـل دان كلماتـه حـتى سـمع أصـوات خطـوات متتابعـة تصعـد نحـو الشـقة، وبـدأ طـرق عنيـف عـلى البـاب يـكاد أن يخلعـه مـن مكانـه.. فوضـع ديفيـد المسـدس في جانبـه ولملـم أوراقـه بسرعـة، وقفـز هـو ودان عـبر النافـذة إلى سـطح عمـارة مجـاورة، ومنـه إلى سـلالم حديديـة خارجيـة، في حـين اقتحمـت قـوة خاصـة مـن الشرطـة الشـقة وقفـزوا خلفـه.. فهـرع ديفيـد ودان عـبر السـلالم وسـط دهشـة الجـيران، حـتى وصـلا إلى شـارع خلفـي بجـوار صنـدوق كبـير للقمامـة، حـاولا الاختبـاء خلفـه فوجـدا صوتًـا قويًـا يخـرج مـن خلـف الصنـدوق:

- ارفعا أيديكما؛ أنتما محاصران.

خـرج لهمـا شرطـي كان يختـبئ لهمـا، حـاول مطاردتهمـا، فأخـرج ديفيد مسدسـه وأطلـق النـار عـلى رأسـه فقتلـه فـورًا.. فنظـر إليـه دان والـدم يغطـي وجهـه، فارتعـدت أسـاريره وتجمـد الـدم في عروقـه ووقـف مكانـه

كالتمثال قائلاً:

- ماذا فعلت؟ لقد قتلت شرطيًا.. إننا هالكان لا محالة.

فجذبه ديفيد بقوة:

- وماذا تنتظر؟ حتى يقبضوا علينا!

وفجأة ظهرت لهما سيارة سوداء كالتي دائمًا ما يركبونها، يقودها عومير.. فقفزا فيها على الفور، وانطلقت بسرعة البرق، فطاردتها سيارة شرطة، فدخلت عبر شوارع داخلية بسرعة جنونية، حتى اختفت بعيدًا عن أعين الشرطة.. بينما كانت عينا ديفيد ودان متعلقة بمنظر الشرطي القتيل، بعدما أصبحا أمام الدولة قاتلين وليسا بطلين.. ولم يدرك ديفيد أنه قد اقترف كارثة أخطر بمراحل من قتل الشرطي..

ضياع نسخة البرتوكولات.

*****

في الساعة الثالثة إلا خمس دقائق فجرًا ووسط الظلمة الحالكة وهدوء مدينة الخليل القاتل.. كان المعبر الرئيسي بمدخل المدينة في حالة تيقظ.. وأخذ عشرات من الجنود الإسرائيليين ينقلون صناديق السلاح الخاصة ويتبدلون استعدادًا لتغيير الوردية.. تسلل كل من مصطفى وغسان عبر التلال المحيطة بالمعبر، وهما ملثّمان يحملان سلاحهما، وأخذا يراقبان حركة الجنود، ثم قاما بنصب الصاروخ «قسام» على قاعدته باتجاه المعبر، وخبآه بين الأشجار، ثم أخذا ينظمان الأسلاك الخاصة به استعدادًا لإطلاقه.. حتى أتى أربعة من الشباب الملثمين خلفهما، والتفوا جميعهم حول مصطفى.. فنظر إليهم بعينيه اللتين لا يظهر سواهما من وجهه الملثم، وأخذ

بريقهما يلمع في وسط الظلام.. وقال بصوت خافت:

- لم يبق سوى دقائق على تنفيذ العملية.. سنوجّه الصاروخ في تمام الثالثة مع تجمع كل من جنود الورديتين لننسف المعبر بكل من فيه.. حينها سيصبح المعبر جحيمًا.. ثم نحيط المعبر عبر التلال لنقتل أي جندي يحاول الفرار من الموقع.. يجب أن نقضي عليهم جميعًا ولا ندع أحد من هؤلاء السفلة يعيش.. تذكروا أن يد الله مع المؤمنين.. والنصر قادم بإذن الله.

ثم التفوا جميعًا يقرؤون سورة الفاتحة ثم انتشروا عبر التلال.. بينما أخذ مصطفى يجهّز الصاروخ للانطلاق.. حينها أتت سيارتا نقل جنود كبيرتان، ونزلت مجموعة من الجنود حاملين أسلحتهم وأخذوا ينقلون معداتهم، بينما استعدت مجموعة أخرى للرحيل ووقف قائد المجموعة يشرف عليها.. حينها نظر إليهم مصطفى والنار تشتعل داخل عينيه ويديه تتسارع إلى الأسلاك، ثم قال في سره «بسم الله.. توكلت على الله».. فانطلق الصاروخ نحو المعبر فانفجر كل ما فيه وأصبح قطعة من الجمر، وتطايرت أجساد الجنود وانتشرت أشلاؤها في كل مكان، وتناثرت خوذهم حول المكان وتطاير علم إسرائيل من فوق المعبر واحترق بالنار، واشتعلت النيران في السيارات وطالت الأسلحة والذخائر، مما زاد من الانفجار، حتى وصلت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، وأضاءت ليل الخليل نهارًا، وهز دوي الانفجار أرجاء المدينة فأيقظها من نومها.. فوقف مصطفى وغسان من مكانهما وأخذا يصرخان بصوت عالٍ «الله أكبر.. الله أكبر»، وأخذت الدموع تنهمر من عيني مصطفى وسجد لله شكرًا.. بينما أخذ يلوح غسان بشاله عاليًا واحتضنه قائلاً:

- نجحنا يا بطل.. أخذنا بالثأر.

ثم انطلق الشباب جميعًا ونزلوا من التل نحو موقع الانفجار..

وأخـذوا يركضـون عـبر النـيران يتصيـدون الجنـود الهاربـين مـن الموقـع، ويطلقـون عليهـم النـار برشاشـاتهم، فتسـاقط الجنـود دون مقاومـة.. حـتى قدمـت سـيارة دوريـة إسرائيليـة ونـزل منهـا مجموعـة مـن الجنـود يحاولـون إنقـاذ المعـبر واللحـاق بمنفّـذي الانفجـار.. فهـرب الشـباب مـن الموقـع وركضـوا نحـو التـلال.. بينمـا اسـتمر مصطفـى يختـبئ وسـط أنقـاض المعـبر كي يقاتـل المزيـد مـن الجنـود.. فـأتى نحـوه غسـان وجذبه مـن يـده قائـلاً:

- لا بـد أن ننسـحب الآن.. لقـد أتى العديـد مـن الدوريـات إلى المـكان وبـدأت ذخيرتنـا في النفـاد.

فأصابتـه حالـة هسـتيرية وخـرج عـن شـعوره ورفـع سـلاحه عاليًـا ويـصرخ:

- يجب أن أقضي عليهم كلهم.. كلهم

فأمسك به وقال بقوة:

- لم يعد هناك وقت إنهم يحومون حولنا.

وسـحبه بالقـوة حـتى ابتعـدا عـن المـكان.. فلمحهمـا أحـد الجنـود وصـوب بندقيتـه نحـو مصطفـى، فأصابـه في سـاقه فسـقط عـلى الأرض وأخـذت سـاقه تـنزف بغـزارة.. فحملـه غسـان وأخـرج قنبلـة يدويـة قذفها في اتجـاه الجنـدي، فانفجـرت فيـه ثـم هربـا عـبر التـلال.

وبـدأت الدوريـات الإسرائيليـة تتوافـد عـلى الموقـع، وأخـذت المروحيـات تطـوف عـبر التـلال، وانتـشر الجنـود الإسرائيليـون داخـل المدينـة بحركـة جنونيـة بحثًـا عـن مرتكـبي العمليـة.. ونزلـوا بأسـلحتهم إلى الشـوارع وأغلقوهـا تمامًـا، وأخـذوا يداهمـون المنـازل بوحشـية، يفتشـونها ويُخرجـون أهلهـا قـرب الفجـر، ويسـوقون أمامهـم أكـبر عـدد مـن الأهـالي للتحقيـق.. بينمـا ركـض غسـان وهـو يحمـل مصطفـى وهـو يـنزف، حـتى وصـلا إلى مـنزل أختـه أمينـة.. فمـا أن رأتهمـا بتلـك الهيئـة

حـتى أدخلتهمـا بسرعـة، وهــي تحملـق في وجهيهمـا بعينـين فخورتـين ونـبرة صـوت مرتعشـة وهـي تتسـاءل:

- ماذا حدث؟ أأنتما وراء تلك التفجيرات؟

فرد غسان مضطربًا:

- نعـم نحـن.. أرجـوك احمينـا.. واعتـني بمصطفـى.. إنهـم يبحثـون عنـا بالخـارج.

فردت بقوة:

- لا تقلقـا.. ادخـلا في تلـك الحجـرة.. إنـني لا أريـد نـزار أن يراكمـا وأنتمـا في تلـك الحالـة.

ولـم تكمـل كلمتهـا حـتى دخـل عليهـم نـزار، فرآهمـا في تلـك الحالـة الرثـة، بينمـا كان دم مصطفـى يسـيل عـلى أرضيـة المـنزل.. فلمعـت عينـاه واشـتعل الـشر داخلـه.. فأخـذ يهلـل بصـوت عـالٍ:

- أهـلاً بالأبطـال.. إنـني لا أصـدق أنكمـا قمتمـا بتلـك العمليـة.. أنتمـا لا تتخيـلان كـم أنـا فخـور بكمـا!

فنظـر إليـه غسـان نظـرة عميقـة دون أن ينطـق.. فأكملـت أمينـة قائلـة:

- اخفض صوتك ودعك من هذا الكلام.. وساعدنا كي نعالجه.

فحملـوا مصطفـى وهـم يضمـدون لـه جرحـه.. فاسـتغل نـزار انشـغالهم بغسـان ودخـل غرفتـه خلسـة وأغلـق البـاب خلفـه وأخـرج جهـازًا لاسـلكيًا وأخـذ يتحـدث فيـه بصـوت خافـت.. ثـم خـرج وجلـس معهم...أخـذت أمينـة تضمـد سـاق أخيهـا وهـو يحـاول التماسـك، بينمـا كانـت عينـاه تذرفـان الدمـع مـن شـدة الألـم.. فأمسـكت بيـده وقبضـت عليهـا بينمـا نظـر إليـه غسـان وقـال:

- تماسك يا بطل.. انهض كي ترى ما فعلناه فيهم.

وفجـأة أخـذ البـاب يـدق بعنـف وصـاح مجموعـة مـن الضبـاط

الإسرائيليين «افتحوا.. افتحوا» وهم يضربون الباب بمؤخرة بنادقهم حتى كادوا أن يخلعوه.. فانتفض الجميع ذعرًا فأرشدتهما أمينة لأحدى الحجرات الخلفية كي يقفزا منها.. فانفتح الباب ودخل مجموعة من الجنود يفتشون المنزل بحثًا عنهما.. في حين حاول غسان النزول من النافذة وأمسك بيد مصطفى ليساعده على الفرار معه.. إلا أن مجموعة أخرى من الجنود المتربصين خلف المنزل أمسكوا بهما أسفل النافذة وجرّوهما إلى سيارة الدورية بعنف.. فصرخت أمينة وهي تحاول اللحاق بهما، حتى كاد أن يغمى عليها من شدة البكاء.. فأمسكها زوجها وهو يحاول أن يهدئ من روعها، وهو ينظر إليهم من النافذة ولمعان السعادة يتراقص داخل عينيه.

*****

الشهيد

جلست جولدا على أريكة الصالة تقوم ببعض أعمال الخياطة.. بينما كانت تراقب ابنتها التي ظهرت عليها تغيرات غريبة دون أن تستطيع تفسيرها.. فرغم ما كانت مريم عليه من انطواء داخل المنزل.. فإنها أصبحت تجلس في غرفتها لفترات طويلة، يسمع خلالها صوت بكائها الغريب، بالإضافة إلى شحوب وجهها وجسدها الذي أصبح هزيلاً يومًا بعد يوم.. أصبحت مريم شديدة العصبية داخل المنزل وخارجه.. خرجت مريم من حجرتها بمنظرها الرث وشعرها المتطاير، تسير في المنزل مترنحة، حتى اصطدمت ب«ڤازة»، فوقعت على الأرض وانكسرت.. فقامت جولدا من مكانها مذعورة وأخذت توبخها بصوت عالٍ:

- لقد تحملت ما أنت فيه بما يكفي.. إنك لا ترين ما أنت عليه الآن.

فانفعلت مريم قائلة:

- اتركيني وشأني.. لا أريد من أحد أن يهتم بي.

- أنا لن أتركك هكذا.. لقد أصبحت أشبه بالشبح.. ليت أباك يدري بما نحن فيه الآن.

فازداد انفعالها وأخذت تصرخ قائلة:

- لقد سئمت من معاملتكم لي.. ولم أعد أتحمل الحياة معكم.

وبدأت تشعر بصداع شديد في رأسها.. فشعرت خلاله أنها في حاجة إلى جرعة من المخدر.. فارتعشت شفتيها واهتزت أطرافها وسرت في جسدها قشعريرة تحولت إلى بدايات تشنج.. فأسرعت إلى

حجرتهـا لتحـضر بعـض المـال وتذهـب خـارج المـنزل.. فأمسـكت بهـا أمهـا وصرخـت فيهـا:

- لن تنزلي إلى الخارج إلا بعد أن أعرف ماذا يصيبك.

فازداد تشنجها وحاولت التملص من يدي أمها وهي تصرخ:

- دعيني أخرج.. لم أعد أحتمل.

ومـا أن فتحـت البـاب حـتى وجـدت شـخصًا يقـف أمامهـا.. فاتسـعت عيناهـا ولـم تصـدق مـا تـرى.. وجـدت مـوشي وقـد عـاد مـن القاعـدة الجويـة في إجـازة مرتديًـا زيـه العسـكري الأزرق ويحمـل حقيبتـه عـلى ظهـره.. فارتمـت مريـم في أحضانـه ودمـوع الفـرح تـنزل مـن عينيهـا، بينما تصاعـدت أنفاسـها بشـدة مـن المفاجـأة وهـدأ الصـداع الذي كان برأسـها، وكأن مـوشي قـد خفـف مفعـول المخـدر بهـا.. وأخـذت أمـه تقبّلـه وهـي تـصرخ مـن الفرحـة «مـوشي عـاد يـا أوغـاد»، جلـس مـوشي عـلى الأريكـة بعـد أن ظهـرت عليـه علامـات الإرهـاق، وهـو يحـاول التقـاط أنفاسـه مـن طـول الطريـق.. وأخـذ يحملـق في أركان المـنزل وقـال:

- لقد اشتقت إلى كل شيء هنا.

فنظرت إليه مريم بعينيها المرهقتين وقالت:

- بـل أنـا الـذي اشـتقت إليـك بجنـون مـوشي.. أنـت لا تعـرف كيـف كانـت حياتنـا بدونـك.

ودخلـت جولـدا المطبـخ وأحـضرت بعـض الحلـوى اليهوديـة لـه قائلـة:

- ولكن كيف خرجت من القاعدة؟

- لقد منحت إجازة طويلة وسأبقى معكم حتى تملون منى.

فأمسكت مريم بيده قائلة:

- نحن لن نمل منك أبدًا.. ولكن أبق أنت معنا.

ومـا أن بـدأ مـوشي في الـكلام حـتى وضعـت جولـدا طعـام الغـداء

علـى الطاولـة.. فقفـز مـوشي عليهـا وخلفـه إخوتـه.. فصرخـت فيهـم قائلـة:

- هـذا الأكل لأخيكـم فقـط.. فقـد كان يعـاني في الجيـش وفي حربـه ضـد العـرب.

وبينمـا جلـس الجميـع يأكلـون كانـت مريـم تعبـث في طبقهـا بعـد أن زادت عليهـا علامـات الإعيـاء.. فأخـذ يرمقهـا مـوشي بعينيـه، ثـم تحـول بنظـره إلى أمـه وسـأل عـن أبيـه كي لا يلفـت نظرهـا.. فـردت بتأفـف معتاد:

- كالعـادة.. أبـوك في مكتـب السـمسرة يقابـل بعـض العمـلاء.. حـتى ولـو كان هنـا فـلا فائـدة منـه.

ومـا أن انتهـى الجميـع مـن الطعـام حـتى دخلـت مريـم إلى حجرتهـا.. فدخـل خلفهـا مـوشي فانتبهـت لـه مبتسـمة.. فوضـع يـده عـلى كتفهـا قائـلاً:

- أشعر أن هناك شيئًا ما يمر بك.

فارتبكت قليلاً وقالت:

- لا أبدًا.

- إنني لم أتعوّد أن تكذبين عليّ من قبل.

فصمتـت مريـم وهـي تزيـغ بنظرهـا عنـه.. فركـز أنظـاره داخـل عينيهـا قائـلاً:

- إنـني لسـت أخـاك فحسـب.. بـل أقـرب إنسـان لـك في الحيـاة.. حـتى ولـو أخفيـت الأمـر عـلى أمـي فلـن تخفيـه عـني.

فتنهدت تنهيدة طويلة تخرج من صدرها حارقة وأكملت قائلة:

- لـم أعـد أحتمـل الحيـاة.. فـكل مـا حـولي يخنقـني.. أشـعر وكأن النـار تحيـط بي مـن كل ناحيـة ولا أحـد يأتيـني لينقـذني.. حـتى أقـرب النـاس إليّ تخلـوا عـني.

- ولكن هذا هو وطننا ولا يمكن أن نتخلى عنه لأي سبب.

فانفعلت مريم بشدة وردت بصوت عالٍ:

- أعطني سببًا يجعلني أستمر في الحياة هنا.. كل من حولنا يكرهنا.. الأشكيناز والعرب وغيرهم.. حتى جيراننا في المستوطنة يتمنون رحيلنا بأي شكل.

فحاول تهدئتها وأخذ يضمها إليه.. فانهمرت دموعها وقالت بصوت مخنوق:

- إنني لم أعد أشعر بالأمان هنا.. لقد جئت لي في الوقت المناسب موشي.. لولا أن أتيت الآن لما كنت أعرف كيف سأعيش.

فضمها موشي إلى صدره أكثر وقال لها:

- لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام.. أنا سأظل معك دائمًا.

ثم أخذ يتحسس شعرها الأسود الحالك، حتى نزل بيده على خدها ليمسح دموعها، وأكمل قائلاً:

- والآن أريد أن أرى ابتسامتك الجميلة التي تعودت عليها.

دخل موشي غرفته وأشعل شموع الشمعدان اليهودي، ووقف بجوار النافذة مرتديًا شالاً أبيض ذا أهداب زرقاء يلفه على رأسه، وهو يمسك بكتاب الصلوات، وأخذ يردد صلاة «معاريف» أي صلاة الليل.. حتى دخل أخوه الصغير وأخبره أن هناك جنودًا يقفون على الباب يريدون مقابلته.. فخلع موشي الشال ووضع كتاب الصلوات على المنضدة وخرج إليهم.. فوقف أمامه أحد الجنود قائلاً بصوت خافت:

- أعتذر كابتن عن وجودي في وقت غير مناسب.. ولكنك مطلوب فورًا بالقاعدة الجوية بغزّة.

فارتسمت ملامح القلق على وجهه وقال للجندي:

- غزة؟! أهناك شيء ما حدث؟

- لا نعلم سيدي ولكن الأمر عاجل.

فدخـل مـوشي وارتـدى ملابسـه العسـكرية، وأخـذ ينظـر إلى عائلتـه، وتسـلل إليـه شـعور غريـب بأنـه ذاهـب إلى هـلاك.. فأخـذ يحملـق في أركان المـنزل واحتضـن أمـه بقـوة، فانهمـرت الدمـوع مـن عيـنيّ أمـه وهـي تقـول بصـوت مخنـوق:

- إنهـا ليسـت أول مـرة يسـتدعونك فيهـا.. ولكـن قلـبي يخـبرني بـأن هنـاك شـيئًا مـا.

فابتسم موشي ومسح دموعها قائلاً:

- لا تقلقي يا أمي.. فقط صلّي من أجلي.

واسـتعد للخـروج بينمـا وقفـت مريـم بعيـدًا تنظـر إليـه، والدمـوع تشـق طريقهـا عـلى خديهـا وكأنهـا تتحـدث.. فارتمـت في أحضانـه وهـي تقـول:

- ستعود لي يا أخي.. أليس كذلك؟ لقد أقسمت لي بهذا.

فنظر إليها وهو يحاول أن يتماسك قائلاً:

- بالطبع سأعود.

ثـم أخـذ حقيبتـه وركـب مـع الجنـود السـيارة العسـكرية وانطلقـوا عـبر شـوارع المسـتوطنة.. بينمـا خرجـت مريـم مسرعـة وهـي تودعـه بطريقـة هسـتيرية حـتى غـاب عنهـا.

وصلـت السـيارة إلى قاعـدة «حيتسريـم» الجويـة، أكـبر قاعـدة جويـة بالمنطقـة الجنوبيـة لإسرائيـل، والمحاطـة بالأسـوار، والمليئـة بنقـاط الحراسـة عنـد ضواحـي غـزة.. فوجـد مـوشي القاعـدة في حالـة اسـتنفار قصـوى وعـدد كبـير مـن طائـرات الأباتـشي يتـم إعدادهـا بمنتهـى السرعـة.. ومـع حلـول منتصـف الليـل.. جلـس مـوشي يراقـب مـا حولـه، وعلامـات الاسـتفهام تحيـط برأسـه دون أن يجـد إجابـة.. حـتى وصلـوا إلى مكتـب القائـد العـام.. فدخـل مـوشي المكتـب، فوجـد خمسـة ضبـاط جالسـين كل منهـم تكتسـيه ملامـح الدهشـة والقلـق، فوجـد موردخـاي

بينهـم، فاقـترب منـه قائـلاً:

- ماذا يحدث هنا؟ أنا لا أفهم شيئًا!

فرد عليه والحيرة تعتلي صوته:

- نحن هنا منذ ثلاث ساعات ولا أحد يخبرنا بأي شيء.

- يبدو أن الأمر هام فعلاً.

- ولكـن مـا هـو الأمـر؟ ومـا سـبب كل هـذه السريـة والاحتياطـات المريبـة؟

لـم ينـه موردخـاي كلامـه حـتى دخـل الجـنرال ليفـي المكتـب، وبصحبتـه الميجـور آفيـدان.. فوقـف الجميـع انتباهًـا وحيّـوه التحيـة العسـكرية، وجلسـوا عـلى مائـدة الاجتماعـات، فأخـذ الجـنرال يحملـق في وجوههـم بنظـرات ناريـة وقـال بصـوت متحمـس:

- اليـوم.. جـاءت اللحظـة الـتي كنـا ننتظرهـا منـذ سـنين.. اللحظـة الـتي سـنحارب فيهـا مـن أجـل إسرائيـل ونتخلـص فيهـا مـن أعدائهـا.. وهـا قـد جمعتكـم اليـوم باعتباركـم أفضـل طيـاري سـلاح الطـيران الإسرائيـلي، لتشـهدوا تلـك اللحظـة التاريخيـة العظيمـة، والـتي سـتكتبون بهـا تاريـخ وطنكـم بأيديكـم.. بعـد لحظـات سـتقومون بأخطـر عمليـة جويـة في تاريـخ سـلاح الطـيران، بـل في تاريـخ إسرائيـل كلهـا.. تلـك العمليـة كنـا نخطـط لهـا منـذ مـدة طويلـة، وهـا قـد حـان وقتهـا.. ولـكي تعلمـوا مـدى خطورتهـا فـإن رئيـس الـوزراء بنفسـه يـشرف عـلى تخطيـط وتنفيـذ تلـك العمليـة.. اليـوم سـنتخلص مـن واحـد مـن ألـدّ أعدائنـا بنسـفه بالطيـارات.

أخـذت أجسـاد الطياريـن ترتعـش مـع كلمـات الجـنرال وهـي تطـرق مسـامعهم، وامتزجـت مشـاعرهم بالرهبـة والتحفـز معًـا.. حـتى أخـرج الجـنرال ظرفًـا مغلقًـا بالشـمع الأحمـر وفتحـه أمامهـم، وأخـرج صـورة وضعهـا عـلى المنضـدة مشـيرًا إليهـا بصـوت عنيـف، قائـلاً:

- هذا هو عدو إسرائيل الذي أريد نسفه الليلة.

فما أن رأى موشي الصورة حتى ارتعشت أطرافه واحمرّت عيناه وتصبب العرق من جبينه.. كانت صورة الشيخ «أحمد ياسين»، الأب الروحي لحركة حماس.. ذلك الرجل العجوز الضرير الذي تعدى عمره السبعين.. فزادت رعشته وهو يردد بصوت مخنوق:

- مستحيل.. مستحيل.

فانتبه الجميع له وهم ينظرون إليه وهو في حالة عصبية قائلاً:

- كيف تخططون لذلك؟! إنه ضرير وقعيد! كيف يمثل هذا الرجل خطورة على إسرائيل؟!

فانتبه إليه الجنرال وأخذ يحملق فيه قائلاً:

- ماذا تقول؟! كيف تجرؤ على هذا الحديث؟!

فأكمل موشي بقوة:

- لقد أقسمت أن أحارب أعداء إسرائيل بإخلاص.. ولكن هذه ليست حربًا متكافئة.. إنه رجل أعزل ولا يمكن له مقاومتنا.. أنا لا أستطع القيام بذلك.

فاحمرّ وجه الجنرال وصرخ فيه قائلاً:

- ماذا؟ هل جننت؟! إنك مكلف بأمر عسكري ونحن في حالة حرب؛ ويجب أن تنفذ الأوامر، وإلا اعتبرتك خارجًا عن القواعد العسكرية.

فصمت موشي قليلاً ثم رد قائلاً:

- أعرف سيدي.. ولكني لن أستطع القيام بذلك.

فمال الميجور آفيدان على الجنرال وقال له بصوت ماكر:

- ألم أقل لك سيدي! إنه لا يصلح للخدمة في جيش إسرائيل؛ موشي ومن مثله لا نضمن ولاءهم لنا.. وها هي النتيجة تظهر الآن.

فنظر إليه الجنرال وقال بصوت أجش:

- هكذا إذن.. سوف تدفع ثمن فعلتك غاليًا موشي.

وصرخ في الجنـود وأمرهـم بالقبـض عـلى مـوشي.. فأمسـك بـه مجموعـة مـن الجنـود بقـوة وسـحبوه عـبر ممـرات طويلـة، حـتى ألقـوا بـه بالسـجن الحـربي بالقاعـدة.. فسـقط عـلى الأرض وهـو يـصرخ بأعـلى صوتـه:

- أنتـم مجرمـون.. أنتـم سـفاحون.. تقتلـون رجـلاً أعـزل وتعدونـه انتصـارًا.

أخـذ يـصرخ ويـصرخ حـتى سمع صـوت محـركات طائـرات «الأباتـشي» وهـي تسـتعد للإقـلاع.. فاقـترب مـن النافـذة المرتفعـة وصـوت الطائرات يقـترب منـه.. فأخـذ يـضرب عـلى الجـدران والدمـوع تسـيل مـن عينيـه، حـتى خـارت قـواه وسـقط الأرض وهـو يبـكي.

وجـاءت اللحظـة الحاسـمة.. تجمـع عـدد كبـير مـن قـادة سـلاح الطـيران الإسرائيـلي ورجـال الموسـاد وقيـادات الجيـش في غرفـة العمليـات بالقاعـدة، حـتى دخـل عليهـم رئيـس الـوزراء «آرييـل شـارون» وحولـه حراسـه مدججـين بالسـلاح.. فقـام الجميـع مـن مكانهـم وحيّـوه عسـكريًا، ثـم قـام قائـد العمليـة يـشرح لـه مـا سـوف يتـم بالتفصيـل عـلى خريطـة أمامـه عـلى المائـدة وقـال لـه بعينـين لامعتـين وملامـح شـيطانية: «نحـن نجهـز مفاجـأة سـارة في تلـك العمليـة.. سـيدي»، ثـم التفتـوا جميعًـا ليراقبـوا العمليـة بتركـيز شـديد عـلى شاشـات تنقـل الحـدث بالقمـر الصناعـي العسـكري الإسرائيـلي.

ومـع أذان الفجـر خـرج العديـد مـن المصلـين إلى مسـجد المجمـع السـكني بحـي صـبرا بغـزة لأداء صـلاة الفجـر، وبينهـم الشـيخ أحمـد ياسـين يحملـه أتباعـه بكرسـيه المتحـرك ليدخلـوه إلى المسـجد ليصـلي معهـم.. فـلا يوجـد في فلسـطين مـن لـم يتأثـر بـكلام الشـيخ ياسـين وأفـكاره الـتي مـلأت العقـول والقلـوب عـبر سـنوات عمـره ومراحـل نضالـه.. ذلـك الزعيـم الروحـي والشـيخ الأسـطورة مؤسـس حركـة

المقاومة وصاحب الشعبية الجارفة، والذي يخرج الآلاف مهللين لرؤيته أثناء خطبه النارية ليهدد قوات الاحتلال.. ذلك الرجل الهزيل الذي تخافه إسرائيل ليس لقوة شخصيته وصلابته فحسب ولكن لانتشار أفكاره كالنار في الهشيم.

لم يكن الشيخ يقوى على تحريك أي جزء من جسده المكدود سوى فمه، بعد أن خار جسده من سنوات التعذيب والقمع.. ففقد بصره بضربة على عينه اليمنى أثناء إحدى جلسات التحقيق على يد الموساد وأصيب بشلل تام في جسده، نتيجة إهماله في السجون الإسرائيلية طيلة سنوات.. ومع ذلك كان يصمد أمام ضباط الاحتلال الذين كانوا يخشون لقاءه ويفتنون بشخصيته الطاغية داخل المعتقل، وكأنه هو حر طليق وهم المسجونين.

أخذ يحرك لسانه وهو يردد بصوته المتهدج مع الإمام ويميل بجذعه راكعًا وساجدًا على الكرسي بين المصلين.. كان قلبه يدعو في الصلاة لوطنه وعيناه الضريرتان ترتعشان من الخشوع.. ومع اقتراب انتهاء صلاة الفجر اقتربت الطائرات من المسجد تأخذ مواقعها لتضرب ضحيتها.. حتى خرج المصلون من المسجد وخرج الشيخ محمولاً من أتباعه وهم يستعدون لاستقبال شمس نهار جديد مليء بروح المقاومة وأهداب الأمل.. إلا أن أحد أتباع الشيخ قد باع نفسه للشيطان وجنّده الموساد منذ فترة غير بعيدة وزرعه بين رجاله، اندس بين المصلين وقام بوضع جهاز تعقب أسفل الكرسي المتحرك كي تستطيع الطائرات تحديد مكانه وضربه على الفور واختفى بعدها.

وانطلقت طائرات الأباتشي كالخفافيش متبعة إشارات جهاز التعقب حتى حددت الهدف وأطلقت صواريخها الثلاثة نحوه.. فنسفت المكان عن آخره.. وسقط الشيخ بعد أن تحول جسده

الطاهـر إلى أشـلاء ومـلأ دمـه هـو وأتباعـه سـاحة المسـجد، وصعـدت روحــه إلى بارئهــا بعــد أن تمــنى الشــهادة ونالهــا.. فتعالــت أصــوات والتكبـير بالمـكان وخـرج النـاس في طوفـان غضـب في شـوارع غـزة.. يصرخــون وهــم يــرددون «لا إلــه إلا الله.. الشــهيد حبيــب الله».

لـم تمـض لحظـات حـتى عـمّ الخـبر كل أرجـاء العالـم.. وامتـد طوفــان الغضــب إلى جميــع أراضي فلســطين.. وخــرج المتظاهــرون يحملـون الأسلحة ويطلقـون الأعـيرة الناريـة مهدديـن بالانتقـام والثـأر.. وانطلقــت مكــبرات الصــوت في مســاجد القطــاع تتلــو آيــات القــرآن الكريـم طـوال النهـار والليـل، بينمـا أغلقـت المحـال والمـدارس حـدادًا عـلى اغتيـال الزعيـم.. وامتـدت المظاهـرات حـتى الجامعـة العبريـة.. فخـرج الطـلاب العـرب يحملـون اللافتـات المهـددة لإسرائيـل وصـور للشـهيد الشـيخ أحمـد ياسـين وهـم يرجّـون أرض الجامعـة بأرجلهـم ويهتفـون بحناجـر مثـل زئـير الأسـود «يـا شـهيد نـام وارتـاح ونحنـا نواصـل الكفـاح».

كان الدكتـور ماكلـين ينظـر إليهـم مـن نافـذة مكتبـه والحـزن يمـلأ عينيـه، والقشـعريرة تـسري في جسـده، بينمـا كانـت الصحـف العالميـة الموجـودة عـلى مكتبـه تصـف العمليـة بكامـل تفاصيلهـا.. وجلـس كل مـن بـن أهـارون وإبـرام في مكتبـه يحملقـان في تعبـيرات وجهـه.. فنظـر إليـه بـن أهـارون وقـال بخبـث:

- أراك مضطربـًا بعـض الـشيء دكتـور ماكلـين.. لـم أكـن أعلـم أن مثـل ذلـك الأمـر يمكـن أن يؤثـر عليـك لهـذه الدرجـة.

فاستدار إليه دكتور ماكلين ورد بصوت ضعيف:

- إنه أمر بغيض.. لا يمكن لأي نفس بشرية سوية أن تتقبله.

فرد بن أهارون وهو يشعل سيجاره قائلاً:

- إنها حرب وكل شيء بها متوقع.

- ولكـن أن تصـل إلى هـذا الحـد مـن البشـاعة! مـاذا جنـاه ذلـك الرجـل كي يمـوت بتلـك الطريقة البشـعة؟!

فقاطعه إبرام بقوة ورد بصوت غليظ:

- هذا الرجل عدو لنا.. وكان يجب أن نتخلص منه بأي طريقة.

فرد الدكتور ماكلين والغضب يملأ عينيه:

- هل تتخلصوا من أفراد بنسفهم بالطائرات؟

فرد إبرام:

- هــذا الأمــر يتعلــق بأمــن إسرائيــل القومــي.. وهــو أمــر لا يقبــل الجــدل.

فاحمرّ وجه الدكتور ماكلين واعتلى صوته التشنج وهو يرد:

- ومــا يمكــن أن يحققــه رجــل أعــزل ومشــلول مــن تهديــد لأمــن إسرائيــل!

- هـذا الرجـل أفـكاره هدّامـة ويسـتطيع أن يشـحن آلاف الفسـطينيين ضدنـا لتدميرنـا.. إمـا نحـن وإمـا هـو.

فتدخل بن أهارون في الحديث محاولاً تهدئة الوضع قائلاً:

- أعـرف أنـك عاطفـي بعـض الـشيء، ويمكـن لمثـل تلـك الأمـور أن تؤثـر عليـك دكتـور ماكلـين.. أفضـل أن تعـود إلى المـنزل كي ترتـاح.

فسـمع الدكتـور ماكلـين بالنصيحـة ولملـم أغراضـه وركـب سـيارته، وهـو يـرى النـاس في الشـوارع سـعيدة بمـا حـدث، حـتى علّـق البعـض منهـم علـم إسرائيـل عـلى شرفـات المنـازل والمحـال.. حـتى عـاد إلى المـنزل وهـو لا يتمالـك أعصابـه، بينمـا كانـت أناملـه ترتعـش والصـداع يحطّـم رأسـه.. فجلـس أمـام التليفزيـون محـاولاً الاسـترخاء، فوجـد جميـع القنـوات تذيـع الخـبر باعتبـاره انتصـارًا حربيًـا عظيمًـا، وتعـرض صـورًا لأشـلاء الشـيخ وبقيـة الضحايـا، بينمـا ظهـر النـاس وهـم يرقصـون مـن الفـرح في شـوارع إسرائيـل.. فاغرورقـت عينـاه بالدمـوع

وهـو ينظـر إلى منظـر الـدم المنتـشر في كل مـكان.. وبـدأ جسـده يتداعـى منـه مـن شـدة الانفعـال حـتى سـقط عـلى الأريكـة، وأغلقـت عينـاه وراح في سـبات عميـق، لـم يفـق منـه إلا عـلى دقـات السـاعة الثامنـة مسـاء.. فانتفـض مـن مكانـه ووضـع رأسـه أسـفل المـاء البـارد، وأخـذ ينظـر إلى أركان المـنزل والضِيـق يقبـض عـلى صـدره، والأفـكار السـيئة تلتـف حـول رأسـه.. فلـم يشـعر بقدميـه إلا وهمـا تسـوقانه في الشـوارع بعيـدًا عـن المـنزل، حـتى وصـل إلى البـار، فدخـل ليهـدئ أعصابـه ويـشرب كأسًـا مـن البـيرة.. فوجـد كمًـا رهيبًـا مـن الضبـاط والجنـود والمجنـدات يرقصـون ويغنـون.. فأخـذ ينـدس بينهـم حـتى وصـل إلى البـار ووجـد مقعـدًا بصعوبـة مـن شـدة الزحـام.. فجلـس وطلـب مـن النـادل بـيرة.. فوجـد صوتًـا رخيمًـا ينطلـق مـن جانبـه يقـول للنـادل:

- اجعل حسـاب البيرة عندنا.. بل اجعلها فودكا.. احتفالاً بالنصر.

فاسـتدار دكتـور ماكلـين نحـو الصـوت الـذي سـمعه مـن قبـل.. فوجـد الجـنرال ليفـي جالسًـا بجـواره يمسـك بـكأس الفـودكا، وقـد وصـل إلى قمـة الثمالـة حـتى بـدأ يغـني.. فمـال عـلى الدكتـور ماكلـين وهـو يقـول بلسـان ثقيـل:

- اليـوم نحـن نحتفـل بنـصر إسرائيـل العظيـم.. ويجـب عليـك أن تشـاركنا هـذا الاحتفـال.

فنظـر إليـه الدكتـور ماكلـين بعينـين ضيقتـين يملؤهمـا الحنـق، ورد بصـوت مخنـوق:

- اعذرني.. فأنا لا أتحمل الفودكا.

فوجد صوتًا آخر يخرج بقوة بجوار الجنرال ليفي قائلاً:

- بـل يجـب أن تـشرب معنـا.. إنهـا مناسـبة تاريخيـة ولا يجـب أن تفوتهـا.

فانتبـه الدكتـور ماكلـين وانتفضـت ملامحـه.. فوجـد إبـرام جالسًـا

بجوار الجنرال ليفي يحتسي النبيذ أيضًا، وقد ارتسمت على وجهه ملامح السعادة والتشفي، وأخذ يحدّق بعينيه داخل عيني الدكتور ماكلين، ووضع يده على كتفه وأكمل قائلاً:

- أعرف أنك لا تحب الفودكا كثيرًا.. ولكن الليلة استثناء.. فكما ترى إسرائيل كلها سعيدة الليلة ولن تنام حتى الصباح.. ولن نسمح لأحد بأن يضيع علينا فرحتنا.

فأخذ الدكتور ماكلين ينظر إليه بعينين ضيقتين، وهو يرى دم الشهداء ممزوجًا بالفودكا يتساقط من فمه، ويداه ملطختان به.. وطنين طائرات الأباتشي يدوي في أذنيه وكأنها تمر حول رأسه.. أخذ يمسك برأسه ويترنح من شدة الصداع، وكأنه وسط طوفان هائل.. حتى وقف الجنرال ليفي بعد أن وصل إلى قمة الثمالة وهو يمسك بكأس النبيذ وأخذ يصيح بين الناس:

- والآن يجب علينا جميعًا أن نشرب نخب إسرائيل.

فصاح الجميع بصوت عالٍ:

- نخب إسرائيل.. نخب النصر.

ثم قام من مكانه وأمسك بيد إبرام ونزل بين الجنود، وأخذ يرقص معهم على أنغام السلام الوطني الإسرائيلي والأغاني الشعبية اليهودية، وخاصة أغنية الاحتفالات «هافا ناجيلا».. الأغنية الأشهر في التراث الشعبي الإسرائيلي، وتعني «هيا نحتفل»، وهم يمسكون بعلم إسرائيل ويلوّحون به.. فنظر إليهم الدكتور ماكلين وهم يتراقصون وكأنهم يطوفون حول أشلاء الشهداء وينهشون في أجسادهم، بينما تصرخ أرواحهم عاليًا منادية بالانتقام.. فازداد الصداع في رأسه، وأخذ يترنح بشدة بين الناس وكأنه ثمل مثلهم، حتى بدت له مناظرهم وكأنهم أشباح وخيالات تتراقص حوله.. وأخذ يهذي بعبارات غير مفهومة بصوت مختنوق غير مسموع،

وسـط تلـك الضجـة الرهيبـة مـن الأصـوات، حـتى فقـد وعيـه وسـقط عـلى الأرض مغشـيًّا عليـه.

*****

قضبان من نار

سارت ناقلة المساجين عبر صحراء النقب تحمل مجموعة كبيرة من الشباب، بينهم مصطفى وغسان معصوبو العينين مقيدون من أيديهم بحبال خشنة وهم يتخبطون بعضهم في بعض من جراء اهتزاز الناقلة وصغر حجمها.. وبعد وقت طويل اقتربت من بوابة حديدية كبيرة يحرسها جنود مدججون بالسلاح، ودخلت إلى معتقل كبير محاط بأسلاك كهربائية، يخضع لحراسة مشددة من العديد من الجنود.. ثم توقفت الناقلة وجذب الجنود المساجين بقوة إلى الخارج، وانهالوا عليهم بالضرب بالعصي والسياط، وسلّطوا عليهم كلابًا شرسة نهشت في أجسادهم، حتى خارت قواهم وسالت دماؤهم وسقط أغلبهم على الأرض.. فتركهم الجنود ملقين على الأرض الباردة وحدهم.. فظلوا ساعات بمفردهم والانتظار يقطع من أعصابهم لا يسمعون سوى صفير الهواء، وهم يشعرون بحرارة الشمس على وجوههم، وأخذت في الانحسار حتى غابت.. بينما يراقبهم جنود الحراسة من بعيد.. فبدأ القلق يسري داخل غسان، وأخذ جسده يرتعش، فمال على مصطفى وقال بصوت خافت مرتعش:

- ماذا سيفعلون بنا بعد ذلك؟

فرد مصطفى متصنّعًا الثبات:

- لا أعرف.. كل ما علينا أن نحافظ على هدوئنا.. إنهم يريدون تحطيم أعصابنا في البداية.. ولا يجب أن نعطيهم فرصة لذلك.

فسمعا صوت سنابك أحد الخيول يقترب منهم.. فنزل الجنود إليهم وجذبوهم بقوة ونزعوا عنهم قطع القماش التي تغطي

أعينهـم، فانعكـس عـلى وجههـم ضـوء الكشـافات الضخمـة الـتي تنـير الفنـاء، وكادت أن تخطـف أبصارهـم فحاولـوا حجبهـا بأيديهـم.. إلا أن الجنـود انهالـوا عليهـم بالسـياط ليقفـوا انتباهًـا.. فـرأوا أمامهـم ضابطًـا كبـيرًا يمتطـي جـواده، مرتديًـا الـزى العسـكري المرصّـع بالنياشـين، ويمسـك بيـده سـوطًا.. وأخـذ يـصرح فيهـم بصـوت غليـظ قائـلاً:

- أهـلاً بكـم في معتقـل «آشـكيلون».. أنتـم هنـا في أخطـر معتقـلات إسرائيـل وأكثرهـا بشـاعة.. مـن يدخـل هـذا المـكان يجـب أن يعـرف أنـه لـن يـرى الدنيـا مـرة أخـرى.. وسـيرى هنـا مـا لا يخطـر لـه عـلى بـال.. لـذا أتمـنى لكـم إقامـة سـعيدة.

ثـم أعطـى الإشـارة للجنـود والضبـاط بتحريـك طابـور المعتقلـين نحـو الزنازيـن الخاصـة بهـم.. ثـم نظـر إلى كل مـن مصطفـى وغسـان وأشـار إليهمـا بسـوطه، فأخذهمـا أربعـة جنـود وأخرجاهمـا مـن الطابـور وسـاروا بهمـا عـبر دهاليـز ضيقـة أسـفل المعتقـل، حـتى وصلـوا إلى قبـو عنـد المـصرف، وفتحـوا بـاب زنزانـة صغـيرة يخـرج منهـا ميـاه التصريـف ودفعوهمـا إلى الداخـل، فسـقطا عـلى الأرض المبتلـة وأغلقـوا البـاب.. كانـت الزنزانـة شـديدة الظـلام عـدا بصيـص مـن الضـوء الخافـت القـادم مـن نافـذة صغـيرة بالأعـلى.. ونهـض مصطفـى قليـلاً مـن عـلى الأرض، وأخـذ ينظـر إلى جـدران الزنزانـة السـوداء المتعرجـة، وآثـار المـاء الملطخـة عليهـا وسـمع صـوت الفـئران وهـي تجـري حولهمـا.. فنظـر إليـه غسـان وقـد زادت رعشـته.. فأمسـك مصطفـى بيـده وقـال بصـوت مهـزوز:

- مـا يحـدث لنـا هنـا ليـس طبيعيًـا.. هـذا ليـس أسـلوب ضبـاط الجيـش العاديـين.. بـل أسـلوب رجـال الشـين بيـت.. هـم الذيـن يفعلـون مـا لا يمكـن توقعـه مـن أسـاليب التعذيـب.

فتصبب العرق من جبين غسان وقال مرتعشًا:

- وما العمل الآن؟!

- كما قلت لك.. ابق هادئًا بقدر ما استطعت.

وفجـأة سـمعا صوتًـا يتحـرك خلفهمـا.. فالتفتـا بسرعـة وارتسـمت عـلى وجهيهمـا علامـات الدهشـة وتحجـرت مقلتيهمـا.. فوجـدا رجـلاً عجـوزًا يخـرج مـن الظـلام، ذا وجـه أصفـر يملـؤه التجاعيـد، وتـبرز عظامـه كالجمجمـة، وعينـاه غائرتـان يحيـط بهمـا السـواد، وشـعره أشـعث متطايـر، مرتديًـا ملابـس رثـة متسـخة، تكشـف عـن جسـد هزيـل مريـض أشـبه بالهيـكل العظمـي.. أخـذ يحـرك رأسـه بطريقـة هسـتيرية ويجـر قدميـه الحافيتـين وهـو يتـكئ عـلى الجـدران حـتى وصـل إليهمـا، وأخـذ يحملـق فيهمـا بنظـرات غـير طبيعيـة، وقـال بصـوت مهـتز:

- ها قد أتيتما أخيرًا.. لقد تأخرتما كثيرًا.. لكنني كنت أنتظركما.

فنظرا إليه بدهشة وغمغم غسان قائلاً:

- لا بد أنه مجنون!

فهمـس لـه مصطفـى ليسـكت.. فاقـترب منهمـا الرجـل ونظـر إلى مصطفـى وأكمـل مهذيًـا:

- لقـد كان هنـا.. سـكن معـي طيلـة خمـس سـنوات.. نـأكل ونـشرب معًـا.. إنـه يشـبهك كثـيرًا.. بـل إنـه أنـت.

وأمسك يده بقوة وأكمل قائلاً:

- كان شـابًا جميـلاً ورائعًـا.. لـم يتحمـل تعذيبهـم له.. ظلـوا يقطعونه قطعًـا قطعًـا.. حـتى سـقط بـين يـدي وسـال دمـه عـلى أرضيـة الزنزانـة كمـا تسـيل الميـاه.. جعلـوني أحفـر قـبره في الفنـاء وأدفنـه بيـدي.. مـات دون أن يشـعر بـه أحـد.

وسـقط عـلى الأرض وانخـرط في بـكاء هسـتيري كالأطفـال.. ثـم قـام مـرة أخـرى وقـال مبتسـمًا وعينـاه تلمعـان:

- لكنـك عـدت مـرة أخـرى.. خرجـت مـن الفنـاء حـتى لا تتركـني وحـدي

معهـم.. أليـس كذلـك؟! إنـني لـن أتـركك تتعـذب هـذه المـرة.. لـن أتركهـم يمزقونـك مـرة أخـرى.. أبـدًا أبـدًا.

ثـم جلس بجـوار الحائـط ووضـع رأسـه عـلى الحجـر، وأغمـض عينيـه وأخـذ يهـذي بعبـارات غـير مفهومـة.. فنظـر إليـه مصطفـى وصمـت قليـلاً مـن الذهـول ثـم قـال:

- مسكين.. لم تتحمل أعصابه أفعالهم.

فرد غسان والأسى يملأ عينيه:

- ملاعين.. لم يرحموا شابًا أو عجوزًا.. إنهم وحوش.

وفجـأة انفتـح البـاب بقـوة ودخـل جنديـان وجذبـا مصطفـى بقـوة أمامهمـا، فهـرع غسـان خلفـه، فضربـه أحـد الجنـود فسـقط عـلى وجهـه وارتطمـت أسـنانه بـالأرض وأخـذ يـنزف.. واقتـادا مصطفـى عـبر ممـرات طويلـة حـتى وصلـوا إلى حجـرة كبـيرة مظلمـة خاليـة مـن أي شيء عـدا مكتـب.. فأقعـداه عـلى كـرسي وربطـاه بقـوة وتـركاه وحـده لمـدة طويلة.. ظـل يسـمع أصـوات أنـاس يصرخـون مـن شـدة التعذيـب، فتسـللت الرعشـة داخـل جسـده واضطربـت أنفاسـه، وأخـذ قلبـه يـضرب بقـوة بـين ضلوعـه.. حـتى انفتـح البـاب ودخـل رجـل طويـل القامـة يرتـدي ملابـس مدنيـة.. فأخـذ مصطفـى يدقـق في ملامحـه حـتى أصابـه ذهـول واتسـعت عينـاه.. دخـل إبـرام الحجـرة وهـو ينظـر إلى مصطفـى، ثـم جـذب كرسـيًا بقـوة وجلـس أمامـه وهـو يحملـق فيـه، والنـار تخـرج مـن عينيـه، وقـال:

- لـم أكـن أصـدق أنـني طيلـة هـذا الوقـت أبحـث عنـك.. وأنـت أمـام عيـني.. أأنـت يـا مصطفـى الـرأس المدبّـر لـكل هـذه العمليـات وأنـا لا أشـعر بهـذا؟ كـم أنـت ذكي وعبقـري في خداعنـا كل هـذا الوقـت! لكنـك في النهايـة سـقطت بـين يـدي.

فنظر إليه مصطفى باحتقار وقال:

- كما توقعت.. كل ما يجري لا يأتي سوى من تدبيرك.

فضحك إبرام بصوت أجش وقال:

- إنك لم تر شيئًا بعد.. ولكنني لم أعرف أنك محبوب لهذه الدرجة.. أكثر من شخص تكاتفوا ضدك وأبلغونا بمكانك ونشاطاتك كي يتخلصوا منك.. مريم يعقوب زميلتك في الجامعة، ونزار عباس زوج أختك.. لا بد أنك إنسان قوي ولك أعداء كثيرون.

فنظر إليه مصطفى ورد:

- لا يهمني أحد.. المهم أن أخدم وطني.. وأقاوم احتلالكم الغادر.

فابتسم إبرام بسخرية ثم أكمل قائلاً:

- والآن.. وبكل هدوء.. أريدك أن تخبرني عن بقية رجالك وأماكن الأسلحة التي تخبئونها.

فازدادت نظرة الاحتقار وقال بصوت يملؤه التحدي:

- مهما فعلت بنا.. لا تنتظر مني أن أخون بلدي أبدًا.. إنك لن تحصل مني على أي شيء.

فقام إبرام من مكانه واقترب من مصطفى واضعًا يده على كتفه وقال:

- صدقني يا مصطفى.. إنك لن تتحمل ما سنفعله بك.. أخبرنا بما تعرفه حتى لا تندم بقية عمرك أنت وأصحابك.

- إنك لن تحرك شعرة مني مهما فعلت إبرام.

فصفعه إبرام بقوة على وجهه حتى سقط بالكرسي على الأرض.. ونظر إليه بعينين كالجمر، وقال:

- هكذا إذن.. لقد اخترت مصيرك بيديك.

ثم صرخ على الحراس وقال بقوة:

- خذوه من هنا وضعوه في حجرة الاستقبال حتى أتفرغ له.

فدخل أحد الضباط ووقف أمام إبرام.. فقال له:

- أريـدك أن تبـدأ برنامـج التعذيـب مـن الليلـة.. يجـب أن يظـل جميع المسـاجين متيقظـين لا ينامـون أبـدًا.. افتحـوا عليهـم الميـاه السـاخنة داخـل الحجـرات واملؤهـا بالحـشرات والفـئران.. وقدمـوا لهـم الطعـام خاليًـا مـن الملـح نهائيًـا، حـتى يفقـدوا تركيزهـم تمامًـا أثنـاء التحقيـق.. سـآخذ منهـم كل مـا أريـد بطريقـتي الخاصـة.

*****

داخـل حجـرة مظلمـة بـاردة معلـق عـلى جدرانهـا الحجريـة جنازيـر وسـياط وتفـوح منهـا رائحـة الـدم.. جـذب مجموعـة مـن الجنـود مصطفـى وجـردوه مـن ملابسـه، ثـم ربطـوا قدميـه بحبـل غليـظ ورفعـوه برافعـة حديديـة لأعـلى، حـتى انعكـس وضعـه وأصبحـت رأسـه لأسـفل، وأبقـوه عـلى ذلـك الوضـع قليـلاً، حـتى تجمـع الـدم في رأسـه، ثـم أتـوا ببرميـل مـن الميـاه المثلّجـة وأسـقطوه فيـه مـرة واحـدة، ثـم رفعـوه مـرة أخـرى.. فأخـذ يـصرخ بصـوت عـالٍ، ثـم أعـادوا الكـرّة مـرة أخـرى وأبقـوه داخـل البرميـل مـدة طويلـة، حـتى كاد أن يختنـق، ثـم رفعـوه ثانيـة وهـو يرتجـف بقـوة.. حـتى دخـل إبـرام الحجـرة فوجـده معلقًـا والميـاه البـاردة تسـيل مـن جسـده المرتعـش.. فاقـترب منـه وقـال بنـبرة سـخرية:

- ألا تريـد أن تعـترف بعـد؟ إننـا مـا زلنـا في بدايـة الطريـق.. والطريـق مـا زال طويـلاً ووعـرًا.

فأخذ مصطفى يهذي:

- لن أخبرك شيئًا.

فاشـتعل إبـرام غضبًـا واسـتلّ سـوطًا مـن الجـدار، وأخـذ يضربـه بوحشـية عـلى جسـده المترنـح، حـتى لاحـظ الجـرح الموجـود في سـاقه،

فسلّط ضربه عليه بعنف، بينما ارتجّت حنجرة مصطفى من الصراخ، وسال الدم من ساقه حتى أغمى عليه.. فقذف أحد الجنود بجردل من المياه الباردة على وجهه حتى يفيق.. فجذبه إبرام من شعره وقال له:

- لا أحد يقف أمام رغبتي أيها الحقير.. يجب أن تخبرني بكل شيء.. وإلا مزّقتك إربًا.

فنظر إليه مصطفى بعينين مكسورتين وغمغم قائلاً:

- لن أخبرك شيئًا.

فضغط على عنقه حتى كاد أن يخنقه وقال:

- إذن تعالَ معي كي نرى إن كنت ستعترف أم لا.

فأسقطه الجنود على الأرض وسحبوه من تلك الحجرة، ودخلوا إلى حجرة مجاورة.. فرأى غسان وهو عارٍ ومعلق من يديه بحبال متدلية من السقف، ومشدود من ساقيه بجنازير مثبتة في الأرض، وينهال أحد الجنود بالسوط على ظهره، حتى كاد يتمزق.. فاغرورقت عينا مصطفى بالدموع، فنظر إليه غسان والدم يسيل من وجهه وقال له بقوة:

- لا تبكِ يا مصطفى.. لا تخبرهم بأي شيء.. ابقَ ثابتًا كما قلت لي.

فانهمرت الدموع من وجهه وأخذ يهذي بصوت ضعيف:

- اتركوه يا ملاعين.. اتركوه.

وظل يهذي حتى انقطع صوته وغاب عن وعيه.. فسحبه الجنود وجرّوه من يديه عبر الممرات، ووجهه يتخبط في الأرض، والدم يسيل منه على الطرقات كالنهر.. فنظر إليه المساجين من نوافذ الزنزانات وهم يحملقون فيه بأعين يملؤها الأسى.. حتى وصلوا به إلى القبو وفتحوا باب زنزانته وألقوا به على الأرض.

*****

في قلب الليل ووسط البرد الشديد نزع الجنود ملابس جميع المساجين، وأوقفوهم عراة داخل فناء المعتقل، وكل منهم يحمل على رأسه كتلة من الحجر، ويجرون في دوائر حول الفناء.. كانت أوصالهم تتقطع والدم يسيل من مفاصلهم، بينما كان الجنود يجرون وراءهم بالسياط حتى لا يتوقفون.. أخذ إبرام يراقب هذا المشهد من نافذة مكتبه وهو يحتسي كأسًا من الخمر، بينما كانت عيناه تلمعان من شدة السعادة، فاقترب منه أحد الضباط، فقال له إبرام وقد بدأت الخمر تتلاعب برأسه:

- انظر كيف يطوفون حول بعضهم وهم عراة كالخنازير! إنه مشهد بديع لن ترى مثله سوى هنا.

فتلجلج الضابط ورد بسرعة:

- فعلاً سيدي.

- يجب أن تضع مثل هؤلاء العبيد أسفل قدميك.. ولا تدع لهم فرصة للتنفس.. يجب أن تستخدم جميع الوسائل أيًا كانت كي تصل إلى هدفك وتنتزع منهم ما تريد.. بشرط ألا تجعلهم يفقدون حياتهم.. حتى يظلوا يعيشون ويشعرون بالعذاب والألم.. لأن الموت سوف يريحهم ويبعدهم عنا.

فرد الضابط في اضطراب:

- مضبوط سيدي.

ثم استدار إبرام مرة أخرى نحو النافذة، ونظر إليهم وقد زاد تأثير الخمر عليه وقال بقوة:

- اجعلهم يطوفون عشر مرات أخرى ثم انقلهم إلى صالة

الاحتفـالات الكـبرى.. كي نحتفـل جميعًـا بتلـك الليلـة السـعيدة.

فنظـر إليـه الضابـط مرتعشًـا وأومـأ برأسـه، وهـرع عـلى الخـارج مسرعًا لينفـذ الأوامـر.. بينمـا ظـل المسـاجين يطوفـون بسرعـة أكبر، حـتى ظهرت عليهـم ملامـح الإعيـاء، ثـم توقفـوا عـن الجـري وظلـوا يحملـون الحجـر في وضـع انتبـاه حسـب الأوامـر.. فارتعـش جسـد مصطفـى وزاغـت عينـاه مـن التعـب، بـدأ الـدم يسـيل مـن سـاقه المجروحـة وهـو يحـاول أن يتماسـك.. إلا أنـه لـم يسـتطع التحمـل وتهـاوى الحجـر مـن بـين يديـه وسـقط عـلى الأرض.. فأخـذ الجنـود يوخزونـه ببنادقهـم في كل أنحـاء جسـده النحيـل، حـتى يقـف مـرة أخـرى وهـو يـصرخ مـن شـدة الألـم.. بينمـا نظـر إليـه غسـان وعينـاه ممتلئتـان بالدمـوع، دون أن يسـتطيع أن ينطـق بكلمـة.. فجـاء الضابـط وأمسـك بسـوط وأخـذ يضربـه عـلى ظهـره حـتى سـال الـدم منـه.. إلا أن أعضـاءه قـد خـارت ورفضـت الاسـتجابة، فسـحبه الجنـود مـن الفنـاء وأدخلـوه إلى حجـرة كبـيرة في طابـق تحـت الأرض، ووضعـوه عـلى منضـدة وهـو في شـدة الإعيـاء.. دخـل إبـرام ومعـه طبيـب وأعطـى لـه حقنـة كي يتحمـل التعذيـب.. وبعـد أن أفـاق قليـلاً أحـضر الجنـود جهـاز صدمـات كهربائيـة وأوصلـوه برأسـه ومـدّوا أسـلاكًا إلى بقيـة جسـده.. فوقـف الضابـط وهـو يضـع يـده عـلى زر التشـغيل، بينمـا اقـترب إبـرام مـن مصطفـى وقـال لـه في أذنـه:

- لا بـد أن تعـترف لنـا بمـكان السـلاح الآن.. إنـك لـن تتحمـل مـا أنـت مقـدم عليه.

فنظر إليه مصطفى ورد بتحدٍ رغم كل الجروح والآلام:

- مهما فعل بي.. لن أخبرك شيئًا.

فـازداد غضـب إبـرام وأعطـى الإشـارة للضابـط كي يشـغل الجهـاز.. فـسرت الـترددات الكهربائيـة عـبر الأسـلاك، فانتفـض جسـده بعنـف مـن شـدة الصدمـة، وتحجّـرت مقلتـاه وارتعشـت أناملـه، وأخـذت صرخاتـه

تهز الجدران حتى توقفت الكهرباء.. فأمسك إبرام برأسه وقال بنبرة غضب:

- ما رأيك الآن؟ في المرة التالية سيتساقط شعرك وتتشقق أظافرك من شدة التيار.. لذا يجب أن تنقذ نفسك.

فرفض مصطفى التكلم، فأعاد الضابط التيار الكهربائي مرة أخرى.. فارتعش جسد مصطفى بجنون وأخذ يتخبط على المنضدة حتى كاد أن يفقد الوعي.. فاقترب الطبيب من إبرام وقال بصوت خافت:

- سيدي.. إنه لن يستطع تحمل التعذيب.. أرى أن نتوقف الليلة.

فنظر إليه إبرام بقوة وقال بصوت غليظ:

- وما فائدة الحقنة التي أعطيتها له؟ لن أكف عن تعذيبه طوال الليل حتى يخبرني بالحقيقة.

واستمر مصطفى يتعرض لصدمات كهربائية عالية حتى فقد توقف لسانه وفقد النطق.. فأمسك إبرام برأسه ودفعه في المنضدة وهو يصرخ:

- يجب أن تتحدث.. يجب أن تعترف بمكان السلاح.

فقال الطبيب له:

- لقد حدث ما كانت أتوقعه.. لقد أثّرت الصدمة على لسانه ولن يستطيع التكلم.. يجب أن يرتاح الليلة.. ثم نكمل غدًا.

فصمت إبرام قليلاً وأمر الجنود بإعادته إلى زنزانته.. فحملوه وألقوه داخلها بقوة.. فسقط على الأرض دون أن ينطق بكلمة.. فهرع إليه غسان والرجل العجوز وأخذا يضمدان له جروحه.. وهو ينظر إليهما ويشعر بأصابعهما على جروحه حتى غاب عن الوعي.. فصرخ غسان قائلاً:

- ماذا فعل بك هؤلاء الملاعين؟!

فنظر إليه الرجل العجوز وقال بهذيان:

- إنهـم لـن يتركـوه إلا عندمـا يأخـذون مـا يريدونـه.. ثـم بعدهـا يتركـوه.. أنـا أعرفهـم جيـدًا.

فرد غسان:

- إنه لن يتحمل قدر ذلك التعذيب.

ثـم صعـد إلى النافـذة الصغـيرة ونظـر إلى بصيـص ضـوء القمـر المطـل، ورفـع يديـه إلى السـماء وقـال:

- يـا رب.. خـذ بيـده إنـه عبـدك المؤمـن.. لا تتركـه بـين يـدي القـوم الظالمـين.. أخرجـه مـن تلـك الكربـة.. إنـه لا يسـتطيع الـكلام.. فاقبـل دعائي له.. فإنه لا أحد لنا هنا سواك يا رب العالمين.

كان السـكون يعـم أرجـاء المعتقـل.. جميـع المسـاجين في الزنازيـن راقـدون، والجنـود يطوفـون بالممـرات وفـوق أسـطح المعتقـل يراقبـون أحوالـه.. رقـد مصطفـى متدثـرًا في سريـره وهـو يرتعـش بقـوة ووجهـه مصفـر وعينـاه الغائرتـان حمـراوان مـن شـدة الإعيـاء، وبجـواره غسـان يقـرأ القـرآن بينمـا كان يراقبـه بعينيـه.. حـتى انتهـى مـن القـراءة واقـترب منـه، فوجـد جسـده يشـتعل مـن الحـرارة، وجبهتـه ككتلـة الجمـر، وأخـذ يهـذي مـن شـدة الحـرارة.. فـصرخ مناديًـا عـلى الرجـل العجـوز ويقـول بصـوت مرتعـش:

- لقـد زادت حالـة الحمـى عنـده.. ثلاثـة أيـام وهـم ممتنعـون عـن علاجـه وهـو يسـوء يومًـا عـن يـوم.

فأحـضر الرجـل قطعـة مبتلـة مـن القمـاش ووضعهـا عـلى جبينـه، بينمـا نظـر إليـه غسـان وقـال بتوتـر:

- إن حالته تسوء؛ يجب أن نفعل شيئًا.

ففتح مصطفى عينيه ونظر إلى غسان وقال بصوت هادئ:

- إنني لم أعد أحتاج إلى علاج.. إنها النهاية يا غسان.

فأمسك غسان بيده وقال بعينين ممتلئتين بالدموع:

- لا تقـل هـذا.. إنـك سـوف تخـرج مـن تلـك الكربـة.. سـتقوم مـن مكانـك وتعـود إلى الخليـل والجامعـة، وسـتهز إسرائيـل بعملياتـك مـرة أخـرى.

فضحك مصطفى ورد قائلاً:

- لـم يعـد جسـدي يحتمـل.. لحظـاتي أصبحـت معـدودة.. لقـد صنعنـا كل مـا في وسـعنا.. أخذنـا بالثـأر وجاهدنـا في سـبيل الله حـق الجهـاد.. فقـط ادع الله أن يتقبـل مـا صنعنـاه.

ثم أخذت عيناه تضيق وأكمل:

- عندمـا تخـرج مـن هنـا.. أخـبر أبي ألا يحـزن.. لقـد عـاش أبنـاؤه رجالاً يحملـون اسـم القـوادري فـوق أعناقهـم، يدافعـون عنـه وعـن وطنهـم بأرواحهـم.. أخـبر زينـة أنهـا لـم تغـب يومًـا عـن بـالي.. عشـت أحبهـا وسـأظل أحبهـا بروحـي حـتى وأنـا في السـماء.

ثم نظر إلى السماء وأكمل:

- لقـد جـاء الوقـت كي ألحـق بأخـي زيـاد.. إنـني أراه أمامـي الآن وهـو يمـد يديـه لي كي يأخـذني بجـواره.. الآن قـد أتممـت مهمـتي وعـليّ أن أرحـل.. أشـهد أن لا إلـه إلا الله.. وأشـهد أن محمـدًا رسـول الله.

ثـم أغمـض عينيـه وهـدأ جسـده المريـض مرتاحًـا للأبـد، وارتسـمت عـلى وجهـه ملامـح السـكينة، بعـد أن صعـدت روحـه.. فاحتضنـه غسـان بقـوة وهـو يبـكي بحرقـة وعينـاه تذرفـان الدمـع، حـتى سـال عـلى وجـه مصطفـى.. ونظـر إليـه الرجـل العجـوز وأخـذ يهـذي بصـوت عـالٍ:

- لا.. لا تتركـني مـن جديـد.. ألـم أقـل لـك إنهـم لـن يرحمـوك! لا ترحـل كمـا رحـل مـن قبلـك.. أرجـوك لا ترحـل.

فقـام غسـان مـن مكانـه وأخـذ يـضرب عـلى بـاب الزنزانـة بقـوة، وأخذ يـصرخ مـن أعماقـه قائلاً:

- قتلتموه يا ظلمة.. لن نترككم أبدًا.. أبدًا.

هـرع ضابـط إلى مكتـب إبـرام وهـو يلهـث حـتى انكـب عـلى مكتبـه.. فانتفـض مـن مكانـه وقـال في دهشـة:

- ماذا حدث؟

فرد الضابط مذعورًا:

- كارثة سيدي.. كارثة.

- تكلم بسرعة.

- لقد مات أحد المساجين داخل الزنزانة من شدة التعذيب.

فاكتسى وجه إبرام بالاضطراب وصرخ قائلاً:

- من هذا السجين؟

فرد الضابط مهتزًا:

- إنه.. إنه.. سجين القبو.. مصطفى القوادري.

فاحمرّ وجهه غضبًا وأخذ يصرخ بطريقة هستيرية:

- مستحيل.. كيف يموت دون أن يعترف!

فابتلع الضابط ريقه وقال:

- وما العمل الآن سيدي؟

فحاول إبرام التماسك وقال:

- لا يجـب أن يعـرف أحـد خـارج المعتقـل بمـا حـدث.. يجـب أن يظـل الموضـوع طـي الكتمـان حـتى لا ينقلـب الوضـع علينـا.

- وماذا عن الجثة؟

- ادفنوها في الفناء دون أن يشعر أحد من المساجين.

لـم يكمـل إبـرام كلماتـه حـتى سـمع ضجـة كبـيرة بـين أروقـة المعتقـل.. فدخـل أحـد الجنـود وهـو يرتعـش وقـال بصـوت مهـزوز:

- سيدي.. إن المعتقل بأكمله هائج.. والمساجين يصرخون ضد

ما حدث.

فهـرع إبـرام خـارج مكتبـه ونـزل إلى الأروقـة بـين الزنازيـن.. فوجـد المسـاجين يمسـكون بأطباقهـم ويضربـون بهـا في الأبـواب، وهـم يصرخـون بصـوت يـرج أركان المعتقـل «المـوت للظلمـة.. المـوت للظلمـة»، فأخـرج إبـرام مسدسـه وأطلـق أعـيرة ناريـة في الهـواء وأخـذ يـصرخ فيهـم قائـلاً:

- لا أريـد أن أسـمع صـوت أحـد منكـم.. مـن ينطـق بكلمـة سـوف يلحـق بالوغـد الـذي مـات.

حاولـت قـوى الأمـن منـع تـسرب خـبر مـوت مصطفـى.. ولكـن الأمـر كان أقـوى منهـم بكثـير.. فقـد وصـل الأمـر إلى الجامعـة وأصـاب الطلاب حالـة مـن التذمـر والغضـب، خصوصًـا الطلبـة العـرب.. حاولـوا عمـل مسـيرات ومظاهـرات، إلا أن الأمـن قـد تصـدى لهـم.. لكـن غضبهـم المكبـوت ظـل بداخلهـم واضحًـا في أعينهـم.

دخـل الدكتـور ماكلـين مبـنى الكليـة وهـو يـرى الوجـوم عـلى أوجـه الطـلاب، ولكنـه لـم يفهـم الأمـر.. فدخـل إلى مكتـب بـن أهـارون فوجـده جالسًـا مـع إبـرام في حالـة مـن التوتـر.. فارتسـمت عـلى وجهـه علامـات القلـق والدهشـة وقـال لهمـا:

- ما الأمر؟ أشعر وكأن هناك شيئًا ما قد حدث.

فارتبـك بـن أهـارون وتلعثـم في الـكلام.. فالتفـت إليـه إبـرام ونظـر إليـه بعينيـه ثاقبتـين ورد بحـزم:

- هناك طالب عربي قُتل أول أمس.

فاهتز الدكتور ماكلين لكلامه.. فأكمل إبرام بسرعة:

- وهـذا الطالـب في صفـك دكتـور ماكلـين.. إنـه مصطفـى القـوادري.. لقـد قتـل في مظاهـرة بالخليـل بعـد أن أصابتـه رصاصـة طائشـة مـن أحـد

الجنود.

ارتج الدكتور ماكلين واشتعلت أعصابه، وأخذ يحملق فيهما وهو لا يصدق ما يسمع.. معقول! هذا الشاب اليافع الجميل يضيع عمره هكذا؟! لم يكن مصطفى مجرد طالب عنده فحسب، بل كان يرى فيه روح البطولة والنبوغ.. كان يرى فيه نفسه الشابة التي جاء ليحققها في إسرائيل.. سار الدكتور ماكلين في طرقات الكلية لا يرى سوى صورته عندما كانا بالخليل.. عندما نزل معه إلى الأسواق ورآه كيف يتعامل مع البسطاء.. وهو يصلي.. وهو يقبّل يديّ والده.. ظلت كلماته تصدع داخل أذنيه وهو يتحدث عن الحرية والوطن.. عندما كان يجادله في الفصل.. عندما كان يشتكي له من اضطهاد الأساتذة والطلبة اليهود له.. دخل الدكتور ماكلين الفصل وهو خالٍ.. فنظر إلى مقعد مصطفى ورآه جالسًا عليه يتحدث ويضحك ويصرخ.. أخذ ينظر إلى المقعد بنظرات شاردة ولم يستطع أن يمنع دموعه من أن تنزل.

لم يستطع النوم في تلك الليلة الصعبة.. رغم كل المهدئات التي تناولها كانت الأفكار الملعونة تطوف برأسه وتجعله مشوشًا.. فتح الدكتور ماكلين الكمبيوتر المحمول الخاص به وكتب e-mail لواحد من أقرب تلاميذه بنيويورك يدعى «جون مارتن»:

«عزيزي جون.. لم أعد أحتمل الحياة هنا في إسرائيل.. ولم أعد أشعر بالأمان.. إنها ليست إسرائيل التي كنا نقرأ عنها وندرسها.. لقد رأيت أشياء لا يصدقها عقل.. كانت محجوبة عنا ومن المستحيل أن تراها إلا إذا أتيت إلى هنا ورأيتها بعينيك.. فالعنف والتطرف ورائحة الدم أصبحت في كل مكان.. لقد كنا مضلَّلِين إلى درجة كبيرة، وآن الأوان أن نكشف الحقيقة.. هذا ما أستطع أن أقوله لك حتى الآن..

انتظر منى رسائل أخرى حتى أستطع أن أراك.

تحياتي

«جيمس ماكلين»

*****

دموع الروح

بعـد أن غابـت لمـدة طويلـة عـن الدراسـة، وخاصة بعـد أن اضطربت أعصابها مـن جـراء المخـدرات ودخلـت إلى المصحـة عـدة مـرات.. جاءت مريـم إلى الكليـة وهـي تحـاول أن تتماسـك.. كانـت آثـار المخـدرات مـا زالـت واضحـة عـلى عينيهـا ونظراتهـا الشـاردة وذهنهـا المشـتت.. كان الجميـع ينظـرون إليهـا وكأنهـا مشـعوذة أو مجنونـة.. ومـا أن دخلـت الفصـل حـتى وجـدت الجميـع يتحدثـون همسًـا وكأنهـم يخفـون عنهـا شـيئًا.. فلاحظـت أن مـكان مصطفـى خـالٍ.. فـترددت في الأمـر.. فقـام ديفيـد مـن مكانـه وأخـذ يحملـق فيهـا بسـخرية قائـلاً:

- ألا تعلمين ما حدث؟! لقد قُتل العربي.

فانتفضـت مـن مكانهـا مذعـورة ورفضـت أذناهـا تصديـق مـا قالـه لهـا.. بـدأ جسـدها يرتعـش بشـدة واتسـعت مقلتاهـا والدمـوع ترقـرق بداخلهـا وأخـذت تهـذي:

- مستحيل.. مستحيل.. أنت كاذب.

وانتابتهـا حالـة هسـتيرية وأخـذت تضربـه بمـا في يدهـا.. فأمسـك بيدهـا بقـوة وأبعدهـا عنـه.. خرجـت مـن الجامعـة وأخـذت تجـرى كالمجنونـة في الشـارع وذكريـات مصطفـى تطاردهـا.. كانـت تـراه في كل طريـق تسـير فيـه وهـو ينظـر إليهـا بعينيـه القويتـين.. فـتزداد رعشـتها وتحيـط الهـلاوس برأسـها أكـثر وأكـثر، وهـي تهـذي «أنـا السـبب.. أنـا السـبب»، حـتى قادتهـا قدميهـا إلى منزلهـا.. أخـذ الشـعور بالذنـب يحيـط بهـا حـتى كاد أن يخنقهـا.. «مـاذا فعلـت بـك يـا مصطفـى! إنك لا تسـتحق كل هـذا»، ازدادت الرعشـة بجسـدها حـتى تحولـت إلى تشـنجات.. أخـذت

تحملـق فيمـا حولهـا وهـي تـرى صورتـه أمـام عينيهـا وصوتـه يطـن في أذنهـا هـو يلعنهـا عمـا فعلتـه بـه.. فأمسـكت برأسـها مـن شـدة الصـداع وأخـذت تـصرخ بصـوت عـالٍ ودخلـت إلى حجرتهـا وأغلقـت عـلى نفسـها.. فخرجـت أمهـا مـن المطبـخ لتطمـئن عليهـا.. فوجـدت البـاب موصـدًا بقـوة.. فأخــذت تــضرب عــلى البــاب بقــوة وهــي تنــادي لمريــم حــتى اسـتطاعت فتـح البـاب.. ومـا أن دخلـت الغرفـة حـتى أصابهـا الذعـر.. وجـدت مريـم جثـة متدليـة مـن السـقف بعـد أن شـنقت نفسـها بحبـل الغسـيل، وتركـت بجوارهـا ورقـة مكتوبـًا عليهـا «لـم أسـتطع الحيـاة في عالـم يسـوده الكراهيـة والحقـد.. أريدكـم كلكـم أن تسـامحوني عـلى مـا فعلـت».

*****

كانــت شــوارع مدينــة الخليــل ســاكنة حزينــة بعــد أن أعلــن بهــا استشـهاد واحـد مـن أبطالهـا.. كانـت صـور مصطفـى معلقـة عـلى جدران الشـوارع بجـوار علـم فلسـطين.. الـكل يعـرف مصطفـى القـوادري.. ومن لا يعرفـه وهـو حـي خلّـده استشـهاده حـتى أصبـح أسـطورة الخليـل.. كان السـكون يمـلأ جنبـات بيـت آل القـوادري، بعدمـا جـاء أهـل المدينـة ليعـزّوا الحـاج إبراهيـم في ولـده عريـس الشـهداء.. جلـس الحـاج إبراهيم قـرب شرفـة غرفتـه وهـو يقـرأ القـرآن بصوتـه الرخيـم، وأخـذ يـردد قـول الله تعـالي مـن سـورة الحـج ﴿أُذِنَ لِلَّذِيـنَ يُقَاتَلُـونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللَّـهَ عَـلَى نَصْرِهِـمْ لَقَدِيـرٌ﴾ بينمـا كانـت عينـاه تفيضـان بالدمـوع وهـو يحـاول كتمانهـا.. فدخـل عليـه غسـان وقـد ظهـرت عليـه آثـار التعذيـب، وهـو يمـشي بعصـا بعـد أن كـسرت إحـدى سـاقيه، ونظـر إليـه بوجهـه المـليء بالسـحجات وآثـار الـضرب، بينمـا كاد أن يفقـد إحـدى عينيـه.. وقـال لـه

بصوت بهيج:

- لقد أتت أمينة ومعها «مصطفى».

فالتفت الحاج إبراهيم بلهفة ووضع المصحف على منضدة أمامه وهمّ من مكانه، فدخلت أمينة وهي تحمل ابنها الوليد وقد سمته «مصطفى» على اسم الشهيد.. فمالت على أبيها ووضعت ابنها على حجره وهي تقول:

- انظر إلى حفيدك يا أبي.. إنه يحمل الكثير من ملامحك.

فنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع ورد بصوت متحشرج:

- بل إنه يشبه البطل مصطفى كثيرًا.

فضمه إلى صدره وهو ينظر على ملامحه الملائكية وهو يبتسم له.. وأكمل قائلاً:

- ليتك رأيت البطل.. ليتك تعلمت منه.

فردت أمينة بقوة:

- لقد نذرت مصطفى ولدي للمقاومة.. وما أن يشتد ذراعه سيحمل السلاح ويكمل مشوار خاله وأجداده ليحرر أرض فلسطين.

فدخلت عليهم زينة وهي متشحة بالسواد تحمل صينية القهوة لجدها، وهي تكتم دموعها داخلها.. كان وجهها الشاحب الحزين يحاجي كل ما بداخلها دون أن تنطق.. وما أن وضعت القهوة على المنضدة حتى هرعت إلى حجرتها، فلحقت بها أمينة.. فوجدتها تبكي بحرقة بجوار صورة مصطفى وهي تحتضنها بقوة.. فمالت عليها أمينة ووضعت يدها على رأسها وقالت:

- لقد كنت أعرف ما كان بينكما.. لقد كنتِ أقرب إليه من أي أحد.. إنه لم يعشق شيئًا في حياته مثل فلسطين وأنت.

فنظرت إليها زينة بعينين حمراوين وقالت بصوت ضعيف:

- لم يكن مصطفى بالنسبة إليّ الحبيب فقط.. لقد كان كل شيء في

تلك الدنيا.. فقد تعلمت منه العزيمة وحب الجهاد.. تعلمت منه كيف أحب وطني وأحب الناس.. منذ أن كنا أطفالاً وهو لم يتركني لحظة، لقد كنا نكبر ويكبر حبنا معنا، فلم أر في الدنيا أحدًا مثله.. لقد كان رائعًا في كل شيء.

فاحتضنتها أمينة بقوة ومسحت دموعها.. وقالت لها:

- وهو الآن يريد أن يراك سعيدة من أجله.. مصطفى مات شهيدًا وهو الآن في الجنة.. لقد ضحّى بحياته من أجلنا ومن أجل فلسطين.

عادت أمينة إلى منزلها وهي تحمل رضيعها بعد أن اطمأنت على أبيها.. فدخلت إلى المنزل فوجدته هادئًا، فظنت أن نزار خارجه.. فاقتربت من حجرته ونظرت خلال الباب الموارب.. فأصابتها الصاعقة وهي لا تصدق ما ترى.. أخذت تحملق بعينيها، فوجدت نزار جالسًا على الأرض وهو يمسك بجهاز لاسلكي ويقوم بإرسال بعض الإشارات وهو يهذي ببعض الكلمات العبرية.. فشعر بخطواتها وانتفض من مكانه مذعورًا وصرخ فيها قائلاً:

- ماذا تفعلين هنا؟ وكيف دخلتِ إلى هنا؟!

فاحمرّ وجهها من هول المفاجأة وسارت الرعشة بجميع أطرافها وردت مذهولة:

- بل ماذا تفعل أنت؟! ماذا تفعل بجهاز لاسلكي في بيتنا؟! أليس ذلك مثل ما يحمله جنود الاحتلال؟!

فرد نزار بصوت عالٍ:

- بلى هو.. إنهم يساعدونني.

فصرخت أمينة:

- أنا لا أصدق ما أسمع.. لقد عشت عمري كله مع خائن!

- وكيف تظنينا سنعيش؟! كيف سأصرف على هذا البيت وذلك المولود الجديد؟!

- ولكنه مال حرام.. وأنا لن أقبل على بيتي وولدي مالاً حرامًا.
فرد نزار بعنف:
- أنا لن أسمح لك بأن تضيعين ما قمت به.
- أنت خائن وملعون.. أنت محرّم عليّ وعلى بيتي ليوم القيامة.. يجب أن أبلغ عنك.. أنت أحقر من أن تعيش بيننا.
فدفعها نزار بقوة فسقطت على الأرض، وقال لها بلهجة تهديد:
- لو نطقتِ بكلمة سوف أقتلك.
وفرّ مسرعًا إلى مركز القيادة وهو يتلفّت حوله، حتى كاد أن يتعثر في الطريق أكثر من مرة.. بينما اتشح وجهه باللون الأصفر وزاغت عيناه، فدخل إلى الميجور دان وهو ينتفض من الرعب.. فنظر إليه بدهشة قائلاً:
- ماذا حدث؟
فرد نزار وهو يحاول أن يبتلع ريقه:
- كارثة سيدي.. كارثة.. لقد كشف أمري.. فقد دخلت زوجتي ورأتني وأنا أستخدم جهاز الإشارات.
فاحمرّ وجه الميجور وغلى الدم في عروقه وصفعه على وجهه بقوة، وقال:
- أنت غبي.. كيف تعرّض هذا الأمر للخطر.. لقد ضيعت مجهود سنين .
فتلعثم نزار ورد:
- أنا آسف سيدي.. ولكن...
فأمسك الميجور بقميصه ودفعه إلى حائط وقال:
- لقد أصبحت عديم الفائدة ويجب التخلص منك.
ونادى بصوت جهور على اثنين من الجنود وقال بقوة:
- خذوه من هنا وألقوا به في السجن حتى نتخلص منه.

فأصيب نزار بالذعر وسقط على الأرض وهو يصرخ بطريقة هستيرية:

- أرجوك سامحني.. لقد خدمتك لسنوات وسنوات؛ لا تعذبني.

فسحبه الجنود من قدميه وهو يتلوى على الأرض ويهذي بصوت مريض:

- أرجوك.. اتركني.. اتركني.

*****

آخر ليلة

عـاد الدكتـور ماكلـين إلى منزلـه في سـاعة متأخـرة.. وبينمـا كان يصعـد عـلى السـلالم سـمع صوتـًا هامسًـا ينـادي عليـه.. فالتفـت مسرعًـا وهـو يبحـث عـن مصـدر الصـوت في الظـلام، وهـو يـرد بقـوة «مـن؟ مـن؟!» فخـرج إليـه شـخص، أمعـن الدكتـور ماكلـين في ملامحـه حـتى تداركـه.. كان دانيـال قـد تحـرك ببـطء نحـوه، وهـو يتـكئ عـلى عصـا ويحمـل في يديـه كتابًـا وقـال لـه:

- دكتـور ماكلـين.. أريـد التحـدث معـك عـلى انفـراد دون أن يـراني أحـد.

فارتسـمت عـلى ملامحـه الدهشـة للوهلـة الأولى إلا أنـه أدخلـه المـنزل.. فأخـذ يجـر دانيـال قدميـه حـتى وصـل إلى أقـرب كـرسي وجلـس.. فاقـترب منـه الدكتـور ماكلـين بهـدوء وقـال:

- ماذا تحب أن تشرب؟

- أشكرك.. ولكنني في غاية العجلة.. الأمر لا يحتمل.

فـازدادت علامـات الدهشـة عـلى وجهـه.. فأكمـل دانيـال وهـو يمـد يـده بالكتـاب قائـلاً:

- هـذا أخطـر مـا يمكـن أن تجـده هنـا في إسرائيـل.. إنـه «بروتوكـولات حكمـاء صهيـون».

فانتبـه الدكتـور ماكلـين واتسـعت مقلتـاه.. وأخـذ منـه البروتوكـولات بلهفـة وقـال:

- كيف حصلت على تلك الوثائق؟ العالم كله يبحث عنها.

فأكمل دانيال:

- ليـس المهـم كيـف حصلـت عليهـا.. ولكـن الأهـم مـاذا تحتـوي.. إنهـا تضـم خططًـا لتدمـير العالـم.

فأمسـك بهـا الدكتـور ماكلـين وهـو يقلـب في صفحاتهـا، ورد بصـوت متحـشرج:

- هذا ما يطبقه سياسيوّ العالم المتطرفون بالحرف.

- وأولهم متطرفو إسرائيل.

فارتعـش الدكتـور ماكلـين وتصلبـت أطرافـه حـتى سـقط عـلى الكـرسي مـن هـول المفاجـأة.. فنظـر إليـه دانيـال بحـسرة وأكمـل:

- لقـد أصبحنـا نعيـش في جحيـم.. إنهـا ليسـت إسرائيـل الـتي أتينـا مـن شـتات العالـم كي نحقـق فيهـا حلمنـا.. وليسـت واحـة الحريـة والسـلام كمـا ادّعـوا.. فـلا يوجـد هنـا سـوى التعصـب والكراهيـة والـدم والنـار.. إسرائيـل أصبحـت تـأكل أبناءهـا وتحـرق كل مـا حولهـا.. الحلـم الـذي عشـنا مـن أجلـه هنـا أصبـح سرابًـا.

فصمـت الدكتـور ماكلـين وهـو يسـتمع لدانيـال، بينمـا كانـت ملامـح وجهـه مشـتعلة وكل أعصـاب جسـده متنافـرة.. وقـال بملامـح مضطربـة:

- يجـب أن تخـرج تلـك البرتوكـولات إلى النـور، ويعـرف العالـم مـدى الدمـار المقـدم عليـه.

فأكمل دانيال:

- لا بـد أن تترجـم إلى العربيـة ويقرؤهـا كل عـربي وحـتى غـير عـربي.. يجـب أن تنشرهـا في كل مـكان وتصبـح حديـث الـرأي العـام العالمـي.

فأمسـك الدكتـور ماكلـين بالبروتوكـولات بقـوة، بينمـا هـمّ دانيـال بالوقـوف وهـو يسـتعد للرحيـل.. فحـاول مسـاعدته فابتسـم دانيـال قائـلاً:

- لا تهتـم بي.. فأنـا سـأعود مثلمـا جئـت.. أمـا أنـت فاعـتنِ بنفسـك.. أرجـوك دكتـور ماكلـين.. ارحـل مـن هنـا في أسرع وقـت ممكـن.. لقـد

أصبـح وجـودك هنـا في غايـة الخطـورة.. ارجـع إلى وطنـك فهـو أسـلم لـك.

ومـا أن نـزل دانيـال خفيـة في الظـلام.. حـتى أخـذ الدكتـور ماكلـين يقلـب في المسـتندات بتلهـف وهـو يحملـق في السـطور، وكأن النـيران تشـتعل منهـا، فألقـى بهـا عـلى الأرض بقـوة وأخـذ يهـذي قائـلاً:

- يبدو أن تلك هي النهاية.. فلم يعد لك مكان هنا يا ماكلين.

لـم تسـطر خيـوط شـمس اليـوم التـالي أنوارهـا حـتى هـرع الدكتـور ماكلـين إلى مكتـب بـن أهـارون في التاسـعة صباحًـا.. فمـا رآه حـتى أصابتـه الدهشـة وقـال ضاحـكًا:

- ما الذي أتى بك في ساعة مبكرة هكذا؟!

فصمت الدكتور ماكلين قليلاً ثم رد:

- لقد جئت في أمر أتمنى أن تساعدني عليه.

فـازدادت دهشـة بـن أهـارون، فأكمـل الدكتـور ماكلـين وهـو يخـرج ورقـة مـن جيبـه:

- لقد جئت اليوم لأقدم استقالتي.. وأتمنى أن تقبلوها بسرعة.

فانتفض بن أهارون من مكانه وكأن شيئًا قد لسعه، ورد بقوة:

- هـل حـدث شيء مـا؟ نحـن هنـا كلنـا نعمـل عـلى راحتـك عزيـزي ماكلـين!

فابتسم الدكتور ماكلين ورد بهدوء:

- بالعكـس.. صدقـني لقـد قضيـت هنـا وقتًـا مـن أجمـل الأوقـات.. ولكنـني فضّلـت الاعـتزال.. وسـوف أعـود إلى شـيكاجو قريبًـا.

فارتبـك بـن أهـارون واهـتزت يـده وهـي تلتقـط ورقـة الاسـتقالة وتـردد قليـلاً، ثـم قـال:

- عـلى العمـوم هـذا الأمـر ليـس بيـدي وحـدي.. سـوف أستشـير مجلـس الكليـة وسـوف نتخـذ القـرار سريعًـا.

فابتسم الدكتور ماكلين وقال:

- آمل في ذلك.

وما أن رحل الدكتور ماكلين حتى طار بن أهارون إلى مكتب إبرام بالشين بيت.. فدخل عليه وهو يلهث من التعب وفي يده ورقة الاستقالة.. وقال بصوت مرتعش وملامح مكفهرة:

- أرأيت ما فعله ماكلين؟ إنه يريد الاستقالة والرحيل من هنا!

فنظر إليه إبرام والشرر يخرج من عينيه، وأخرج مجموعة من الأوراق من مكتبه، وأخذ يلوّح بها قائلاً:

- إنه يريد تدميرنا.. إنه يقوم بمراسلة أحد تلاميذه ويُدعى «جون مارتن» يعمل في الأمم المتحدة، يخبره بكل ما يحدث هنا في إسرائيل.. ليس ذلك فحسب، بل الأخطر من ذلك أنه يراسل جمعيات حقوقية في الولايات المتحدة، ويرسل لها مقالات وصور وفيديوهات لكل ما يجري في المظاهرات هنا.. إنه يصوّرنا على أننا وحوش ضارية ويجب محاسبتنا دوليًا.

فارتعشت أطراف بن أهارون وسقطت منه ورقة الاستقالة، بعد أن ضربته الصاعقة، وقال:

- أنا لا أصدق.. شخص بثقل ومكانة جيمس ماكلين في العالم عندما يتحدث سيكون له صداه وتأثيره والكل سيصدقه.. بدلاً من أن يكون صوتًا لنا في العالم.. أصبح يكشف كل أسرارنا وسيقلب الرأي العام العالمي ضدنا.

فرد إبرام وهو يشتعل غضبًا وأخذ يصرخ قائلاً:

- ما أن وصلتنا تلك التقارير والشين بيت كله في حالة ارتباك.. لم نتوقع أن تصل به الجرأة إلى أن يفضحنا عالميًا.. هذا الملعون يريد أن يدمر كل ما نقوم به.. إسرائيل في خطر بسببه.

فصمت بن أهارون وهو يغمغم، فأكمل إبرام:

- منـذ البدايـة وأنـا أرى أن هـذا الشـخص يعبـث بأمـن إسرائيـل ومصالحهـا.. ولكـن جـاء الوقـت كي أوقفـه عنـد حـده.. سـتكون نهايتـه عـلى يـدي.. عرفـت الآن لمـاذا يريـد أن يـترك الجامعـة؟

وأمسك الورقة وأعادها إلى بن أهارون وقال له:

- وافِـق لـه عـلى الاسـتقالة، ولكـن بعـد أن تضيّـع بعـض الوقـت حـتى نسـتطيع أن نسـتعد لـه.

فارتسـمت عـلى وجـه بـن أهـارون ملامـح القلـق.. فنظـر إليـه إبـرام بعينـين ناريتـين وقـال بتحـدٍ:

- لا تسـتبعد عزيـزي حاييـم اي شيء بخصـوص بهـذا الرجـل .. فلقـد أصبـح خطـرًا عـلى وجودنـا.

*****

الأحد ٤ أبريل ٢٠٠٤

هـذا اليـوم لـم يكـن يومًـا عاديًـا بالنسـبة إلى الدكتـور ماكلـين.. فقـد كان هــو آخــر يــوم لــه في الجامعــة العبريــة وفي إسرائيــل كلهــا، والــذي سماه في مذكراتـه «بيـوم الـوداع».. لـم تـذق عينـاه ليلتهـا طعـم النـوم وظــل ســاهرًا طــوال الليــل، يمــر أمــام عينيــه شريــط بــكل مــا رأى في إسرائيـل.. منـذ أن وطـأت قدمـاه مطـار بـن جوريـون وشـوارع القـدس العتيقـة.. يـوم مـر فيـه بقبـة الصخـرة ورأى المصلـين اليهود أمـام حائط المبـكى.. عندمـا وقـف أمـام تمثـال العـذراء بكنيسـة القيامـة.. ذكرياته في مبـاني الجامعـة العبريـة وأروقتهـا.. مصطفـى القـوادري ورحلـة الخليـل وآشـيرا وشـلة البـار ودانيـال وآراءه الجريئـة.. مشـاهد المظاهـرات مـن ضرب واضطهــاد للفلســطينيين، ومنظــر استشــهاد الشــيخ ياســين.. كل ذلـك مـر أمامـه كالطيـف في الخيـال.. وكأنهـا لحظـات مـن عمـره مـرت كالوميـض.. قـام بعدهـا يحـزم أغراضـه في حقائبـه اسـتعدادًا للرحيـل، وأخـذ يلملـم أشـيائه المتناثـرة في الشـقة.. فأمسـك بصـورة زوجتـه ليـندا، وأخــذ يتأمــل ملامحهــا وهــو يتنهــد بقــوة، حــتى كاد أن يشــتعل صــدره، وقـال بصـوت ضعيـف:

- لقـد آن الأوان أن أرحـل يـا ليـندا.. فلـم أجـد نفسـي هنـا.. لقـد اشـتقت إليـك بجنـون، وهـا أنـا سـوف أعـود إليـك سريعًـا.

ثـم حملهـا برفـق حـتى وضعهـا في الحقيبـة.. وبينمـا كان يحـضّر ملابسـه عـثر عـلى الشـال الفلسـطيني الـذي كان قـد أهـداه لـه مصطفى.. فأمسـكه بقـوة وقربـه مـن أنفـه وهـو يتشـمم رائحتـه فيـه.. رائحة شـوارع الخليـل وذكرياتـه.. رائحـة البيـوت وأشـجار الزيتـون والياسـمين.. رائحـة

الـدم والمقاومـة وشـباب يقـدم نفسـه فـداءً لوطنـه.. رائحـة الحـاج إبراهيـم وهـو يعانقـه ويودعـه ودموعـه تنهمـر عـلى لحيتـه البيضـاء.

حمـل الدكتـور ماكلـين حقائبـه وهـو يرمـق الشـقة بعـد أن أصبحـت خاويـة.. ونـزل إلى الشـارع مسـتقلاً سـيارته وهـو يحملـق في المـارة والمحـال والمقاهـي، ووجـوه النـاس كأنهـا تودعـه، حـتى وصـل إلى مبـنى الجامعـة العبريـة.. فأخـذ يرمـق المبـاني والطلبـة وكأنهـا آخـر مـرة سـيراهم فيهـا.. دخـل إلى الفصـل فوجـد عـدد الطـلاب كامـلاً.. فأخـذ يحملـق فيهـم وهـو ينظـر إلى كرسـي مصطفـى ومريـم الخاليـين، ثـم قـال بصـوت ضعيـف:

- هـذه المـرة.. هـي آخـر مـرة سـتروني فيهـا هنـا.. أتمـنى لـو كنـت قـد اسـتطعت أن أفيدكـم بـشيء طـوال تلـك المـدة.. ومـع ذلـك فقـد تعلمـت أنـا منكـم أشـياء عديـدة.. لا تتعجبـوا مـن ذلـك.. فقـد قضيـت معكـم وقتًـا مـن أسـعد أوقـات حيـاتي وهـي مـا لـن أنسـاها أبـدًا.. أتمـنى لكـم حظًـا سـعيدًا وأن تحققـوا كل مـا تتمنونـه.

ومـا أن أنهـى كلامـه وخـرج مـن الفصـل حـتى خـرج جميـع الطـلاب خلفـه متدافعـين كي يسـلموا عليـه.. وفي وسـط هـذا الزحـام رأى الدكتـور ماكلـين دانيـال يقـترب منـه متكئًـا عـلى عـكازه.. فمـال إليـه وهـو يحتضنـه بقـوة.. فقـال لـه دانيـال والدمـوع تمـلأ عينيـه:

- أنت لا تعلم كم أثرت فينا؛ أرجوك اعتنِ بنفسك.

فرد عليه منفعلاً:

- طمنّي عليك دائمًا.. أريد أن أسمع أخبارك.

ومـا أن خـرج الدكتـور حـتى وجـد صوتًـا صارخًـا يناديـه مـن بعيـد.. فاسـتدار خلفـه فوجـد آشـيرا تـسرع نحـوه وهـي تحتضنـه بجنـون، وتحملـق في ملامحـه، وقالـت بصـوت مهـزوز:

- سأشـتاق إليـك جـدًا.. أرجـوك لا تغـب عنـا كثـيرًا، فالجامعـة لـن

يكـون بهـا حيـاة مـن دونـك.. بـل إسرائيـل كلهـا.

فابتسم بهدوء ووضع يده على كتفها ورد قائلاً:

- وأنا أيضًا.. أنت لا تعلمين كم أنت جميلة!

خـرج الدكتـور ماكلـين مـن مبـنى الكليـة والجميـع مـن خلفـه يودعونه، بينمـا كان بـن أهـارون ينظـر إليـه مـن خلـف زجـاج مكتبـه مـن بعيـد.. أخـذ الدكتـور ماكلـين يسـير في الفنـاء وهـو يلقـي نظـرة الـوداع عليـه، ونظـر إلى أعـلام الكليـة وعلـم إسرائيـل كأنهـا أول مـرة يدخـل فيهـا الجامعــة.. ومــا أن دخــل إلى ســيارته وأدار المحــرك.. حــتى انفجــرت الســيارة انفجــارًا رهيبًــا، وتطايــرت أجزاؤهــا في الهــواء، وتناثــرت أشــلاء جســده وغطــت دمــاؤه المــكان.. هــز الانفجــار أركان الجامعــة وأســقط الواجهــات الزجاجيــة.. وخــرج الطــلاب والأســاتذة مذعوريــن إلى مــكان الحادثــة.. ومــا أن رأت آشــيرا المنظــر حــتى أصابتهــا حالــة هســتيرية وأخــذت تــصرخ بصــوت جنــوني:

- لاااا.. فعلوها الملاعيييين.. لا تمت يا دكتور ماكلين.

فاحتضنهـا دانيـال وهـو يبـكي بحرقـة والدمـوع تغطي وجهـه، وملامح الحـسرة والألـم تعتـصره، وهـو لا يصـدق مـا يـرى أمامـه.. اشـتعلت النـيران لتلتهـم كل شيء، بينمـا سـقط الـلاب تـوب الخـاص بـه بعيـدًا، بعـد أن تناثـر إلى أشـلاء مثـل صاحبـه.. دمـرت صحفـات مذكراتـه، ولكنهـا طـارت بأجنحـة تحمـل معهـا كلمـات السـلام والحـب والأمـان.. تلـك الكلمـات الـتي أخذهـا مـن التـوراة والإنجيـل والقـرآن الكريـم.. لـم يسـتطع تحقيـق حلمـه الـذي عـاش عمـره كلـه يحـاول تحقيقـه، هـو أن يعيـش النـاس في سـلام.. ولكـن أفكاره تناقلـت بـين تلاميـذه كالريـح حـتى بعـد وفاتـه.. سـقط جسـده في الأرض الـتي عشـقها طـوال عمـره، وكأنـه كان يتمـنى تلـك اللحظـة الـتي يحتضـن فيهـا تلـك الأرض.. أرض السـلام.

- رغـم وفـاة مريـم.. اسـتمر يعقـوب في جشـعه وطمعـه وكـنزه للمـال، وعـاد للنصـب عـلى العـرب واسـتغلالهم.. في الوقـت الـذي أصابـت أمهـا حالـة مـن الاكتئـاب ورفـض الحيـاة في المسـتوطنة.. فـكل مـا فيهـا يذكرهـا بابنتهـا الـتي ماتـت أمـام عينيهـا.. وأصرت أن تنتقـل هـي وأبناؤهـا الصغـار إلى مسـتوطنة «رامـات راحيـل» جنـوبي القـدس، في حـين بقـي يعقـوب في هارحومـا وحـده بـين أعمالـه وأموالـه.. وإن كان كلمـا نظـر في صـورة مريـم انهمـرت الدمـوع مـن عينيـه وتحسـس ملامـح وجههـا بأناملـه.

- تـم فصـل مـوشي مـن الخدمـة في سـلاح الطـيران وحكـم عليـه بالسـجن ٣ أعـوام وتجريـده مـن رتبتـه العسـكرية، بتهمـة العصيـان وعـدم إطاعـة الأوامـر العسـكرية، وهـو حكـم مخفـف نتيجـة تدخـل الجـنرال ليفـي، بعدمـا أعـدّه ليـس في حالتـه الطبيعيـة.. ولـم يكـن طـرده مـن الجيـش أقـل صدمـة مـن انتحـار أختـه القريبـة إلى قلبـه.. فقـد افتتح مطعمًـا للباسـتا في القـدس بمـا تبقـى لديـه مـن مـال، وسـماه باسـمها «مطعـم مريـم»، ووضـع صورتهـا شـعارًا للمطعـم، وأصبـح يقـدم الأطبـاق الـتي كانـت تحبهـا.. وعـاش في شـقة قريبـة مـن المطعـم وحـده.

- اسـتمر عسـاف في نشـاطه كمـروج للمخـدرات، ونشـط بشـكل ملحـوظ بـين أوسـاط الشـباب، محققًـا أرباحًـا خياليـة، وأصبـح لـه زبائـن مـن أغلـب سـكان هارحومـا والقـدس، بـل في أغلـب إسرائيـل.. ولكـن طمعـه وغبـاء نعـوم جعلاهمـا يقعـان في براثـن بعـض التجـار الكبـار، حـتى كاد أن يُقتـل أثنـاء إحـدى العمليـات، في حـين أصيـب نعـوم إصابـة بالغـة أصابتـه بالشـلل.

- لـم يكـن هنـاك ذنـب اقترفـه ديفيـد في حياتـه بقـدر فقدانـه لنسـخة «بروتوكـولات حكمـاء صهيـون».. فرغـم أنـه عـاش طريـدًا أغلـب أوقاتـه

مـن الشرطـة، يتنقـل مـن منطقـة إلى أخـرى ومـن سـكن إلى آخـر.. لكـن مشـكلته الكـبرى كانـت مـع جماعـة كاخ.. فقـد تـم نبـذه مـن الجماعـة وأصبـح دان وعومـير همـا القائمـان بأعمالـه.

- نجـح دانيـال في تـرقي سـلم الصحافـة كمـا كان يحلـم، رغـم مـا وجـده مـن حـرب ضروس أمـام مبادئـه الثابتـة في الدفـاع عـن السـلام والتآخـي مـع العـرب.. كمـا أقـام جلعـاد عـددًا مـن المعـارض الكاريكاتوريـة السـاخرة، وأصـدر مجلـة كاريكاتوريـة محليـة، والـتي أيضًـا لاقـت صدامًـا مـع السـلطة ولكنهمـا أصرا عـلى اسـتكمال الطريـق.. إلا أن أهـم مـا قـام بـه دانيـال هـو أنـه أخـذ عـلى عاتقـه ترجمـة «بروتوكـولات حكمـاء صهيـون» للعربيـة، ونـشره بسريـة في أوسـاط المثقفـين العـرب باسـم مسـتعار، مسـتكملاً رحلـة الدكتـور ماكلـين.

- لـم يكـن هنـاك اختيـار أمـام آشـيرا سـوى الاسـتمرار في نفـس الطريـق الـذي لـم تعـرف غـيره.. فرغـم كـون الدكتـور ماكلـين نقطـة مضيئـة في حياتهـا لكـن ضغـوط الشـين بيـت وإغراءاتـه كانـت أقـوى منهـا.. وظلـت أداة طيّعـة ونموذجًـا لسـلاح الجنـس يسـتخدمونها ضـد أي عـدو لهـم.

- بـن أهـارون.. هـو المسيطر الأول عـلى الجامعـة العبريـة والحيـاة العامـة في القـدس.. ظـل يبـث أفـكاره بـين الطلبـة وفي وسـائل الإعـلام للـرأي العـام الإسرائيـلي، باعتبـاره مفكـرًا ومحلـلاً، ليبرهـن للعالـم مـدى مصداقيـة الصهيونيـة العالميـة وحـق إسرائيـل في الأرض.. وبفضـل الوثيقـة الـتي حصـل عليهـا مـن باركـر نجـح في الذهـاب إلى العـراق والحصـول عـلى أمـلاك عائلتـه القديمـة في الموصـل، ويمـد ذراعًـا لليهـود مـرة أخـرى في بـلاد الرافديـن.

- مثلمـا كان بـن أهـارون هـو المسـيطر السـياسي عـلى الأوضـاع.. اسـتمر إبـرام في السـيطرة الأمنيـة عـلى كل شـبر في القـدس وإسرائيـل

كلهـا، بعدمـا تمـت ترقيتـه لرتبـة «تـات آلـوف».. يضـع البـلاد في قبضـة مـن حديـد ويفتـح سراديـب المعتقـلات في وجـه الفلسـطينيين، ويسـحق كل مـن يعـارض الـرأي في إسرائيـل، عـلى عكـس مـا يظهـر عـلى السـطح بأنهـا بلـد الديموقراطيـة.. إلا أنـه كان عـلى رأس المطلوبـين مـن رجـال المقاومـة، ونجحـوا في إحـدى العمليـات في ضرب موكبـه بالقـدس، مـا جعلـه يفقـد إحـدى سـاقيه.

- أخـرج بيـت القـوادري عـددًا مـن الأبطـال الذيـن أكملـوا طريـق المقاومـة.. وأصبـح مصطفـى الصغـير ملازمًـا لعمـه غسـان في العديد من عمليـات المقاومـة، يحمـل معهـم السـلاح وينقلـه لمواقـع العمليـات، وهـو يـرى أمامـه عمـه الـذي استشـهد قبـل مولـده.. بـل أصبـح يحمـل تقاسـيم وجهـه وملامـح شـخصيته.. وأصبـح يتمـنى أن يقابلـه في الجنـة.

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

kayanpublishing kayan.publish

kayanpublishing kayan_publishing